

الذِّكْرُ الْجَمُّ

إلى مكارم الشريعة

للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد
ابن المفضل الراغب الأصفهاني
رحمه الله
آمين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بيروت - لبنان

٢١٨١
رأى

الذريعة
إلى مكارم الشريعة



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا بجلوده الذي هو سبب الوجود نوراً يهدينا الى الاقبال عليه ويميل بنا الى الاصغاء اليه ، ويدلنا على حسن معاملته والقوة على النفاذ في طاعته وأن يجعلنا من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان »^(١) وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين حيث قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »^(٢) (قال الشيخ) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رحمه الله : كنت قد أشرت فيما أملتته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ، وان المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف الباربي جل ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعلم والعفو وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر ، وان الأحكام تتناول ذلك في العبادات وانه باكتساب المكربة يستحق الانسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله عز وجل

١ - الحجر - ٤٢

٢ - ص - ٨٢

: « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »^(١) وبقوله تعالى : « وَيَسْتَخْلِفُكَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »^(٢) وبقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »^(٣) وأشرت ان خلافة الله عز وجل لا تصح إلا بطهارة النفس ، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم وقد استخرت الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة الى مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الانسان الى منزل العبودية التي جعلها الله تعالى شرفاً للأتقياء وكيف يترقى عنها إذا وصلها الى منزلة الخلافة التي جعلها الله تعالى شرفاً للصديقين والشهداء فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علماً وإبرازهما عملاً يكتسب العلي ويتم التقى وتبلغ الى جنة المأوى ، ورغبتى أيها الأخ الفاضل وفقك الله وأرشدك وأعذك من شر نفسك في تصنيفه ما رأيت من تشوقك بأن تزين ما ولاه الله تعالى من حسن خلقك وخلقك بما يتولاه من تحسين أدبك وإكمال مروءتك فما أجدر محياك الصبيح أن يحصل وراء الرأي الصحيح شعر :

حتى تصادف اترجا يطيب معاً * حملاً ونوراً فطاب العود والورق

فما أقبح المرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنة يعمرها بوم وصرمة يجرسها ذئب كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه : أما البيت فحسن ، وأما ساكنه فرديء وأن يكون باعتبار كثرة ماله وحسن أثاثه ثوراً عليه حلي فقد سمى بعض الحكماء الأغنياء الأغبياء تيوساً صوفها

درر ، وحمرا أجلاها خبر ، ودخل حكيم على رجل فرأى داراً منجدة وفرشا مبسوطة ورأى صاحبها خلواً من الفضيلة فبزق في وجهه فقال له : ما هذا السفه أيها الحكيم ؟ قال : بل هذه حكمة ان البصاق ليرمى في أخس مكان في الدار ولم أر في دارك أخس منك فنبه بذلك على دناءة الجهل وأن قبحه لا يزول بادخال القنيات ، وكن أيها الأخ عالماً وبعلمك عاملاً تكن من أولياء الله الذين « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(١) واحذر الشيطان أن يسبك ويغويك باعراض الدنيا وزخارفها فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه كما قال عز من قائل : « إنما ذلکم الشيطان يخوف أولياءه »^(٢) واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً أو إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً ، وان يرضى بقنية مستعارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة كما قيل :

فلم ير في عيوب الناس شيء * كنقص القادرين على التام

وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه : مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر وأعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة ، وإن أردت أن تشاهدهم في الجنة يتنعمون فاستعد حال حارثة حيث قال للنبي عليه السلام : أصبحت مؤمناً حقاً فقال عليه السلام : « لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟ فقال في جملة جوابه : وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فصدقه النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : « عرفت

فالزم ولا يخدعك عن طلب ذلك وإدراكه الذين يصدون عن سبيل الله
ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون » فقد وصفهم الله بالصمم
والعمى إذ قال: « مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ »^(١) ثم
ذمهم بقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ »^(٢) . ثم فرق بينهم وبين من ضادهم فقال : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ
كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »^(٣)
فاخبر تعالى انهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصره
الذين بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات وهذا الكتاب يشتمل
على سبعة فصول وأبواب .

الفصل الأول

﴿ في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ مثل أهل الدنيا وما رشحوا له ﴿ الباب
الثاني ﴾ ماهية الانسان وكيفية تركيبه ﴿ الباب الثالث ﴾ في قوى
الانسان ﴿ الباب الرابع ﴾ تعاون القوى الروحانية وكيفية إدراكها
﴿ الباب الخامس ﴾ بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان ﴿ الباب
السادس ﴾ بيان ما به يفضل الانسان ﴿ الباب السابع ﴾ كون منزلة
الانسان بين البهيمة والملك ﴿ الباب الثامن ﴾ ما لأجله أوجد الانسان

﴿ الباب التاسع ﴾ السياسة التي يستحق بها خلافة الله عز وجل
﴿ الباب العاشر ﴾ الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة
الأرض ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ كون طهارة النفس شرطاً في صحة
خلافة الله تعالى وكمال عبادته ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ فيما يفزع اليه في
طهارة القلب والنفس ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ بيان منازعة الهوى للعقل
﴿ الباب الرابع عشر ﴾ الفرق بين ما يسومه الهوى ويسومه العقل
﴿ الباب الخامس عشر ﴾ في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة النفس
والهوى ﴿ الباب السادس عشر ﴾ حصول الخلق المحمود بطهارة
النفس ﴿ الباب السابع عشر ﴾ الفرق بين الطبع والسجية والخلق
والعادة والهوى ﴿ الباب الثامن عشر ﴾ إمكان تغيير الخلق ﴿ الباب
التاسع عشر ﴾ صعوبة إصلاح القوى الشهوية وما في هذه القوى من
المنفعة والمضرة ﴿ الباب العشرون ﴾ ازدياد الانسان من الفضائل
والرذائل بتعاطيها ﴿ الباب الحادي والعشرون ﴾ فيما يحمد ويذم من
التخلق ﴿ الباب الثاني والعشرون ﴾ سبب اختلاف الناس في
أخلاقهم ﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾ وجوب اكتساب الفضيلة
المحمودة ﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾ أنواع نعم الله الموهوبة
والمكسوبة ﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾ حاجة بعض هذه الفضائل
الى بعض (الباب السادس والعشرون) الفضائل المطيفة بالانسان
﴿ الباب السابع والعشرون ﴾ الفضائل الجسمانية ﴿ الباب الثامن
والعشرون ﴾ ما يتولد من الفضائل ﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾
الفضائل التوفيقية ﴿ الباب الثلاثون ﴾ ما يتولد من الفضائل النفيسة
بعضها ببعض ﴿ الباب الحادي والثلاثون ﴾ الباعث على فعل الخير

وتحري الفضائل ﴿ الباب الثاني والثلاثون ﴾ الموانع من تحري الفضائل
﴿ الباب الثالث والثلاثون ﴾ الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار
عنها الى أقصى الرذائل ﴿ الباب الرابع والثلاثون ﴾ بيان عبادة الله في
تهذيب الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم .

الفصل الثاني

﴿ في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ فضيلة العقل ﴿ الباب الثاني ﴾ أنواع العقل
﴿ الباب الثالث ﴾ المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي ﴿ الباب
الرابع ﴾ منازل العقل واختلاف أساميها بحسبها ﴿ الباب الخامس ﴾
جلالة العقل وشرف العلم ﴿ الباب السادس ﴾ الفرق بين العقل
والعلم والمعرفة والدراية والحكمة ﴿ الباب السابع ﴾ توابع العقل
﴿ الباب الثامن ﴾ ثمرة العقل من معرفة الله تعالى الضرورية والكسبية
وغاية ما يبلغه الانسان ﴿ الباب التاسع ﴾ وجوب بعثة الأنبياء عليهم
السلام وقلة الاستغناء عنهم ﴿ الباب العاشر ﴾ ما تعرف به صحة النبوة
﴿ الباب الحادي عشر ﴾ كون العقل والرسول هاديين للخلق الى الحق
﴿ الباب الثاني عشر ﴾ تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتدرب في
العلوم العقلية ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ في الايمان والاسلام والتقوى
والبر ﴿ الباب الرابع عشر ﴾ في الايمان ﴿ الباب الخامس عشر ﴾ في
أنواع الجهل ﴿ الباب السادس عشر ﴾ في قول النبي ﴿ صلى الله عليه
وسلم ﴾ الايمان بضع وسبعون باباً ﴿ الباب السابع عشر ﴾ كون العلم

مركزاً في نفوس الناس ﴿ الباب الثامن عشر ﴾ حصر أنواع المعلومات
 ﴿ الباب التاسع عشر ﴾ ما تعرف به فضيلة العلم ﴿ الباب العشرون ﴾
 استحسان معرفة أنواع العلوم ﴿ الباب الحادي والعشرون ﴾ معادة
 بعض الناس لبعض العلوم ﴿ الباب الثاني والعشرون ﴾ الحث على
 تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه ﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾
 أحوال الناس في استفادة العلم وإفادته ﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾ ما
 يجب على المتعلم أن يتحراه ﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾ ما يجب على
 المعلم أن يتحراه مع المتعلمين منه ﴿ الباب السادس والعشرون ﴾
 وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم
 ﴿ الباب السابع والعشرون ﴾ وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة
 إهمال ذلك ﴿ الباب الثامن والعشرون ﴾ ذكر من يصلح لوعظ العامة
 ﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾ الحالة التي يجب أن يكون عليها الواعظ
 ﴿ الباب الثلاثون ﴾ صعوبة المعيار التي تعرف به حقائق العلوم
 ﴿ الباب الحادي والثلاثون ﴾ ذكر كراهية الجدال للعوام وذمه على كل
 حال ﴿ الباب الثاني والثلاثون ﴾ ما يجب أن يعامل به ذو الجدال
 المماحك ﴿ الباب الثالث والثلاثون ﴾ في الوجوه التي يقع من أجلها
 الشبه والاختلاف ﴿ الباب الرابع والثلاثون ﴾ بيان اختلاف الناس في
 الأديان والمذاهب ﴿ الباب الخامس والثلاثون ﴾ النطق والصمت
 ﴿ الباب السادس والثلاثون ﴾ في مدح الصدق وذم الكذب ﴿ الباب
 السابع والثلاثون ﴾ ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ﴿ الباب
 الثامن والثلاثون ﴾ أنواع الكذب والداعي إليه ﴿ الباب التاسع
 والثلاثون ﴾ الذكر الحسن من المدح والثناء ﴿ الباب الأربعون ﴾

الشكر ﴿ الباب الحادي والأربعون ﴾ الغيبة والنميمة ﴿ الباب الثاني والأربعون ﴾ الكلام المستقبح ﴿ الباب الثالث والأربعون ﴾ المزاج والضحك ﴿ الباب الرابع والأربعون ﴾ الحلف .

الفصل الثالث

﴿ فيما يتعلق بالقوى الشهوية ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ الحياء ﴿ الباب الثاني ﴾ كبر الهمة ﴿ الباب الثالث ﴾ الوفاء والغدر ﴿ الباب الرابع ﴾ المشاورة ﴿ الباب الخامس ﴾ النصيح ﴿ الباب السادس ﴾ كتمان السر ﴿ الباب السابع ﴾ التواضع والكبر ﴿ الباب الثامن ﴾ الفخر ﴿ الباب التاسع ﴾ العجب ﴿ الباب العاشر ﴾ أنواع اللذات وتفصيلها ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ ما يحسن تناوله من المطعم وما يقبح ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ ما يحسن تعاطيه من المنكح وما يقبح ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ ذكر العفة ﴿ الباب الرابع عشر ﴾ القناعة والزهد ﴿ الباب الخامس عشر ﴾ الورع .

الفصل الرابع

﴿ فيما يتعلق بالقوى الغضبية ﴾ .

﴿ الباب الأول ﴾ ما ينبع من القوى الغضبية ﴿ الباب الثاني ﴾ أنواع الصبر ومدحه ﴿ الباب الثالث ﴾ الشجاعة ﴿ الباب الرابع ﴾ أسماء أنواع الفزع والفرق بين ما يحمد ويذم منها ﴿ الباب الخامس ﴾

مداواة الغم وإزالة الخوف ﴿ الباب السادس ﴾ أحوال الناس في محبة الموت والاحتياال لقلة المبالاة به ﴿ الباب السابع ﴾ السرور والتوبة ﴿ الباب الثامن ﴾ العذر والتوبة ﴿ الباب التاسع ﴾ الحلم والعفو ﴿ الباب العاشر ﴾ ثوران الغضب وفضل كظمه ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ الغيرة والجور ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ الغبطة والمنافسة والحسد.

الفصل الخامس

﴿ في العدالة والظلم والمحبة والبغض ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ ذكر العدالة وفضيلتها ﴿ الباب الثاني ﴾ أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه ﴿ الباب الثالث ﴾ ما يحسن ترك العدالة فيه ﴿ الباب الرابع ﴾ ذكر الظلم ﴿ الباب الخامس ﴾ الأسباب التي يحصل منها الإضرار ﴿ الباب السادس ﴾ ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ﴿ الباب السابع ﴾ ماهية المحبة وأنواعها ﴿ الباب الثامن ﴾ فضيلة المحبة ﴿ الباب التاسع ﴾ فضيلة الصداقة ﴿ الباب العاشر ﴾ ذكر المحبة في الناس ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ الحث على مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ في العداوة .

الفصل السادس

﴿ فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر ﴿ الباب
الثاني ﴾ تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل أحد بما
يتحراه ﴿ الباب الثالث ﴾ كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس
﴿ الباب الرابع ﴾ مناسبة الابدان للصناعات ووجوب التكسب
﴿ الباب الخامس ﴾ مدح السعي وذم الكسل ﴿ الباب السادس ﴾
تقاسم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض ﴿ الباب السابع ﴾ في أن
أصول الصناعات مأخوذة عن وحي ﴿ الباب الثامن ﴾ في شأن الناض
المتعامل به وبيان حكمة الله تعالى ﴿ الباب التاسع ﴾ مدح المال وذمه
﴿ الباب العاشر ﴾ ذكر المال والأدب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل
﴿ الباب الحادي عشر ﴾ سبب إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل ﴿ الباب
الثاني عشر ﴾ تحقيق كون المال في أيدي الناس ﴿ الباب الثالث عشر ﴾
تفاوت أحوال المتناولين للأعراض الدنيوية ﴿ الباب الرابع عشر ﴾ في
بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا ﴿ الباب الخامس
عشر ﴾ في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ﴿ الباب السادس عشر ﴾ بيان
حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ، ومن لا يجوز له ذلك
﴿ الباب السابع عشر ﴾ ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية
﴿ الباب الثامن عشر ﴾ ذكر الانفاق الممدوح والانفاق المذموم ﴿ الباب

التاسع عشر ﴿ حقيقة السخاء والجود والشح والبخل ﴾ الباب
العشرون ﴿ فضيلة الجود وذم البخل ﴾ الباب الحادي والعشرون ﴿
أنواع الجود والمجود به .

الفصل السابع ﴿ في ذكر الأفعال ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ أنواع الأفعال ﴿ الباب الثاني ﴾ الفرق بين
الفعل والعمل والصنع ﴿ الباب الثالث ﴾ أنواع الصناعات ﴿ الباب
الرابع ﴾ الأفعال الإرادية وغير الإرادية ﴿ الباب الخامس ﴾ ما يستحق
به من الأفعال اللوم ، وما لا يستحق به ذلك ﴿ الباب السادس ﴾
الأسباب التي يمكن نسبة الفعل إليها .

الفصل الأول ﴿ في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب ﴾

الباب الأول ﴿ مثل أهل الدنيا وما رشحوا له ﴾

الانسان في هذه الدار كما قال علي رضي الله عنه : الناس سفر

والدنيا دار عمر لا دار مقر ، وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده ،
 وزمان حياته مقدار مسافته ، وسنوه منازل ، وشهوره فراسخه وأيامه
 أمياله ، وأنفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قيل :
 رأيت أخا الدنيا وإن كان خافضاً * أخا سفر يسرى به وهو لا يدري
 وقد دعي الى دار السلام كما قال الله تعالى : « هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ »^(١) وقال تعالى : « وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ »^(٢) وتوجه به اليها
 نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات جنات تجري من تحتها الأنهار ، بل
 الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، لكن لما كان
 الطريق اليها مضلة مظلمة قد استولى عليها أشرار ظلمة جعل الله عز
 وجل لنا من العقل الذي ركه فينا وكتابه الذي أنزله علينا نوراً هادياً ،
 ومن عبادته التي أمرنا بها حصناً وافياً فقال في وصف نور الله : « الله نور
 السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة
 الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا
 غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله
 لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس »^(٣) فجعل المصباح مثلاً
 للعقل والمشكاة مثلاً لصدر المؤمن ، والزجاجة لقلبه والشجرة المباركة
 وهي الزيتون للدين وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبهاً على انها مصونة
 عن التفريط والافراط كما قال : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
 أَقْوَمُ »^(٤) والزيت للقرآن ، وبين أن القرآن يمد العقل مد الزيت
 المصباح وانه يكاد يكفي لوضوحه وإن لم يعضده العقل ، ثم قال :

١ - الأنعام ١٢٧

٢ - النور ٣٤

٣ - الإسراء ٩

٤ - يونس ٢٥

« نور على نور » أي نور القرآن ونور العقل ، وبين أنه يخص بذلك من يشاء وقال في وصف ما جعله الله تعالى لنا من الحصن : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ^(١) » أي المتخصصين بعبادتي فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه في دجاء وتمكنت من استغوائه عداه كما قال تعالى : « وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ^(٢) » فلم يتزود من دنياه زاده كما أمره بقوله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ^(٣) » وحانت رحلته فيسترجع منه ما أعير من جده وذات يده فيتحسرحين لا يغنيه تحسره ويقول : « يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبَ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٤) » ويقول : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ^(٥) » فحينئذ لا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، وأيضاً فإن الانسان من وجه : في دنياه حارث ، وعمله حرثه ، ودنياه محرثته ، ووقت الموت وقت حصاده والآخره بيدر ولا يحصد إلا ما زرعه ولا يكيل إلا ما حصده ولهذا قال تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ^(٦) » وكما أن في البيدر مكايل وموازين وأمناء وحفاظاً ومشاهدين وكتاباً كذلك في الآخرة مثل ذلك كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ

٤ - الانعام ٢٧

٥ - الأعراف ٥٣

٦ - الشورى ٢٠

١ - الحجر ٤١

٢ - الزخرف ٣٦

٣ - بقرة ١٩٦

فَلَا تُظَلِّمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ»^(١) وقال: «وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَفِظِينَ كِرَامًا كُنْتِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ»^(٢) وقال: «وَجِئْنَا بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ»^(٣) وكما أن في البيدر تذكيرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام فكذلك في الآخرة تميز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»^(٤) وقال في أعمال الكفار: «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء»^(٥) وقال: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»^(٦) فمن عمل للآخرة بورك في كيله ووزنه وجعل له زاد الآخرة كما قال تعالى: «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأُولَئِكَ كان سعيهم مشكوراً» ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله كما قال تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٧) فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلي والحنظل في الربيع ترى خضر الأوراق، حتى إذا حان حين الحصاد لم ينل طائلاً، وإذا حضر مجتناه البيدر لم

٤ - الأنفال ٣٧

٥ - الفرقان ٢٣

٦ - هود ١٥

١ - الأنبياء ٤٧

٢ - الانفطار ٩

٣ - الزمر ٦٨

يفد نائلاً ، ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل والمستقبح المنظر في الشتاء فإذا حان وقت القطاف والاجتماع أفادتكم زاداً وأدخرت منه عدة وعتاداً وإلى نحوهما أشار الله تعالى بقوله : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ »^(١) ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ »^(٢) والله تعالى يؤيد بفضلته من يشاء وهو الباري .

الباب الثاني

﴿ ماهية الانسان وكيفية تركيبه ﴾

الانسان مركب من جسم مدركه البصر ، ونفس مدركها البصيرة واليهما أشار بقوله تعالى : « إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »^(٣) فالإشارة بالروح الى النفس وإضافته تعالى الروح اليه تشريفاً لها وعننى به النفس المذكورة في

قوله تعالى : «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ»^(١) ووجود النفس في الانسان لا يحتاج أن يدل عليه لوضوح أمره بل يتنبه الجاحد لها والغافل عنها بأنها هي التي بحصولها في الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتميز ويكون الجسم متصرفاً بها وحاملاً ومستحسناً ومستطاباً محباً ، وبفقدائها عدم هذه الأشياء فيصير جيفة محتاجاً الى عدة تحمله وهي محل الأعراض ، والروحانية كالجسم في كونه محلاً للأعراض الجسمانية ، وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى في قوله : «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»^(٢) وقال تعالى : «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»^(٣) وكان يقال في الأمم السالفة من أنكر الباري رجم لكونه جاحداً ، ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلاً ، وقيل كان في كتب الله تعالى المنزلة اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم «أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه» بل قال الله تعالى : «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»^(٤) تنبيهاً انهم لما نسوه تعالى دل نسيانهم إياه على نسيانهم لها ، وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الانسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل الانسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ، وذلك ليدل به على معرفة العالم فيتوصل بهما الى معرفة صانعهما ، فغاية معرفة الانسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم

٣ - وصلت ٥٢

٤ - الحشر ١٨

١ - الأنعام ٩٣

٢ - الذاريات ٢١

فيعلم انه موجود وان له موجدأ ليس مثله ، تعالى الله عن ذلك علواً
كبيراً .

الباب الثالث

﴿ في تعديد قوى الانسان وصفاته ﴾

قد جعل الله تعالى للانسان خمس قوى يدل على وجودها فيه ما
يظهر من تأثيراتها .

(قوة الغذاء) وبها النشور والتربية والولادة .

(وقوة الحس) وبها الاحساس واللذة والألم .

(وقوة التخيل) وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيوبتها عن
الحس .

(وقوة النزوع) وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف
والرضى والغضب والايثار والكراهة .

(وقوة التفكير) وبها يكون النطق والعقل والحكمة والرؤية
والتدبير والمهنة والرأي والمشورة .

فأما القوى المدركة منها فخمس :

الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل والحفظ .

فأما الحواس

فلكل واحد منها إدراك مخصوص فللحس عشرة إدراكات :

الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة
والثقل والخفة .

وللذوق

سبع : الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة والحراقة والعفوصة
واللثغة

وللشم اثنان : الطيب والتتن .

وللسمع اثنان : الصوت الخفيف والصوت الثقيل .

وللبصر أحد عشر : إدراكات النور والظلمة واللون والجسم
وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده ،
فأدون هذه الادراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم ، فالنفس لا تكاد
تستعين بها إلا فيما يعود نفعها الى صلاح الجسم ، وأرفع الادراكات
العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس ، إلا أن العقل والفكر يدركان
الأشياء الروحانية .

فأما السمع والبصر فمتوسطان لأنها يخدمان النفس والجسم
وخدمتهما للنفس أكثر ويدركان الأشياء الجسمانية ، والتخيل متوسط
بين العقل والفكر وبين السمع والبصر فيأخذ تارة من السمع والبصر
ويسلمها الى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة ، ويأخذ تارة من
العقل والفكر ويسلمها الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان
مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ،
ومسكن الخيال مقدمه ، ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ، ولما كان قوام
الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه منشأ الحرارة الغريزية

صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال : لفلان دماغ إذا قويت منه هذه القوى المدركة ، وفلان خالي الدماغ إذا ضعفت فيه هذه القوى ويعبر عنها تارة بالقلب والثاني أكثر وعلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »^(١)

ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادماً للعقل والفكر تارة ، وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ، ولذلك عظم الله تعالى المنة على الانسان باعطائه إياه هذه الثلاث وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ »^(٢) وقال في ذم من لا ينتفع بها : « لَهْم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهْمُ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا »^(٣) وقال : « صُمُّكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »^(٤) أي لا يفهمون المعنى لا انهم لا يستمعون الأصوات ولا يبصرون الذوات وجعلهم بكما من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطاً بالفكر ومدركاً بالعقل .

وأعلم أن السمع والبصر كالأخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في إدراكه فقد ينوب السمع عن البصر في إبلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك في ساعة ما لا يدركه البصر في برهة ، وينوب البصر عن السمع في إبلاغ القلب بمطالعة الكتب ما لا يدركه السمع في مدة

٣ - الاعراف ١٧٩

٤ - البقرة ١٧١

١ - ق ٣٧

٢ - النحل ٧٨

سما إذا كان المخاطب ناقص العبارة ، أو غير مثبت في الكلام أو دق المعنى وغمض .

الباب الرابع

﴿ في تعاون القوى الروحانية وكيفيات إدراكها ﴾

القوى الروحانية متعاونات في إدراكهن رسوم المعلومات فان الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى صورته الروحانية فيه فينتقش بها نقش الشمع بصورة الختم ، ثم يأخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم يؤديه الى القوة الحافظة فان أراد إبرازه قولاً سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان وإن أراد إبرازه فعلاً سلط عليه القوة الباطنة فيجده بالجوارح ، وقد ضرب بعض الحكماء مثلاً لهذه القوى يقرب منه تصور تأثيراتها فقال .

إن القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك تسكن وسط المملكة .

والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده .

والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه .

والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه .

والعامللة جارية مجرى كاتبه .

والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الأخبار الصادقي

اللهجات فيما يرفعونه من الأخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع

الذي وكل به فيرفعه الى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط ما يراه حشواً ويرفع الباقي صافياً الى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه الى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم باخراجه. قالوا : وكما ان للملك أفعالاً يستعين فيها بغيره وأفعالاً ينفرد فيها هو بنفسه والأفعال التي يتولاها بنفسه أشرف من التي يفوضها الى غيره ، كذلك للقوة المفكرة أفعالا تفوضها الى غيرها وأفعال تختص هي بها وهي الرؤية والفكر والاعتبار والقياس والفراصة فهذه الأشياء تدبير الأمور فبالفكر استخراج الغوامض وبالاعتبار يحصل التجربة وبالقياس استنباط المجهول بتوسط المعلوم ، والفراصة الاطلاع على الأسرار ونحو هذا المثل ما رؤي أن كعب الاحبار قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: الانسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويدها جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك ، فاذا طاب الملك طاب جنوده فقال : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الباب الخامس

﴿ في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان ﴾

للانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه . أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي فان البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا رؤية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية ، وإنما يتعلم

بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها في ذلك الفيل والقرد .

وأما فضله في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب
القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم وقد نبه الله
تعالى على ذلك بقوله : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»^(١)
وقوله : « وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ »^(٢) ولم يعن الصورة التخطيطية
فقط ، بل عناها والصورة المعقولة، ولتشریفه تعالى إياه بذلك قال :
« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »^(٣) ومن زعم ان الانسان خلق
خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث انه لم يكف الملبس كما كفيته ولم
يعط سلاحاً في ذاته كما أعطى كثير منها فنظره ناقص إذ قد أعطى
الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح
حسب ما يريد فيتناوله متى أراد ويضعه متى أحب ، ثم لو أعطي
الانسان بعض الأسلحة التي أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره
كالوحشيات ، وأيضاً فلو أعطي ذلك لكان من الحق أن لا يعطى
التمييز لأنه حينئذ كان يستغني عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزّه
عن ذلك إن قيل كيف قال تعالى : « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا »^(٤)
فاستضعفه قيل:ضعفه بالاضافة الى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات
البدنية التي كفيها .

واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فانما أوجد لأجل

٣ - الاسراء ٧٠

٤ - النساء ٢٨

١ - التين ٤

٢ - غافر ٦٤

الانسان .

إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير ، أو الأغذية له كالبقرة والغنم والحبوب والثمار .

وإما لانتفاع ما ينتفع به الانسان كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان نفسه فليس يخرج من كونه نافعاً ، وقد بين الحكماء نفع جلها وما لا سبيل لبعضنا أو لكلنا الى معرفة نفعه ، فليس جهلنا به قادحاً في حكمة الله تعالى جده في إيجادها ، ورب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات كالشجر الذي فيه العسل بالقوة وما سخر لمعرفته واستخراجه إلا النحل ، وما أليق من أنكر حكمته تعالى بجهله بأن ينشد

عليّ نحت القوافي من مقاطعها * وما عليّ بأن لا يفهم البقر والله أعلم .

الباب السادس

﴿ في بيان ما يفضل به الانسان ﴾

الانسان وإن كان هو بكونه انساناً أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار انساناً وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ، ولهذا قيل الناس أبناء ما يحسنون ، أي ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة يقال أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسناً .

فأما الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات .

ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان .

ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار .

وأما فضيلته فبالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة فالانسان يضارع الملك بقوة النطق والعلم والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق بأن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكاً وربانيا كما قال تعالى : « إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »^(١) .

ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فخليق بأن يلحق بأفق البهائم فيصير إما غمراً كثوراً ، وإما شرهاً كخنزير ، وإما ضرعاً ككلب ، أو حقوداً كجمل ، أو متكبراً كنمر ، أو ذاروغان كثعلب ، أو جامعاً كديك ، أو يجمع ذلك كله كشیطان مريد وعلى ذلك قوله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »^(٢) ولكون كثير ممن صورته صورة الانسان وليس هو في الحقيقة إلا كبعض الحيوان قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله عز وجل : « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »^(٣) وقال : « إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »^(٤) فين ان الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التي جعلها الله

٣ - الفرقان ٤٤

٤ - الأنفال ٥٥

١ - يوسف ٣١

٢ - المائدة ٦٠

تعالى لهم هم شر الدواب وقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً »^(١) أي مثل واعظ الكافرين كناعق الأغنام تنبئها
أنهم فيها يقال لهم كالبهائم ولهذا النظر عبر الشاعر عن بعض من ذمه
فقال :

اللؤم أكرم من وبر ووالده * واللؤم أكرم من وبر وما ولدا
ولم يقل ومن ولدا تنبئاً أنه لا يستحق أن يقال له من لكونه
بهيمة وعلى هذا قال المتنبي :

حولي بكل مكان منهم خلق * تخطي إذا جئت في استفهامه بمن
ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الأنواع وبعضها من التفاوت ما
بين انسان وانسان ، فانك قد ترى واحداً عشرة عشرة كهيئة بل واحداً
كهيئة عشرة أخرى هدره دون واحد ، كما قيل لامرأة في منامها عشرة
هدره أحب اليك ، أم واحد عشرة ؟ فقالت بل واحد عشرة قال
الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً * لدى المجد حتى عد ألف بواحد
بل نرى واحداً عشرة آلاف : « ونرى عشرة آلاف دون واحد »
كما قال عليه السلام وهو أصدق قيلاً : « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد
فيها راحلة » والابل في تعارفهم اسم لمائة بعير فمائة ابل هي عشرة آلاف
بعير ، بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالم كواحد لجاز كما قال عليه
السلام : « وزنت بأمتي فرجحتهم » .

وعلى هذا قال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

الباب السابع

﴿ في كون الانسان بين البهيمة والملك ﴾

الانسان لما ركب تركيباً بين بهيمة وملك ، فشبهه للبهائم بما فيه من الشهوات البدنية من المأكل والمشرب والمنكح ، وشبهه للملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجلود ، صار واسطة بين جوهريين رفيع ووضيع ، ولهذا قال تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »^(١) فالنجدان من وجه العقل والهوى .

ومن وجه الآخرة والدنيا .

ومن وجه الايمان والكفر .

ومن وجه الهدى والضلالة .

ومن وجه موالة الله عز وجل وموالة الشيطان المذكورتان في قول الله عز وجل : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »^(٢) ومن وجه النور والظلمة المذكورتان في هذه الآية أي الفضيلة والنقيصة ، ومن وجه الحياة والموت المذكوران في قوله تعالى :

١ - البلد ١٠

٢ - النور - ٢٥٧

«أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ»^(١) فمن وفقه الله تعالى عز وجل للهدى وأعطاه قوة ليبلغ المدى فراعى نفسه وزكاها ، فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال الله سبحانه وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »^(٢)

الباب الثامن

﴿ ما لأجله أوجد الانسان ﴾

الانسان من حيث هو انسان كل واحد كالأخر كما قيل :

فالأرض من تربة والناس من رجل * وإنما تشرف بأن يوجد كاملا في المعنى الذي وجد لأجله وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم أو هدى بعض الخلق الى إيجاده وصنعه فانه موجد لفعل يختص به .

كالبعير إنما خص به ليلبغنا وأثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس .

والفرس ليكون لنا جناحاً نظير به .

والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما .

والباب لنحرز به البيت فالفعل المختص بالانسان ثلاثة : عمارة

١ - الانعام ١٢٢

٢ - الشمس ٨

الأرض المذكورة في قوله تعالى : «وَأَسْتَعْمَرَ كُرْفِيهَا»^(١) وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره وعبادته المذكورة في قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »^(٢) وذلك هو الامثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه وخلافته المذكورة في قوله تعالى : « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون »^(٣) وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة ومكارم الشريعة ، هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم والاحسان والفضل والقصد منها أن يبلغ بذلك الى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى منه ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو والسيف للعمل المختص به في القتال ، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي لأجله أوجد كان ناقصاً ، فاما أن يطرح طرحاً أو يرد الى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة ، أو أعد أكلة والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً ، فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين تكلوا هذه الفضيلة : « إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »^(٤) :

الباب التاسع

﴿ السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى ﴾

قد تقدم ان الخلافة تستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم

٣ - النور ٥٥

٤ - الفرقان ٤٤

١ - هود ٦١

٢ - الذاريات ٥٥

الشريعة والسياسة ضربان : أحدهما سياسة الانسان نفسه وبدنه وما يختص به .

والثاني سياسة غيره من دونه وأهل بلده ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ^(١) وقال تعالى : « يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » ^(٢) وقال : « بَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » ^(٣) أي هذبوها قبل الترشح لتهديب غيركم ، وبهذا النظر قليل : تفقهوا قبل أن تسودوا وتنبيهاً انكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله ولاستحالة أن يهتدي المسوس والسائس ضال قال الله تعالى : « يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » ^(٤) فحكم انه محال أن يكون مع اتباعه الشيطان يأمر إلا بالفحشاء .

٣ - المائة ١٠٥

٤ - النور ٢١

١ - البقرة ٤٤

٢ - الصف ٢

الباب العاشر

﴿ في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض ﴾

أما مكارم الشريعة فمبدأها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ، ونهايتها التخصّص بالحكمة والجود والحلم والاحسان ، فبالتعلم يتوصل الى الحكمة ، وباستعمال العفة يتوصل الى الجود ، وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم ، وباستعمال العدالة يصبح الأفعال ، ومن حصل له ذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ »^(١) وصلاح لخلافة الله تعالى عز وجل وصار من الربانيين والشهداء والصديقين . واعلم أن العبادة أعم من المكرمة ، فان كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة ، والفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة ، وحدوداً مرسومة ، وتاركها يصير ظالماً متعدياً ، والمكارم بخلافها ، وأن يستكمل الانسان مكارم الشريعة ما لم يقوم بوظائف العبادات . فتحري العبادات من باب العدالة . وتحري المكارم من باب الافضال والنفل ، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ، ولا يفضل من ترك العدل ، بل لا يصح تقاضي الفضل إلا بعد العدل ، فان العدل فعل ما يجب ، والتفضل الزيادة على ما يجب ، وكيف يصح تصور الزيادة على

شيء هو غير حاصل في ذاته ، ولهذا قيل : لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول ، فمن شغله الفرض عن النفل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور ، وقد أشار تعالى بالعدل الى الأحكام ، وبالإحسان الى المكارم ، بقوله : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ »^(١) وقوله تعالى : « يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »^(٢) ففعل الخير هو الزيادة على العبادة ، وأما عمارة الأرض والقيام بما فيه تزجية حياة الناس وصلاح معاشهم فالإنسان الواحد من حيث لم يكف أمر معاشه بانفراده من مأكله وملبسه ومسكنه وليس له سبيل الى ثباته في الدنيا إلا بما يسد جوعته ويستر عورته ويقيه من الحر والبرد ، لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ، ولذلك قال تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى »^(٣) ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهاداً في سبيل الله تعالى ، كما قال عليه السلام : من طلب الرزق على ما يسن فهو في جهاد ، ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباءً منثوراً ، كما قال تعالى : « هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »^(٤) وكان فيما يتولاه خادماً للناس مسخراً بلا إرادة منه لخدمتهم حتى كأنه من جملة البهائم التي

١ - النحل ٩٠

٢ - الحج ٧٧

٣ - طه ١١٨

٤ - الكهف ١٠٣

سخرها الله تعالى لعباده فامتن عليهم بها في قوله : « وَأَخْلِيلَ وَالْغَالِ
وَالْحَمِيرَ لِيَتَرَكَبُوهَا وَزِينَةً » ^(١) .

الباب الحادي عشر

﴿ كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته ﴾

لا يصلح لخلافة الله ، ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من
كان طاهر النفس ، قد أزيل رجسها ونجسها ، فللنفس نجاسة كما ان
للبدن نجاسة . لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا
تدرك إلا بالبصيرة ، وإياها قصد تعالى بقوله : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ » ^(٢) ولقوله تعالى : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » ^(٣) وبقوله كَذَلِكَ
« يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » ^(٤) وإنما لم يصلح لخلافة
الله إلا من كان طاهر النفس ، لأن الخلافة هي الاقتداء به تعالى على
الطاقة البشرية في تحري الأفعال الالهية ، ومن لم يكن طاهر النفس لم
يكن طاهر القول والفعل ، فكل اناء بالذي فيه يرشح . ولن يخلو
مسك سوء عن عرف سوء . ولهذا قيل : من طابت نفسه طاب عمله :
ومن خبثت نفسه خبث عمله . وقال عليه السلام : « المؤمن أطيب من
عمله والكافر أخبث من عمله » بل قد أشار تعالى الى ذلك بقوله :

٣ - المدثر هـ

٤ - الأنعام ١٢٥

١ - النحل ٨

٢ - التوبة ٢٨

«الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ»^(١) وقوله : «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا»^(٢) ولأجل انه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى»^(٣) وقال بعضهم في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » . إنه أشار بالبيت الى القلب ، وأشار بالكلب الى الحرص والحسد ونحوهما . ونبه ان نور الله تعالى لا يدخله إذا كان فيه ذلك ، واستدل على صحته بأن الحرص يقال له الكلب ، وانه يقال فلان أحرص من كلب ، ويقوي ذلك ما روي أن التقوى لا تسكن إلا قلباً نظيفاً والى الطهارتين أشار بقوله تعالى : «وَيْسَابِكُ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ»^(٤) وكنى بالثياب عن البدن كقول الشاعر :

ثياب بني عوف طهاري نقيه * وأوجههم عند المشاهد غران
وقال تعالى : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»^(٥) وقال : «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»^(٦) وقال : «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٧) وقد قال بعض الحكماء العلماء : إنما سميت الحواريون

٥ - الأحزاب ٣٢

٦ - المائدة ٦

٧ - البقرة ٢٢٢

١ - النور ٢٦

٢ - الاعراف ٥٨

٣ - الحجران ٣

٤ - المدثر ٥

بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم من قولهم حورته أي بيضته وما روي انهم كانوا قصارين فاشارة الى هذا المعنى ، وإن كان من لم يتخصص لمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين العامة .

الباب الثاني عشر

﴿ فيما يفرع اليه من طهارة النفس ﴾

الذي به يطهر النفس حتى يترشح لخلافة الله تعالى ويستحق به ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية ، كما ان الذي يطهر به البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية ، ولذلك سماها الحياة ، وسمى ما أنزل الله تعالى في كتابه الماء فقال : « أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »^(١) فسمى العلم والعبادة حياة من حيث ان النفس متى فقدتها هلكت هلاك الأبد كما قال في وصف الماء : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ »^(٢) وقال : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »^(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما : عنى بالماء القرآن ، إذ كان به طهارة النفس ، قال والأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته .

قال بعض العلماء في قوله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً »^(٤)

١ - الأنفال ٢٤

٢ - الأنبياء ٣٠

٣ - الرعد ١٧

٤ - النحل ٦٤

وقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » ^(١) انه عنى به القرآن وكقوله : « وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » ^(٢) وأجدر بصحة قوله تعالى فان الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء أعني كلام رب العزة ، فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده في الطهارة ، لأن الذي ينبع من الأرض يعمل عمله ، والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث .

قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم .

وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفة والجود .

وقوة الحمية باستيلائها حتى ينقاد للعقل فيحصل الشجاعة والحلم فيتولد من اجتماع ذلك العدل : فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث ، أما من فساد الفكرة فيتولد الجربزة والبله ، وأما فساد الشهوة فيتولد الشره أو خمود الشهوة ، وأما من فساد الحمية فيتولد التهور أو الجبن .

ومن حصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل : إما الظلم وإما الانظلام فجميع رؤوس الفضائل الخلقية أربعة ، وجميع رؤوس الرذائل الخلقية ثمانية .

١ - الفرقان ٤٨

٢ - الاسراء ٨٢

الباب الثالث عشر

﴿ بيان ملازمة الهوى للعقل ﴾

أعلم أن مثل الانسان في بدنه كمثل والٍ في بلده .

وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعمله .

والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح ، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة . والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث مكر يتمثل للوالي بصورة الناصح وفي نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير في تدبيره ، ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته ، وكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وأدب صاحب شرطته وجعله مؤتمراً لوزيره وسلطه على هذا العبد وتباعه حتى يكون هذا العبد مسوساً لا سائساً ، ومدبراً لا مدبراً ، استقام أمر بلده فكذا أيضاً النفس متى استعانت بالعقل في التدبير ، وأدبت الحمية وسلطته على الشهوة وقواها ، استتب أمرها وإلا فسدت ، ولهذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »^(١) وقال تعالى في ذم من اتبعه : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ »^(٢) وقال : « أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمِثْلَهُ كَمِثْلُ الْكَلْبِ »^(٣) وقال

١ - ص ٢٦

٣ - الأعراف ١٧٦

٢ - الجاثية ٢٣

تعالى في مدح من أطاعه : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ »^(١) وقال عليه الصلاة والسلام : أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . اشارة الى الهوى ، فالعقل وإن كان أشرف القوى وبه صار الانسان خليفة الله عز وجل في العالم فليس دأبه إلا الاشارة الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما يرى فيه برئه ، فان قبل منه المريض وإلا سكت عنه ، ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة والممانعة ، ولهذا لا يتبين فضيلة العدل لمن لا حمية له ، ولهذا النظر قليل : المهين من لا سفيه له وقال :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقي مِرْبُضَ المستأسد الحامي
وأيضاً مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر يراعي أحواله وعقله خليفة مولاه ضم اليه ليسدده ويرشده ، ويشهد له وعليه بما يفعله إذا عاد الى حضرة مولاه ، وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليزكبه ، وشهوته سائس خبيث ضم اليه ليتعهد فرسه ولا قدرة لهذا السائس عند المولى ، والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج اليه عاجلاً وأجلاً كما وصفه الله تعالى بقوله : « وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً »^(٢) وقوله : « مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »^(٣) والنبى عليه الصلاة والسلام بمنزلة رسول أتاه اليه بالكتاب ليين له ما يشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب ، وقبيح أن ينسى هذا الوالى مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ويصرف همه

كله الى تفقد فرسه وسائسه ، ويقيم سايس فرسه مقام خليفة ربه .
ومن وجه آخر الانسان من حيث ما جعله الله تعالى عالماً صغيراً
وجعل بدنه كمدينة .
والعقل كملك مدبر فيها .
وقواه من الفكر والخيال والحواس كجنده ، وأعوانه والأعضاء
كرعيته .
والشهوة كعدو ينازعه في مملكته وسعى في إهلاك رعيته .
صار بدنه كرباط وثغر .
ونفسه كمقيم فيه مرابط .

فان جاهد أعداءه فهزمهم أو أسرهم أو قهرهم على ما يجب
وكما يجب ، حمد أثره اذا عاد الى حضرته ، كما ضمنه تعالى حيث
يقول: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً
وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ الْآخِرَةَ
عَظِيمًا»^(١) فدِفَاعُ الهوى أعظم جهاد كما قال عليه الصلاة والسلام :
وقد سئل أي الجهاد أفضل ؟ قال : « جهادك هواك » وإن ضيع ثغره
وأهمل رعيته ذم أثره إذا عاد اليه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :
« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، وقال : « إن الله تعالى يقول
للكافرين يوم القيامة : يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ،
ولم تؤوِ الضالة ولم تجبر الكسير ، اليوم انتقم منك » .

وأيضاً مثل العقل مثل فارس مُتصيّد وشهوته كفرسه .
وغضبه ككلبه .

فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه معلماً فهو قمين
بادراك حاجته من الصيد ، ومتى كان أخرق وفرسه جموحاً أو حروناً
وكلبه عقوراً ، فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ، ولا كلبه يستلين معه
مطيعاً ، فهو قمين أن يعطب فضلاً عن أن يدرك ما طلب .

وللإنسان مع هواه ثلاثة أحوال الأولى : أن يغلبه الهوى
فيملكه كما قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه »^(١) والثانية : أن
يغالبه فيقهره مرة ويقهره مرة أخرى ، وإياه قصده لمدح المجاهدين
وعنه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « جاهدوا أهواءكم كما
تجاهدون أعداءكم » والثالث : أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء
وبعض صفوة الأولياء ، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ »^(٢) وقصد
النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما من أحد إلا وله شيطان ، وإن
الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته ، فإن الشيطان يتسلط على
الإنسان بحسب وجود الهوى فيه ، والله أعلم بالحقيقة » .

الباب الرابع عشر

﴿ الفرق بين ما يسومه العقل وبين ما يسومه الهوى ﴾

من شأن العقل أن يرى ويختار أبداً الأفضل والأصلح في

١ - الجاثية ٢٣

٢ - النازعات ٤٠

العواقب ؛ وإن كان على النفس في المبدء مؤونة ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك فانه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت ، وإن كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي الرمد الذي يؤثر أكل الحلوات واللعب في الشمس على تناول الأهلilig والحجامة .

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » وأيضاً فان العقل يرى صاحبه ما له وما عليه ، والهوى يريه ما له دون ما عليه ، ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « حبك الشيء يعمي ويصم » ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدأً في الأشياء التي هي له لا عليه ويظن انه هوى لا عقل ، ويلومه وينبغي أن يستفتي النظر فيه قبل إمضاء العزيمة حتى قيل : إذا أعرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب ، فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير في الكراهة ، قال الله تعالى : « مَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »^(١) وقال : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »^(٢) وأيضاً فان ما يرى العقل يتقوى إذا فزع فيه الى الله عز وجل بالاستخارة ، وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر إذا استعين فيه بالعبادة ، وما يراه الهوى فبالضد من ذلك ، وأيضاً فان العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل ، وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعدرة موهة كالعاشق إذا سئل عن عشقه والمناول لطعام ردي إذا سئل عن فعله ، قال بعض العلماء :

١ - البقرة ٢١٦

٢ - النساء ١٩

إذا مال العقل نحو مؤلم جميل ، والهوى نحو ملذ قبيح ، فيتنازعان بحسب غرضيهما ويتحاکمان الى القوة المدبرة بادر نور الله عز وجل الى نصر العقل ، ووساوس الشيطان الى نصر الهوى ، كما قال الله تعالى : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » (١) فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور العقل فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل على علم ، ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال تعالى : «وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَلِيبُ إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ وَاخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ » (٢) ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله : « وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » (٣) ، أي لو أعطى كل انسان ما يهواه مع ان كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة ولا طلب لكان في ذلك فساد العالم . وقيل في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ » (٤) الآية . إنه ضرب الشجرة الطيبة مثلاً للعقل ، والخبثية مثلاً للهوى ، ففرع الطيبة النور والاسلام ، وفرع الخبيثة الكفر والضلال ، إن قيل ما الفرق بين

٣ - المؤمنون ٧١

١ - البقرة ٢٥٧

٤ - ابراهيم ٢٤

٢ - فصلت ٣٦

الشهوة والهوى : قيل الشهوة ضربان : محمودة ومذمومة ، فالمحمودة من فعل الله سبحانه ، وهي قوة جعلت في الانسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن ان فيه صلاح البدن ، والمذمومة من فعل البشر وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية، والهوى هي هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعت الفكرة ، وذلك ان الفكرة بين العقل والشهوة ، فالعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن ، وإذا انضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضیعة وولدت المقابح ، والنفس قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارة ومشورة الهوى تارة ولهذا قد تسمى الهوى إرادة.

الباب الخامس عشر

﴿ في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى ﴾

أول ما يعرض من ذلك السانح ، ثم الخاطر والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وإن للملك لمة ، فامة الملك فوعده بالخير وتصديق الحق بالحق ، وأامة الشيطان فأبعده بالشر وتكذيب الحق - ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »^(١) الآية ثم من بعدهما الارادة ، ثم العزم ، ثم العمل . فالسانح علة الخاطر ، والخطاير علة الارادة ، والارادة وهي الهمة علة العزم . فالسانح والخطاير يعبر عنهما بالهاجس ،

والهاجس متجاوز عنه ما لم يصبر إرادة وعزماً . فحق الانسان إذا خطر له خاطر أن يسيره عاجلاً ، فان وجده خير أرباه حتى يجعله فعلاً ، وإن وجده شراً بادر الى قمعه وقلعه قبل أن يصير إرادة ، ويطهر منه قلبه تطهير أرضه من خبيثات النبات ، وهذا المعنى أرادته الحسن رحمه الله بقوله : رحم الله عبداً وقف عندهم ، فان كان الله عز وجل مضى ، والا كف . قال بعض الحكماء : إن تداركت الخطرة اضمحلت وإلا صارت شهوة ، وإن تداركت الشهوة وإلا صارت طلباً وإن تداركت الطلب وإلا صار عملاً . وقال بعض الحكماء : ان ولي الله إذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ورأى ببصيرته ظلمة ووجد روعة ، وإذا أتته لمة الرحمن انشرح صدره وأولياء الشيطان بخلافه لقوله تعالى : « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »^(١) والله ولي الرشاد .

الباب السادس عشر

﴿ حصول الخلق المحمود بطهارة النفس ﴾

قد تقدم ان طهارة النفس باصلاح القوى الثلاث ، فاصلاح المفكرة بالتعلم حتى يتميز بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والقبيح في الفعال ، وإصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس بالجود والمواساة المحمودة بقدر

الطاقة ، وإصلاح الحمية باسلاسلها حتى يحصل التحلم ، وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب ، وتحصل الشجاعة وهي كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين ، وبإصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والاحسان ، وهذه جماع المكارم من طهارة النفس وحسن الخلق الممدوح بقوله عليه الصلاة والسلام : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وألطفهم بأهله » ويعني باللطافة بالأهل : تهذيبهم وتأديبهم المشار اليه بقوله تعالى : « يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »^(١) والممدوح أيضاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » وقيل : جماع المكارم في قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »^(٢) وذلك انه بالايان يحصل العلم والحكمة ، وذلك بإصلاح الفكرة وبالمجاهدة بالأموال والأنفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لإصلاح الشهوة ، والشجاعة والحلم اللذان هما تابعان لإصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »^(٣) وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير ذلك : « هو أن تعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك » فالففو عن ظلمك نهاية الحلم والشجاعة . وإعطاء المال من حرمك نهاية الجود ، ووصل من قطعك نهاية الاحسان والله أعلم .

الباب السابع عشر

﴿ الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة ﴾

الطبع أصله من طبع السيف ، وهو اتخاذ الصورة المخصصة في الحديد ، وكذلك الطبيعة والضريبة اعتباراً بضرب الدراهم ، والنحية اعتباراً بالنحت ، والنجر : اعتباراً بنجر الخشب ، والغريزة : اعتباراً بما غرز عليه ، كل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل الى تغييرها ، والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتباراً بالشامة التي في أصل الخلقة ، والسجية : اسم لما سجد على الانسان من قولهم عين ساجية ، أي فاترة خلقة ، وأكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره ، وأما الخلق ففي الأصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب ، والصرم والصرم ، لكن الخلق يقال في القوى المدركة بالبصيرة ، والخلق في الهيئات والأشكال والصورة المدركة بالبصر ، وجعل الخلق تارة اسماً للقوة الغريزية ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فرغ الله من الخلق » والخلق والرزق والأجل .

وتارة يجعل اسماً للحالة المكتسبة التي يصير بها الانسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شيء ، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ، ولهذا خص كل حيوان بخلق في أصل خلخته ، كالشجاعة للأسد ، والجبن للأرنب ، والمكر للشعلب .

ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملاسة ، فكأنه اسم لما مرن

عليه الانسان من قواه بالعادة ، وقد روي أفضل الأفعال الخلق الحسن وروي ما أعطى الله أفضل من خلق حسن ، فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر ، وجعل مرة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه ، وعلى ذلك أسماء أنواعها : نحو العفة والعدالة والشجاعة ، فان ذلك يقال للهيئة ، ولل فعل جميعاً .

وربما سمي الهيئة باسم ، والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء والجود ، فإن السخاء اسم للهيئة التي عليها الانسان ، والجود اسم للفعل الصادر عنها ، وإن كان قد يسمى كل واحد باسم الآخر .

وأما العادة فاسم لتكرار الفعل ، أو الانفعال من عاد يعود ، وبها يكمل الخلق ، وليس للعادة فعل إلا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الانسان الى الفعل ، وأما حدوث السجية الى خلاف ما خلقت له فمحال ، فالسجية فعل الخالق عز وجل ، والعادة فعل المخلوق ، ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق ، لكن ربما يقوي العادة قوة محكمة حتى تعد سجية ، وبهذا النظر قيل : العادة طبيعة ثانية .

الباب الثامن عشر

﴿ إمكان تغير الخلق ﴾

اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم : هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جبل عليه ان خيراً وإن شراً كما قال :
ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه * لثيم ولا يستطيعه متكرم
وما هذه الأخلاق إلا غرائز * فمنهن محمود ومنها مذموم

ويعلق أيضاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « من آتاه الله وجهاً حسناً وخلقاً حسناً فليشكر الله » وما روي فرغ الله من الخلق ، والخلق الخبر ، فمحال أن يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق عز وعلا ، فقال بعضهم : يمكن تغيير ذلك ، واستدل بما روي : « حسنوا أخلاقكم » فلو لم يكن لما أمر به قال : ولأن الله تعالى خلق الأشياء على ضربين : أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملاً كالسماء والأرض والهيئة والشكل . والثاني خلقه خلقة وما جعل فيه قوة ترشح الانسان لإكماله وتغيير حاله ، وإن لم ترشحه لتغيير ذاته كالنوى الذي جعل فيه قوة النخل ، وسهل للانسان سبيلاً الى أن يجعله بعون الله تعالى نخلاً ، وأن يفسده إفساداً قال : والخلق من الانسان يجري هذا المجرى في انه لا سبيل للانسان الى تغيير القوة الى أن تصير سجية ، وجعل له سبيلاً الى أسلاسها ، ولهذا قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »^(١) ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي ، ولما جوز العقل أن يقال للعبد لما فعلت ولم تركت ، وكيف يكون هذا في الانسان ممتنعاً وقد وجدنا في بعض البهائم ممكناً ، فالوحشي قد ينتقل بالعادة الى الناس ، والجامح الى السلاسة ، لكن الناس في غرائزهم مختلفون ، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول ، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول ، وبعضهم في الوسط ، وكل لا ينفك من أثر قبول وان قل ، فأرى أن من منع من تغيير الخلق ، فانه اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح ، فان النوى محال أن ينبت منه الانسان تفاحاً .

ومن أجاز تغييره ، فإنه اعتبر إمكان ما في القوة الى الوجود وإفسادهما له نحو النوى ، فانه يمكن أن يتعهد فيجعل نخلأ ، وأن يترك مهملاً حتى يعفن ويفسد ، وهذا صحيح أيضاً فإذاً اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

الباب التاسع عشر

﴿ صعوبة إصلاح القوى الشهوية وما في هذه من المضرّة والمنفعة ﴾

أصعب هذا القوى الثلاث مداواة قَمْعُ الشهوة ، لأنها أقدم القوى وجوداً في الانسان ، وأشدّها به تشبهاً وأكثرها منه تمكناً ، فانها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه ، بل في النبات الذي هو جنس جنسه ، ثم يوجد فيه قوة الحمية ، ثم آخرأ توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ، ولا يصير الانسان خارجاً من جملة البهائم وأسر الهوى إلا بإماتة الشهوة البهيمية لو بقهرها وقمعها ، إن لم يمكنه إماتته إياها ، فهي التي تضره وتغره وتصرفه عن طريق الآخرة .

ومتى قمعه ، أو أماته صار الانسان حراً نقياً بل يصير إلهياً ربانياً ، فتقل حاجاته ويصير غنياً عما في يد غيره ، وسخياً بما في يده ، ومحسناً في معاملاته ، فان قيل : فاذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة في الإضرار فأَيَّ حكمة اقتضت أن يبلى بها الانسان ؟ قيل : الشهوة إنما تكون مذمومة إذا كانت مفرطة وأهملها صاحبها حتى ملكت القوى ،

فأما إذا أدبَتْ فهي المبلغة الى السعادة وجوار رب العزة ، حتى لو
تصورت مرتفعه لما أمكن الوصول الى الآخرة وذاك ان الوصول الى
الآخرة بالعبادة ولا سبيل الى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ، ولا سبيل الى
الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ، ولا سبيل الى حفظ البدن إلا باعادة ما
يتحلل منه ، ولا سبيل الى إعادة ما يتحلل منه إلا بتناول الأغذية ، ولا
يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة ، فاذن الشهوة محتاج اليها ومرغوب
فيها . وتقتضي الحكمة الالهية إيجادها وتزيينها كما قال تعالى : « زُيِّنَ
لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ »^(١) الآية ، لكن مثلها مثل
غدو وتحشى مضرته من وجهه ، وترجى منفعته من وجهه ، ومع عداوته لا
يستغنى عن الاستعانة به ، فحق العاقل أن يأخذ نفعه ، ولا يسكن
اليه ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به .

وما أصدق في ذلك قول المتنبي إذ تصور في وصف الشهوة ،
وإن قصدها ، فما أجود ما أرادها شعر .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له ما من صداقته بُدُّ

وأيضاً فإن هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس الى لذات الجنة ، من
المأكول والمشرب والمنكح ، إذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ولو
توهمناها مرتفعة لما تشوقوا الى ما وعدوا به من قول النبي صلى الله عليه
وسلم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الباب العشرون

﴿ في ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما ﴾

كلُّ متعاطٍ لفعل من الأفعال النفيسة فانه يتقوى فيه بحسب
الازدياد منه ، إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً ، فباحتمال صغار الأمور
يمكن احتمال كبارها ، وباحتمال كبارها يستحق الحمد ، ولهذا قال أمير
المؤمنين علي رضي الله عنه : الايمان يبدو نكتة بيضاء في القلب كلما
ازداد الايمان ازداد ذلك البياض ، وإذا استكمل العبد الايمان إبيض
القلب كله ، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء ، كلما ازداد النفاق اسود
القلب كله ، فالانسان يكمل في الفضيلة بأربع درجات : اثنين في
الاعتقاد : وهما أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة
وأدلة قاطعة لا عن شبهات واهية وإقناعات متداعية . واثنين في الفعل
وهما : أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنب
الرذيلة ليتوصل الى الفضيلة ، وأن يتعود العادات الحسنة فيجعلها
بحيث يؤثرها ويتنعم بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « وجعلت
قرة عيني في الصلاة » وكما أنه يكمل بأربع درجات . فانه ينتكس
بأربع درجات : درجتين في الاعتقاد .

وهما : أن لا يعتقد شيئاً من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غافلاً ،
وأن يعتقد عن تقليد إعتقاداً فاسداً فيتلطخ به .

ودرجتين في العمل وهما : أن لا يتعود العادة الجميلة رأساً ،
وأن يتعود العادة القبيحة ، فمن صار في الفضيلة الى الدرجة الرابعة
فهو ممن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه .

ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم
الله بقوله : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ »^(١)
ثم قال : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »^(٢) وقيل
لحكيم : ألا تعظ فلاناً ؟ فقال : ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه ،
فلا سبيل الى معالجة فتحه ، وللانسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة
أحوال :

إما أن يكون في ابتدائها فيقال : هو عبدها وابنها ولهذا قال
بعضهم : من لم يخدم العلم لم يرعه ، والثاني : أن يتوسطها فيقال :
هو أخوها وصاحبها ، والثالث : أن ينتهي فيها بقدر وسعه ويتصرف
فيها كما أراد فيقال : هو ربها وسيدها ، ومنه قيل : فلان رباني في
العلم ، فان رب الشيء هو الذي يريه ، وسيده هو الذي يملك سواده
أي جميعه ، وغاية الفاضل في الفضيلة أن يقع منه أفعال الفضائل أبداً
من غير فكر ولا روية ، لغلبة قواها عليه وبعد ما ينافيها عنه كالصانع
الحاذق في صنعته ، وغاية الرذل في الرذيلة أن يقع منه أفعال الرذائل
لغلبة قواها عليه ، ولهذا حُذِّ الخُلُقُ : بأنه حال الانسان الداعية الى
الفعل من غير فكر ولا روية .

١ - محمد ٢٣

٢ - محمد ٢٤

الباب الحادي والعشرون

﴿ في الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق ﴾

الفرق بين الخلق والتخلق .
إن التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج الى بعث وتنشيط من خارج .

والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج الى بعث من خارج .
والتخلق والتشبه بالأفاضل ضربان :

ضرب محمود : وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدريب
ويتحراه صاحبه سراً وجهراً على الوجه الذي ينبغي ، وبالمقدار الذي
ينبغي وإياه قصد الشاعر بقوله :

ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا * بل قد قال النبي عليه الصلاة
والسلام : « ما العلم إلا بالتعلم وما الخلق إلا بالتخلق » .

وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراءاة ولا يتحرى صاحبه
إلا حيث يقصد أن يذكر به ، ويسمى ذلك رياء وتصنعاً وتشيعاً ولن
ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشيعه ، كما وجد في كتاب
كليلة : الطبع المتكلف كلما زده تثقيفاً زاد تعقيفاً وعلى ذلك قول
الشاعر :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً * تكلف شيء في طباعك ضده

وإياه قصد عمر رضي الله عنه بقوله : من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه
الله عز وجل ، وحال المتشيع كالجرح يندمل على فساد ، فلا بد أن
ينبعث وإن كان بعد حين كما قيل :

فان الجرح ينفسر بعد حين * إذا كان البناء على فساد

وكما أن العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه ، وإن
جاهد ، فمتى حرك الى اليمين تحرك نحو الشمال ، وكذا أيضاً الشره
والظلم والتهور ، وإن جاهدوا أنفسهم في اخفائها فان قواهم تأبى
مطاوعتهم ، وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله : « المتشيع
بما ليس عنده كلابس ثوبي زور » تنبيهاً على انه كاذب بقوله وفعله
فيتضاعف وزره وقد حمل على ذلك قوله تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » ^(١) وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام
بقوله : « الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا في الليلة
الظلماء » وأقبح الرياء النفاق في الدين ، وأقبح النفاق ما كان في
أصل الاعتقاد وهو إظهار الايمان مع استبطان الكفر ، ولذلك جعل
الله عقابهم أعظم فقال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من
النار » ^(٢).

الباب الثاني والعشرون

﴿ في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم ﴾

جميع الفضائل النفسية ضربان : نظري وعملي . وكل ضرب

٢ - النساء ١٤٥

١ - يوسف ١٠٦

منهما يحصل على وجهين :

أحدهما بشريّ يحتاج فيه الى زمان وتدريب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة ، وإن كان فيهم من يكفيه أدنى مدرسة وفيهم من يحتاج الى زيادة ممارسة ، وذلك بحسب اختلاف الطبائع والذكاء والبلادة .

والثاني يحصل بفضل إلهي نحو أن يولد انسان فيصير من غير تعلم من البشر عالماً كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، وغيرهما من الأنبياء الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للحكماء ، وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الأنبياء أيضاً في الغيبة ، فكل ما كان بتدريب فقد يكون بالطبع ، كصبي يوجد صادق اللهجة سخيا وجريئاً ، وآخر على عكس ذلك ، وقد يكون بالتعلم وبالعادة ، فمن صار فاضلاً طبعاً وعادة وتعلماً ، فهو كامل الفضيلة ، ومن كان رذلاً بثلاثتها فهو كامل الرذيلة .

الباب الثالث والعشرون

﴿ وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة ﴾

حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلاً ، أو لم يمكنه ، وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول ، وإن لم يكن ذا مال يبذله ، ولا عرض له مقام تظهر فيه

نجدته ، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته ، فقد قيل لبعض الحكماء : هل من موجود يعم الورى ؟ فقال : نعم ان تحسن خلقتك وتنوي لكل أحد خيراً وقال عليه الصلاة والسلام : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

واعلم ان كل فعل محتاج فيه الى إيجاده وتجويده وتزيينه دنيوياً كان أو آخروياً ، ولكن متى كان آخروياً يحتاج فيه مع ذلك الى أمور لا يتم ولا يكمل إلا بها ، وهو أن يجب أن يتعاطاها قصداً الى المكرمة والا لم يعتد بها ، كما قال تعالى : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ »^(١) وأن يتحراه بخلوص طوية ، كما قال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »^(٢) وأن لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مضرة ، فانه يكون بفعله ذلك تاجراً . ويجب عند بعض المحققين أن لا يطلب به منفعة آخروية أيضاً فقد قيل : من عبد الله تعالى بعوض فهو لثيم ، ومن فعل ذلك بانشرح صدر فهو أولى ممن يفعل به مجاهدة نفس ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما يكره خير كثير » . وقولهم : الحق مر فهو باعتبار من لم تنهض نفسه ولم يزل مرضه شعر :

فمن يك ذا فم مرّ مريضاً * يجد مرأً به الماء الزلالا
وأما من كمل فانه يستطيع الحق وإن كان ثقيلاً ، كما قال النبي

١ - البقرة ٢٦٥

٢ - البنية ٢

صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » . ومن أصلح خلقه وهذب نفسه فهو أعظم الملكين . فمن ملك نفسه وقواه فهذهها وزكاهها فقد أطلع بذلك على ملكوت السموات والأرض وملك أطوع جيش بلا عطاء يلزمه وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : « إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ »^(١) فجعل النبوة مخصوصة فيهم وجعل الملك عاماً لهم تنبيهاً على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله تعالى : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا »^(٢) ونذكر بعد ذلك أنواع نعم الله تعالى وما يكتسب منها ، والله ولي الفضل والاحسان .

الباب الرابع والعشرون

﴿ نعم الله الموهوبة والمكسوبة ﴾

نعم الله عز وجل وإن كانت لا تحصى مفصلة كما قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »^(٣) فانها بالقول المجمل خمسة أنواع :

الأول : وهو أعلاها وأشرفها السعادة الأخروية وإياها قصد تعالى بقوله : « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

٣ - ابراهيم ٣٤

١ - المائدة ٢٠

٢ - النساء ٥٤

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ «^(١)» وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعلم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وغنى بلا فقر ، ولا يمكن الوصول الى ذلك إلا باكتساب الفضائل النفيسة واستعمالها كما قال تعالى : « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »^(٢) وأوصل ذلك الى أربعة أشياء : العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع ، والشجاعة وكمالها المجاهدة ، والعدالة وكمالها الانصاف ، وهي المعبر عنها بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي أربعة أشياء : الصحة والقوة والجمال وطول العمر ، وبالفضائل المطيفة بالانسان وهي أربعة أشياء : المال والعز والأهل وكرم العشيرة ، ولا سبيل الى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل وذلك بأربعة أشياء : هدايته ورشده وتسديده وتأييده . فجميع ذلك خمسة أنواع من عشرين ضرباً ليس للانسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسي فقط .

واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الأخروية ، وأما ما عداها فتسميته بذلك إما لكونه معاوناً في بلوغ ذلك أو نافعاً فيه ، وكل ما أعان على خير وسعادة ، فهو خير وسعادة وهذه الأشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الأخروية متفاوتة الأحوال ، فمنها ما هو نافع في جميع الأحوال وعلى كل وجه ، ومنها ما هو نافع في حال دون حال وعلى وجه دون وجه ، ربما يكون ضره أكثر

١ - هود ١٠٨

٢ - الاسراء ١٩

من نفعه ، فحق الانسان أن يعرفها بحقائقها حتى لا يقع الخطأ عليه في اختياره الوضع على الرفيع ، وتقديمه الخسيس على النفيس فالناس في متحرياتها طالب الخير ، وهارب من شرهما قال :

كل يحاول حيلة يرجوها * دفع المضرة واجتلاب المنفعة والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعة

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ويقدر في الشيء انه رزق نافع وحشوه سم نافع ، فلذلك يحق على العاقل أن يجلي بصيرته ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد حبلاً يتنطق به فرأى حية فظنها مبتغاه فأخذها فلدغته .

وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقليل : الخيرات ثلاث مؤثرة لذاتها ، ومؤثرة لغيرها ، ومؤثرة تارة لذاتها ، وتارة لغيرها .

فالمؤثرة لذاتها : السعادة الأخروية ، والنفسية .

والمؤثرة لغيرها : الدراهم والدنانير ، فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي يستدفع بها لكانت هي والحصباء سواء .

والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها ، كصحة الجسم ، فمعلوم ان الرجل وإن أزيلت للمشي فالانسان يريد أن يكون صحيح الرجل ، وإن استغنى عن المشي ، ويقال أيضاً الخيرات ثلاث ، نافع وجميل ولذيذ . والشور ثلاث : ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من ذلك ضربان :

أحدهما : مطلق وهو الذي يجمع الأوصاف الثلاثة في الخير ،

كالحكمة فانها نافعة جميلة ولذيذة ، وفي الشر كالجهل ، فانه ضار وقبيح ومؤلم ، والثاني مقيد ، وهو الذي جمع شيئاً من أوصاف الخيرات وشياً من أوصاف الشرور ، فرب نافع مؤلم كجذع قصير انفه ، فانه وإن نفعه في إدراك الثأر فقد آذاه .

ورب نافع قبيح كالحمق ، فانه وإن نفع من حيث ما قيل استراح من لا عقل له ، فهو جد قبيح .

ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كمن في سفينة فخاف الغرق فألقى متاعه في الماء فخلصت السفينة ، وكل ما نفعه ولذته وجماله أطول مدة وأغمر عائلة فهو أفضل .

فحق العاقل أن يرغب الى الله تعالى في أن يعطيه ما فيه مصلحة كما لا سبيل له بنفسه الى اكتسابه ، وأن يبذل جهده مستعيناً بالله عز وجل في اكتساب ماله وكسبه ، وبلوغ الأعلى فالأعلى منه على الترتيب ، فبذلك يشرف من ضيع أنفـس السـنـيات مع التمكن من تحصيله ، فهو دني الهمة راض بخسيس الحال ، وأشرفها ما إذا حصل لم يغضب ولم يحتاج في حفظه الى أعوان وحفظة ، وكان نافعاً عاجلاً وآجلاً ومطلقاً في كل حال وكل زمان ومكان وذلك هو الفضائل النفسية ولا سيما العقل والعلم ، فأما القنـيات الخارجة نحو المال والجـاه ، فانها يقال لها : الخيرات المتوسطة ، لأنها تنجذب الى الفضيلة مرة وإلى الرذيلة مرة لأنها سبب للخيرات إذا كانت مع العقل ، وسبب للشرور إذا كانت مع الجهل ، وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سبباً للشر بقوله : « إِنَّمَا

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ»^(١) وقوله: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا»^(٢) ولذلك قيل السعيد هو
الخير العاقل ، غنياً كان أو فقيراً ، قوياً كان أو ضعيفاً .

إن قيل ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل بينهم فرق ؟
قيل : أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه ، والمختار غيره لأجله
وهو الذي يتشوقه كل عاقل بل قد قيل : هو الذي يتشوقه الكل بلا
مثنوية ، فان الكل يطلب في الحقيقة الخير ، وان كان قد يعتقد في الشر
انه خير فيختاره فمقصده الخير ويضاده الشر وهو المحبوب من أجل
نفسه والمحبوب غيره من أجله قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا
خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة » .

فجعل الخير المطلق الجنة ، والشر المطلق النار كما ترى ، فقد
يقال : لكل ما يتوصل به الى الخير خير ولهذا سمي الله تعالى المال خيراً
في قوله : « إِن تَرَكَ خَيْرًا »^(٣) لكن المال في الحقيقة يكون خيراً لبعض
الناس ، وشرّاً لبعضهم فمعلوم انه كان شرّاً لمن قال تعالى فيه : « الذي
جمع مالا وعدده يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ »^(٤) وأما السعادة المطلقة فحسن
الحياة في الآخرة وهي الأربع التي تقدم ذكرها من : البقاء بلا فناء ،
والقدرة بلا عجز ، والعلم بلا جهل ، والغنى بلا فقر . وقد يقال : لما
يتوصل به الى هذه السعادات الأربع سعادة وهي الستة عشر المتقدمة
ويضادها الشقاوة .

١ - التغابن ١٤

٢ - البقرة ١٨٠

٣ - التوبة ٨٥

٤ - الهمة ٢

وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به للانسان مزية على الغير ، وهي اسم لما يتوصل به الى السعادة ويضادها الرذيلة ، وأما النافع فهو ما يعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير والنافع في الشيء ضربان : ضروري وهو ما لا يمكن الوصول الى المطلوب إلا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ الى النعيم الدائم ، وغير ضروري وهو الذي قد سد غيره مسده كالسكنجيين في كونه نافعاً في قمع الصفراء ، فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع يسمى فضيلة وسعادة وخيراً ، لكونه مبلغاً الى ذلك وموصلاً اليه .

الباب الخامس والعشرون

﴿ حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض ﴾

قد ثبت بما تقدم ان الخيرات والفضائل خمسة أنواع : أخروية ، ونفسية ، وبدنية وخارجية ، وتوفيقية ، فيجب أن يعلم أن بعض ذلك محتاج الى بعض إما حاجة ضرورية يجب لو لم يوجد لاختل حال الآخر ، وذلك أن السعادة الحقيقية الأخروية لا سبيل الى الوصول اليها إلا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » فنبه انه لا مطمع لمن أراد الوصول اليها إلا بالسعي ، ولا سبيل الى تحصيل الفضائل النفسية إلا بصحة البدن وقوته ، وانه لا غنى لكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية ، فانه وإن أمكن أن يتصور

حصولها لمن لا أهل له ولا مال له ولا عشيرة ، فانه لا يكمل إلا بها .

الباب السادس والعشرون ﴿ الفضائل المطيفة بالانسان ﴾

قد تقدم ان ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء : المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة ، وان هذه الأشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الأخروية وجارية مجرى الجناح المبلغ ، وانه لم تكن الحاجة اليها في بلوغ ذلك ضرورية .

فأما المال ، فصاحبه يتمكن من فضائل إذا فقدته ثكل بلوغها ، فمعلوم أن كثيراً من القرب كالزكاة والحج يشكله الفقير ، فالفقير في تحري المكارم * كساع الى الهيجاء بغير سلاح * وكباز متصيد بلا جناح .

وفضله مغطى كماء تحت الأرض ونار كامنة في الصخر وما أصدق ما قال الشاعر

والمرء يرفعه الغنى * والفقير منقصة وذل

وقول الآخر :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إني أسألك

الهدى والتقوى والعفة والغنى » وقال صلى الله عليه وسلم : « نعم العون على تقوى الله المال » وأما الأهل فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر أهله وخالصوه صار له بهم عيون وآذان وأيدٍ قال الله تعالى حاكياً عن لوط صلى الله عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أُوَدِّعُ إِلَى رُحْمٍ شَدِيدٍ »^(١) قال الشاعر :

ألم تر أن جمع القوم يخشى وإن حريم واحد هم مباح
وقال عليه الصلاة والسلام في نفع الولد : « إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

وقال : « ريح الولد من رائحة الجنة » وقال : « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » فالمرأة مزرعة الرجل قبضها الله تعالى ليزرع فيها زرعه كما قال تعالى : « نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ »^(٢) وقال تعالى « أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا »^(٣) وأما العز فبه يتأبى عن تحمل الذل ومن لا عز له لا يمكنه أن يذود عن حريمه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان إخوان توأمان وقربيان مؤتلفان ومؤديان الى عمارة البلاد وصلاح العباد : وقيل : « الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهذوم ، وما لا حارس له فضائع . وسمى الله تعالى الحجة سلطاناً لقهرها أولي البصائر وقال عز اسمه : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

١ - البقرة ٢٢٣

٢ - النساء ١١

بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»^(١) وأما كرم العشيرة فإنه يقال له :
الحسب والشرف أخص بمآثر الآباء والعشيرة ، ولذلك قيل : العلوية
أشراف ، ومن الناس من لا يعد الأصل فضيلة ، وقيل : المرء بنفسه ،
واستدل بقول عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه : الناس أبناء ما يحسنون
وقوله : قيمة كل امرئ ما يحسنه وقول الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً * يغنيك محموده عن النسب
وقول الحكيم : الشرف بالهمم العالية لا بالعظام البالية ، وليس
ذلك كما ظن ، لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له
فالفرع وإن كان قد يفسد أحياناً فمعلوم أن أصله قد يورثه الفضيلة
والرذيلة فانه لا يكون من النخل الحنظل ، ولا من الحنظل النخل ،
ولذلك قال الشاعر :

وما يك من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الأوشيجة * وتغرس إلا في منابتها النخل

وقيل :

ان السريّ إذا سرى فبنفسه * وابن السري إذا سرى أسراها
ويبين ذلك أن الأخلاق نتائج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيراً ما
يتأدى الى الابن كالألوان والخلق والصور ، ومن أجل تأديها اليه قال
صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم الأكفاء » وقال : « إياكم
وخضراء الدمن قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة
الحسنةاء في المنبت السوء » وما ذكر من نحو قول أمير المؤمنين علي رضي

الله عنه ، الناس أبناء ما يحسنون . فحث به الانسان على اقتباس
العلی ، ونهى عن الاقتصار على مآثر الآباء ، وأن المآثر الموروثة قليلة
الغناء ، سريعة الفناء ما لم تضم معها فضيلة النفس ، لأن ذلك إنما
حد لكي يوجد الفرع مثله ومتى أخلف الفرع وتخلف ، فكأنه يجبر
بأحد شيئين : إما بتكذيب من يدعي الشرف بعنصره ، أو بتكذيبه في
انتسابه الى ذلك العنصر ، وما فيهما حظ المختار والمحمود : أن يكون
الأصل في الفصل راسخاً ، والفرع به شامخاً كما قال الشاعر :

زانا قديمهم بحسن حديثهم * وكریم أخلاق بحسن خصال

ولم يجتمع له الأمران فلأن يكون شريف النفس دنيّ الأصل ،
أحمد من أن يكون دني النفس شريف الأصل كما قيل :

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة * من المثمرات اعتده الناس في الخطب
فما الحسب الموروث لا درّ دره * بمحتسب لا بآخر مكتسب

وما كان عنصره في الحقيقة سنياً وفي نفسه دنياً ، فذلك أتى إما
من إهماله نفسه وسومها ، وإما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار
وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سببه سبباً
واحداً .

الباب السابع والعشرون

﴿ الفضائل الجسمية ﴾

قد اشتهر قوم بذلك فقالوا : كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن

بريثاً من الأمراض الشاغلة عن تحري الفضائل العقلية ، وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع ، والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعاً ورباناً . وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة : العظام التي تجري للبدن كالألواح للسفينة ، والعصب الذي يجري له مجرى الرباط الذي شد به الألواح ، واللحم الذي يجري له مجرى الحشو للرباطات ، والجلد الذي يجري مجرى الغشاء لجميعها ، فإذا اعتدلت هذه الأربعة بأن يعتدل فيها الأربع القوى وهي : الجاذبة والماسكة والمهاضمة والدافعة ، سمي ذلك الصحة ، ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع ، وأما القوة فهي جودة تركيب هذه الأركان الأربعة وهي : العظام والعصب واللحم والجلد ، وما يتبعها وبها يصلح البدن للسعي والتصرف في أمور الدنيا والآخرة ، وأما الجمال فنوعان :

أحدهما امتداد القامة الذي يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية ، فان الحرارة إذا حصلت رفعت أجزاء الجسم الى العلو كالنبات إذا نجم كلما كان أطلب للعلو في منبته كان أشرف في جنسه ، والاعتبار بذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه العالي والفائق وكثر المدح بطول القامة نحو قولهم :

أشيم طويل الساعدين كأنما * يناط نجادا سيفه بلواء

الثاني من الجمال : أن يكون معدوداً قوي العصب طويل الأطراف ممتداً ، رحب الذراع غير مثقل بالشحم واللحم كما قال :
متى قدّ سيف لا متضائل * ولا زهل لباته وبآله

ولا نعني بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء ، فذلك

أنوثية ، وإنما نعني به الهيئة التي لا تنبو الطباع عن النظر اليها ، وهو أدل شيء على فضيلة النفس ، لأن نورها إذا أشرق تأدى الى البدن إشراقها ، وكل شخص فله حكمان :

أحدهما من قبل جسمه : وهو منظره .
والآخر من قبل نفسه : وهو مخبره .

وكثيراً ما يتلازمان ، ولذلك فزع أصحاب الفراسة في معرفة أحوال النفس أولاً : الى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء : قل صورة حسنة يتبعها نفس ردية ، فنقش الخواتيم مقروء من الطين ، وطلاقة الوجه عنوان ما في النفس ، وليس في الأرض شيء إلا ووجهه أحسن ما فيه ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أطلبوا الحاجات من حسان الوجوه » . وقال عمر رضي الله عنه : إذا بعثتم رسلاً فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم ، فالوجه والعين يظهر فيهما أثرا النفس كالمرأة يستدل بها عليها ، ولذلك يظهر فيهما أثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها ، ولذلك عبر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم بفلان وجه القوم وعينهم حتى قال تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »^(١) . وكون الوجه المقبول في دلالة على فضيلة النفس ، وإن لم يكن حكماً لازماً فهو على الأعم والأكثر . وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه أكن فأمر باسقاطه وقال : إن الروح إذا كانت ظاهرة كانت صباحة ، وإذا كانت باطنة كانت فصاحة ، وأراه لا ظاهر له ولا باطن ، وكفاك من البيان في فضل

كمال الجسم قول الله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَمِ»^(١) وقال : «وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً»^(٢) وأما طول العمر فلولا له لقل حظ الانسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الآخروية والله ، وليّ الفضل والاحسان وعليه المعول والتكلان .

الباب الثاني والعشرون

﴿ ما يتولد من الفضائل النفسية ﴾

أمهات الفضائل النفسية وإن كن أربعاً فلها بنات هن أمهات لفضائل آخر ، وبيان ذلك : ان العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر ، ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأي ، وتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم وجودة الحفظ ، والشجاعة متى تقوّت تولد منها الجود في حال النعمة ، والصبر في حال المحنة ، والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى * وتلك الغواني للبكا والمآثم

والعفة إذا تقوّت ولدت القناعة ، والقناعة تمنع عن الطمع في مال غيره ، فولدت الأمانة .

١ - البقرة ٢٤٧

٢ - الاعراف ٦٩

والعدالة إذا تقوّت تولد الرحمة ، والرحمة هي الاشفاق من أن يفوت ذا حق حقه فهي تولد الحلم ، والحلم يقتضي العفو، فالانسانية والكرم يجمعان هذه الفضائل ، وذلك ان الانسانية هي الفضائل النفسية المختصة بالانسان وبقدر ما يكتسبه الانسان يستحقها وفيه تفاصيل كثيرة كما تقدم في الفرق فيما بين الانسان والانسان ، فمنهم من قد ارتفع حتى لحق أفق الأملاك ، فلو تصورنا ملكاً جسمى لكان هو إياه لارتفاعه عن الانسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى : «إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»^(١) ومنهم من اتضع حاله حتى صار في أفق البهائم ، فلو تصورنا كلباً أو حميراً منتصب القامة متكلماً لكان هو إياه لانسلاخه عن الانسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى : «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»^(٢) ومنهم من هو في وسط هذه في درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح أن يقال : فلان أكثر إنسانية من فلان ، وما يختص به لفظ الانسانية فهي : الأخلاق والأفعال المحمودة .

فأما المذمومات من الأفعال فتشارك الانسان فيها البهائم والشیاطین .

أما المروءة : فلها اشتقاقان ، ففي احدهما ما يقتضي أن تكون هي والانسانية متقاربتين ، وهو أن يجعل من قولهم مرؤ الطعام وامراه إذا تخصص المريء لموافقة الطبع ، وكأنها اسم للأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون إسماً للأفعال المستحسنة كالانسانية .

والثاني أن تكون من المرء فتجعل اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة ، فتكون كالرجولية ، وذلك أخص من الانسانية إذ

١ - يوسف ٣١

٢ - الأعراف ١٧٩

الانسانية يشترك فيها الرجال والنساء والمروءة أخص ، فكثيراً ما يكون فضيلة للمرأة ، يكون رذيلة للرجل كالبه والخفة والجبن ولهذا قيل : أفضل أخلاق الرجل أرذل أخلاق النساء ، فالكيس والشجاعة والجود رذيلة هن . وقيل لمعاوية : ما المروءة ؟ فقال : إطعام الطعام ، وضرب الهام ، وقيل للأحنف ، فقال : أن لا يفعل في السر ما يستحي منه في العلانية . وقيل لآخر فقال : جماعها في قول الله عز وجل : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ»^(١) وأما الكرم فاسم لجماعة الأخلاق والأفعال المحمودة إذا ظهرت بالفعل والحرية مثله ، لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والأغراض الدنيوية ، وذكر بعض الحكماء ان الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة كمن ينفق مالاً في تجهيز جيش في سبيل الله تعالى ، أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة فكل كرم حرية ، وليس كل حرية كرمًا وأيضاً فالحرية تتعلق بالتلطف عن الأخذ وأكثر الكرم يتعلق بالانفاق أكثر ، ويضاد الكرم : اللؤم ، والحرية : العبودية ، أعني المذكورة في قول الشاعر :

والعبد لا يطلب العلاء ولا * يعطيك شيئاً إلا إذا رهبا

وكما أن الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ، ولا يدخل في الحرية والكرم النساء فانهن مستخدمات بل مستعبدات ، ولذلك روي لو أمر الله مخلوقاً بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن . إن قيل ما حقيقة قول الله تعالى : «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»^(٢) قيل لما كان الكرم اسماً للأفعال المحمودة التي تقدم ذكرها وهذه الأفعال إنما تكون

١ - النحل ٩٠

٢ - الحجرات ١٢

فاضلة إذا كان عن علم ، وقصد بها أشرف الوجوه أي وجه الله تعالى وذلك هو التقوى فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة كان كل من اتقى أكرم . والعزیز الذي يأبى تحمل المذلة ، واشتقاقه من العزاز كالمظلف في الامتناع من تناول الشهوات المذلة . وأصله من الظلف وهي الأرض الصلبة .

وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكریم فقال : الکریم يأبى أن يعصى له ، والعزیز يأبى أن يعصى عليه . والظرف إسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجة تشبيهاً بالظرف الذي هو الوعاء ، ولذلك قال إعرابي : فلان حاضن الشرف ومقر الفضل . ولكونه واقعاً على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظریف ، ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه ظریف .

فالظرف أعم من الحرية والكرم .

وأما الفتوة فكالمروءة فانها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الانسانية لكن هي بالرجولية أشبه . وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصرف ، لكونها مشاركة له في جميع أفعالها لا في الغرض ، فان غرض الفتیان استجلاب محمدة الأقران ، وغرض الصوفية استجلاب محمدة الرحمن ، بل مجرد مرضاته تعالى ، وأما الحسب فقد يقال فيما يختص الانسان به فيعده من مآثره وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه والشرف نحوه لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء .

الباب التاسع والعشرون

﴿ الفضائل التوفيقية ﴾

التوفيق : موافقة إرادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره ، وإن كان في الأصل موضوعاً على وجه يصح استعماله في السعادة والشقاوة ، فقد صار متعارفاً في السعادة فقط .

والاتفاق : مطاوعة التوفيق ، لكن قد يستعمل في السعادة والشقاوة جميعاً فيقال اتفاق جيد واتفاق رديّ ، والتوفيق مما لا يستغني الانسان عنه في كل حال كما قيل لحكيم ما الذي لا يستغني عنه أحد في كل حال فقال التوفيق وأنشد

إذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجني عليه اجتهاده
فالسعادة التوفيقية : هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فيجب أن يعلم أن لا سبيل لأحد الى شيء من الفضائل إلا بهداية الله تعالى ورحمته ، فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال الله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »^(١) وخاطب فقال : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ »^(٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أي بهدايته قيل ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن

١ - الطور ٥٠

٢ - النور ٢١

يتغمدني الله برحمته » أي هدايته تنبيهاً على انه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان لنا سبيل الى ذلك .

وللهداية ثلاث منازل في الدنيا :

الأول : تعريف طريق الخير والشر المشار اليهما بقوله تعالى : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ»^(١) وقد خول الله تعالى الهدى كل مكلف بعضه بالعقل ، وبعضه بالسنة الرسل وإياه عنى بقوله : «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى»^(٢)

والثاني : ما يمد به العبد حالاً فحالاً بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح وإياه عنى بقوله : «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ»^(٣) .

والثالث : نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة ، وإياه عنى بقوله تعالى : «قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى»^(٤) فأضاف ذلك الى لفظة الله تعظيماً له ثم قال : « هُوَ الْهُدَى »^(٥) فجعله الهدى المطلق وبقوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا»^(٦) أي نوراً يفرقون به بين الحق والباطل وكل ذلك تسمى النور والحياة نحو : «أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا»^(٧) الآية وقال : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »^(٨) وبتحرى هذه المنازل الثلاثة يتوصل الى الهداية الى الجنة

٥ - الانعام ٧١

٦ - الانفال ٢٩

٧ - الانعام ١٢٢

٨ - الزمر ٢٢

١ - البلد ٩

٢ - فصلت ١٧

٣ - محمد ١٧

٤ - آل عمران ٧٣

المذكورة في قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله »^(١) .

والرشد عناية إلهية تعين الانسان عند توجهه في أموره فتقويه على ما فيه إصلاحه وتفتره عما فيه فساد ، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ »^(٢) وكثيراً ما يكون ذلك بتقوية العزم ، أو فسخه ، واليه توجه قوله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ »^(٣) والتسديد أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب لتهمج عليه في أسرع مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المسؤول بقوله تعالى : « إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »^(٤) والنصرة من الله تعالى معونة الأنبياء والأولياء وصالحى العباد ، بما يؤدي الى صلاحهم عاجلاً وآجلاً ، وذلك يكون تارة من خارج يقضه الله تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوي قلوب الأولياء ، أو يلقي رعباً في قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ »^(٥) وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »^(٦) وأما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها : الدولة ، وعلى هذا قوله تعالى : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »^(٧) وقوله في وصف الفسيء : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »^(٨)

٥ - غافر ٥١
٦ - الصافات ١٧١
٧ - آل عمران ١٤٠
٨ - البقرة ٨٧

١ - الأعراف ٤٣
٢ - الأنبياء ٥١
٣ - الانفال ٢٤
٤ - الفاتحة ٦

والتأييد تقوية أمره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقوة البطش
ومن الأول قوله تعالى : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »^(١).

والعصمة فضل إلهي يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر
حتى يصير كمانع له من باطنه ، وإن لم يكن منعاً محسوساً وإياه عنى
بقوله : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه »^(٢) وقد روي
أن يوسف رأى صورة يعقوب عليها السلام وهو عاض على إبهامه فأحجم
وليس ذلك لمانع ينافي التكليف ، كما تصوره بعض المتكلمين ، فان ذلك
تصور منه ، وتذكر لما كان قد حذره منه ، وعلى هذا قال تعالى : « كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ »^(٣).

ومن عصمته تعالى أن يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا
يغفل ساعة عن مراعاة نفسه كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم :
« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
الْوَتِينَ »^(٤) واعلم أن رشدته تعالى للعبد وتسديده ونصرته وعصمته تكون
بما يحوله من الفهم الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب المراعي ، وتقويض
المعلم الناصح والرفيق الموافق ، وإمداده من المال ما لا تقعه به عن مغزاه
قلته ولا تشغله عنه كثرته ومن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء
وعن الغض منه من جهة الأغنياء وإن خوله من كبر الهمة وقوة العزيمة ما
يحفظه عن الأشياء الدنية والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية .

١ - البقرة ٨٧

٣ - يوسف ٢٤

٢ - يوسف ٢٤

٤ - الحاقة ٤٤

الباب الثلاثون

﴿ في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضاً ﴾

العقل ، والعفة ، والشجاعة ، والجود ، والعدالة ، وسائر الفضائل تتلازم . فان العقل إذا أشرق عقل صاحبه عن الإقدام على ما يورثه مذمة ويحمله على الإقدام على المخاوف التي تورثه المحمدة وعلى أن يتمم تفضل ما في يده لمن يحتاج اليه ، وأن يبذل لكل ذي حق حقه ، وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة ، وكذا إذا كان عدلاً يحمله عدله على ترك تناول ما لا يجوز تناوله ، وأن لا يحجم عما يلزمه الإقدام عليه ، وأن لا يبخل بفضل ما في يده ، وإذا كان شجاعاً لا تقهره شهوته على تناول ما لا يجوز تناوله وعلى ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل ، ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة ، والسماحة شجاعة فقال :

أيقنت ان من السماح شجاعة * تدمي وإن من الشجاعة جودا

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم دفع الشهوة جهاداً فقال : « جهادك هواك » . وجعلت العفة جوداً فقليل : الجود جودان جود بما في يدك وجود عما في يد غيرك وهو أعظمهما ، وهذه الفضائل إذا حصلت حصل بها الانسانية والحرية والكرم وعنها يتأصل الاسلام والايمان والتقوى والاخلاص .

الباب الحادي والثلاثون

﴿ البواعث على فعل الخير وتحري الفضائل ﴾

البواعث على تحري الخيرات الدنيوية ثلاث :
أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضرره .
والثاني رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه .
والثالث تحري الخير وطلب الفضيلة .
فالأولى من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة .
والثانية من مقتضى الحياء ، وهي من فعل السلاطين وكبار أبناء
الدنيا .

والثالثة من مقتضى العقل وذلك من فعل الحكماء ولهذه المنازل
الثلاث قيل : خير ما أعطي الانسان عقل يردعه ، فان لم يكن فحياء
يمنعه ، فان لم يكن فخوف يقمعه ، فان لم يكن فمال يستره ، فان لم
يكن فصاعة تحرقه تريخ منه العباد والبلاد .

وكذا البواعث على الخيرات الأخروية ثلاث :
الأول الرغبة في ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه ، وذلك منزلة
العامة .

والثاني رجاء حمده ومخافة ذمه ، وذلك منزلة الصالحين .
والثالث طلب مرضاة تعالى في المتحريات ، وذلك منزلة النبيين

والصديقين والشهداء وهي أعزها وجوداً ، ولذلك قال بعضهم :
أفضل ما يتقرب به العبد الى الله تعالى ان يعلم إنه لا يريد العبد من
الدنيا والآخرة غيره قال الله تعالى : « وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ »^(١) وقيل لرابعة [العدوئية] :
ألا تسألين الله تعالى في دعائك الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ،
فبهذا النظر قال بعضهم : من عبد الله تعالى بعوض فهو لثيم .

وقال بعض العلماء : هذه المنازل الثلاثة منازل : الظالم
والمقتصد والسابق ، وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ما روي عنه
عليه الصلاة والسلام : « سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس
الكبراء » فقد قال بعض العلماء : مساءلة العلماء ترغبك من الله تعالى
في ثوابه وتخوفك من عقابه ، ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد
وتبعدك من الذم ، ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الباري .

الباب الثاني والثلاثون

﴿ الموانع من تحري الفضائل ﴾

وذلك ضربان قصور وتقصير .

فأما القصور : فبأن لا تكون له المعاني العشرة التي قدمناها ولا
التمكن من اكتسابها ، أو يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله
عائق مرضي ، أو شغل ضروري لعذره كحاجة الى السعي فيما يسد به

جوعته ويستر به عورته ، وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »^(١) ودواء الأمرين الفزع الى الله تعالى ، والتضرع اليه بأن يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته . وأما التقصير فأربعة أشياء :

الأول : أن يكون انساناً لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الجميل من القبيح فبقي غفلاً فدواءه سهل وهو التعليم الصائب .

والثاني : أن يكون قد عرف ذلك ، لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسناً فتعاطاه ، وأمره أصعب من الأول ، لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة حتى يتعودها ، وإن كان قد قيل : ترك العادة شديد .

والثالث : أن يعتقد في الباطل والقبيح انه حق وجميل فتربى على ذلك ومداداة ذلك صعب جداً ، فقد صار ممن طبع على قلبه إذا تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدي حذفه منه الى حرقه وفساده .

والرابع : أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريراً في نفسه يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة ، وذلك أصعب الوجوه والى نحوه قصد من قال : من التعذيب تأديب الذيب ليتهدب ، وغسل المسح ليبيض ، فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له : الجاهل .

والثاني يقال له : الجاهل والضال ، والثالث يقال له : جاهل وضال وفاسق ، والرابع يقال له جاهل وضال وفاسق وشري .

الباب الثالث والثلاثون

﴿ الارتقاء في درجات الفضائل والانهدار عنها الى أقصى الرذائل ﴾

للانسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ، ومنحدر سهل ، وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله : «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ»^(١) وبقوله : «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»^(٢) ومدح قوماً بقوله : «يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»^(٣) وعن الانهدار منها نهى الله تعالى بقوله : «وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ»^(٤) وبقوله : «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ»^(٥) وذم قوماً شأنهم ذلك بقوله : «إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ»^(٦) وبقوله : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ»^(٧) وبقوله : «وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا

١ - النحل ٩٢

٢ - محمد ٦

٣ - محمد ٣٢

١ - آل عمران ١٣٣

٢ - البقرة ١٤٨

٣ - المؤمنون ٦١

٤ - المائدة ٢١

يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا»^(١) فان الآية تقتضي هذا المعنى ، وإن كان
ظاهرها يدل على الجهل الذي يورثه الهرم فالخيرات يترقى فيها فتبلغ الى
أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر فتبلغ الى أرذل المنازل بأربع
درجات أيضاً ، فأما درجات الارتقاء فأولها : أن يرتدع الانسان عن
المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاودتها ، وذلك أول
درجة التائبين المطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ، ويسارع فيها بقدر
وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير
تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه وإماته شهواته ، وذلك منزلة
الشهداء .

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهراً
وباطناً بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئاً من
أمره ويعلم ان الله تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين .

وهذه المنازل الأربعة المراد بقوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ
فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »^(٢) وأجدر أن تكون هذه المنازل
الأربعة هي المأمور بها في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا

١ - النحل ٧٠

٢ - النساء ٦٩

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) واعلم أن منزلة الرضاء أشرف المنازل بعد النبوة ، فمن رضي عن الله عز وجل فقد رضي الله عنه لقوله تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » ^(٢) فجعل أحد الرضائين مقروناً بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل عرف حساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وخطب مودة الملائة الأعلى وحظي بتحتيتهم المعنية بقوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » ^(٣) .

وأما درجات الانحدار والارتداد عنها ، فأولها : الكسل عن تحري الخيرات وتورثه ذلك الزيغ المعني بقوله : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » ^(٤) .

وثانيها : الغباوة وهي ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه بقوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ^(٥) .

وثالثها : الوقاحة وهو أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة قلب كما قال وتعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » ^(٦) .

ورابعها : الانهياك في الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه ويحسنه ويحببه فيورثه ذلك ختماً على قلبه وأقفاً عليه كما قال تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ » ^(٧) وكما قال :

٥ - المطففون ١٤

٦ - البقرة ٧٤

٧ - البقرة ٧

١ - آل عمران ٢٠٠

٢ - البينة ٨

٣ - الرعد ٢٣

٤ - الصف ٥

« أم على قلوب أقفالها »^(١) .

والكسل سبب الغباوة ، والغباوة سبب الوقاحة ، والوقاحة سبب الإنهاك ، كما أن الزيف يوجب الرين والرين يوجب القساوة ، والقساوة توجب الختم والاقفال ، فحق الانسان أن يراعي نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر كما قيل :

ان الأمور دقيقتها * مما يهيج به العظيم

وقد قال الله تعالى : « فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ »^(٢) فدل أن قعودهم أول مرة أدى لهم الى أن صار محكوماً عليهم انه لا يتأتى منهم الخروج معه صلى الله عليه وسلم بوجه .

الباب الرابع والثلاثون

﴿ بيان عبادة الله تعالى في تهذيب

الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم ﴾

الناس متى تركوا تعاطي الإحسان والإفضال وتحري العدالة فيما بينهم فلا يأتوا بها لا خلقاً ولا تخلُّقاً ولا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة فصاروا في تعاطي الشر سواء بسواء ثنيات كأسنان الحمار ، عدم

فيهم الفضيلة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساوا هلكوا فحينئذ إن بقي في نفوسهم أثر قبول الخير إن شاء الله تعالى فيهم من يهديهم باللسان والسيف المحق كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم في العرب لما بقي فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام ، وإن قل فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفاً جائراً كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »^(١) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينتصف من أوليائه بأوليائه ومن أعدائه بأعدائه » وعاملهم بما عامل به بني اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصر ، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ »^(٢) الآية . وإن عدم منهم أثر القبول بعث فيهم عذاباً يفنيهم إما طوفاناً أو جائحة أو ناراً محرقة أو ريحاً فيها عذاب أليم فيظهر عنهم البلاد ويريح منهم العباد كما صنع الله بعباد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وذلك كالأرض إذا استولى عليها الشوك لا بد من تسليط النار عليها حتى تعود بيضاء .

الباب الخامس والثلاثون

﴿ أصناف الناس ﴾

الناس ضربان : خاص وعام

١ - الأنعام ١٢٩

٢ - الاسراء ٤

فالخاص : من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون
التقليدات ، ومن الأعمال ما يتبلغ به الى جنة المأوى ، دون ما يقتصر به
على الحياة الدنيا .

والعام : إذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف التقليدات
ومن أكثر الأعمال بما يؤدي الى منفعة دنيوية وإذا اعتبر بأمور الدنيا .

فالخاص : ما يتخصص بأمور البلد بما ينحرم من افتقاده احدى
السياسات المدنية والعام ما لا ينحرم بافتقاده شيء منها وهم من وجه
آخر ثلاثة ، خاصة وعامة ، وأوساط ، والأوساط هم المسمون في كلام
العرب بالسوقة ، فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس ، والعام هو
الذي يساس ولا يسوس ، والوسط هو الذي يسوسه من فوقه وهو
يسوس من دونه ومن وجه آخر ثلاثة أضرب .

أصحاب الشهوات وهمهم الجدة واليسار والأكل والشرب
والبغال (البغال أي الوطء) ، وأصحاب الكرامة والرياسة وهمهم
المدح واستجلاب الصيت والمحمد ، وأصحاب الحكمة وكل واحد
منها يستعظم من هو من جنسه ، ولهذا احتاج السلطان الى كل ذلك
وتعنيته ليكون معظماً عند كل ضرب من الجميع من الناس ، فيعظمه
أصحاب الحكمة لحكمته ، وأصحاب الكرامة لكرامته ، والرياسة
لرياسته ، وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قنياته .

ومن وجه آخر ثلاثة أضرب : ملكي وشيطاني وانسي .

فالملكى : الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده ، وهم
المؤمنون حقاً .

والشيطاني : الذي يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت الى مقتضى العقل ، والأنسي : الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهم المذكورون في قوله تعالى : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٌ ^(١) » وهو المؤمن والفاسق والكافر، وهم المذكورون في قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ^(٢) » ومن وجه آخر ضربان : أبرار، وفجار، فالأبرار ثلاثة أضرب : ظالم ومقتصد وسابق .

وهم المذكورون في قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ^(٣) » الآية وهم أيضاً أعني الأبرار ثلاثة أضرب .
 أنبياء للمشاهدة والهداية لقوله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^(٤) » وحكماء هم الأولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ^(٥) » وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون في قوله تعالى : « يُجَاهِدُونَ فِي »

٤ - الحديد ٢٥

٥ - يونس ٦٢

١ - الواقعة ٨٧

٢ - الواقعة ٦

٣ - فاطر ٣٢

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ»^(١) وهم أيضاً ضربان عبد بالطبع ، وإن كان ملكاً ، وملك بالطبع ، وإن كان عبداً مسترقاً ، والملك من حصل الفضائل النفسية التي بها يصير الانسان بحيث يصح أن يوصف بأنه رباني والهي وملكبي ، ويصح أن يكون خليفة الله في أرضه ، والعبد من قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش ، وإذا شيك فلا انتقش » . وقال بعض الحكماء : ما من انسان إلا وفيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ليكون الانسان مشاركاً لهما في الجنسية ، وإن كان مبانياً لهما في النوعية ، فمن الناس غشوم كالأسد ، وعابث كالذئب ، وخب كالثعلب ، وشره كالخنزير ، وجامع كالنمل ، ووقح كالذباب ، وبليد كالحمار ، وألوف كطير الوفاء ، وصنع كالسلفة ، وأنف كالأسد ، والنمر ، وغيور كالديك ، وهاد كالحمام . ومنهم حسن المنظر والمخبر كالأترج ، ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ، ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلي ، والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الأشجار ولا يقطف ثمرأ ولا يكسر شجراً ولا يؤذي بشراً ، ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه . وهو في الأشجار كالأترج يطيب حملاً ونوراً وعوداً وورقاً ، والمنافق الشرير هو في الحيوانات كالقمل والأرضة ، وفي الأشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار ويبس الأشجار ، وكالثمرة التي قل ورقها ، وكثر شوكتها ، وصعب مرتقاها .

الفصل الثاني

﴿ في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها ﴾

الباب الأول

﴿ فضيلة العقل ﴾

العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه بدلالة ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال : « أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب ».

ولو كان على ما توهمه قوم انه عرض لما صح أن يكون أول مخلوق ، لأنه محال وجود شيء من الأعراض قبل وجود جوهر يحمله . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا دين لمن لا عقل له ولا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله » ، ومن هذا الوجه أشار النبي عليه الصلاة والسلام قالت الحكماء : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه ، وبالعقل صار الانسان خليفة الله عز وجل ، ولو توهم مرتفعاً لارتفعت الفضائل عن العالم فضلاً عن الانسان وبما غرسه الله تعالى في الانسان ، منه اهتدى من وفقه الله تعالى الى تزكية نفسه المذكورة في قوله تعالى : « قد أفلح

من زكاها»^(١) وحصل به حرث الآخرة في قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ »^(٢) وثمرة حرث الآخرة على التفصيل
سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنى
بلا حاجة ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل ، وإلى
العقل أشار بقوله تعالى : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ »
كَمِشْكُورَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ^(٣) الآية فمعنى نور السموات ، أي منورها
والنور هو العقل ، وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل :

ويقال العقل على ضربين .

أحدهما بغير إضافة ، وهو المذكور بأنه أول مخلوق .

والثاني بالإضافة إلى آحاد الناس ، فيقال عقل فلان وهو من
الأول بمنزلة الضوء من الشمس .

الباب الثاني ﴿ أنواع العقل ﴾

العقل عقلان :

غريزي : وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ، ووجوده في الطفل

١ - الشمس ٨

٢ - الشورى ٢٠

٣ - النور ٣٤

كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة .
ومستفاد : وهو الذي تتقوى به تلك القوة .

وهذا المستفاد ضربان :

ضرب يحصل للانسان حالاً فحالاً بلا اختبار منه ، فلا يعرف
كيف حصل ومن أين حصل .

وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصل ومن أين حصل وحصوله
بعد اجتهاده في تحصيله ولكون العقل غريزياً ومستفاداً قال أمير المؤمنين
عليّ رضي الله عنه :

* العقل عقلان : مطبوع ومسموع *

فلا ينفع مسموع * إذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس *
وضوء العين ممنوع .

وإلى الأول أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : ما خلق الله
خلقاً أكرم عليه من العقل » وإلى الثاني أشار عليه الصلاة والسلام
بقوله : لعلّي رضي الله عنه « إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر
فتقرب أنت إليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في
الدنيا وعند الله في الآخرة » .

وقال رضي الله عنه : ما اكتسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه
إلى هدى أو يرده عن ردى » ، ولاختلاف النظريين قال قوم : العقل
مبدع وقال قوم : هو مكتسب وكلا القولين صحيح من وجه ووجه ،
والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر للجسد ، والمستفاد لها بمنزلة النور

وكما أن البدن متى لم يكن له بصر ، فهو أعمى كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة أي عقل غريزي فهي عمياء ، وكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجوّ لم يجد بصره ، كذلك العقل إذا لم يكن له نور من العلم مستفاد لم يجد بصيرته ولذلك قال تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »^(١) وقد جعل للعقل نظر وإدراك ورؤية وأبصار وجعل له أضداد من العمى وغيره وقال عز وجل : « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون »^(٢) وقال : « ما كذب الفؤاد ما رأى »^(٣) وقال : « وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٤) ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر لأن بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر قال الله تعالى : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »^(٥) فذمهم بفقدان البصيرة تنبيهاً أن فقدانها اختياري إذ هو تركهم استفادة العلم وأكثر فقدان البصر ضروري وقال تعالى : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا »^(٦) فلولا أن العين أريد منها البصيرة لما قال عن ذكرى ، لأن الذكر لا يدرك بحاسة العين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمن عيره بفقدان البصر ، انا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم ، وكيف لا يكون فقدان البصيرة أعظم ضرراً من فقدان البصر ، وقد تقدم أن البدن بمنزلة فرس ، والنفس بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه .

٤ - الأنعام ٧٥

٥ - الحج ٤٦

٦ - الكهف ١٠١

١ - النور ٤٠

٢ - الأعراف ١٩٨

٣ - النجم ١١

الباب الثالث

﴿ المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي ﴾

العقل المكتسب ضربان : أحدهما التجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة . والثاني العلوم الأخروية والمعارف الالهية .

وطريقاهما متنافيان ، وقد ضرب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لذلك ثلاثة أمثال فقال : ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح احدهما إلا بنقصان الأخرى ، وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما وبعد من الآخر ، وكالضرتين إذا أرضيت أحدهما أسخطت الأخرى ، ولذلك يرى قوم أكياساً في تدبير الدنيا بلهاء في تدبير الآخرة ، وقوم أكياساً في أمور الآخرة بلهاء في أمور الدنيا ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » . وقيل لمن نسب بعض الصالحين الى البله أكثر أهل الجنة البله ، ولاختلاف طريقهما قال الحسن رحمه الله : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا شياطين ، ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال لرجل وصف نصرانياً بالعقل : مه إنما العاقل من وجد الله تعالى وعمل بطاعته وقال تعالى حكاية عن أهل النار : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ »^(١) ومن تصور اختلاف الطريقين أعني طريق الدنيا وطريق الآخرة لم تعرض له الشبهة التي

عرضت لقوم قالوا : لو أن هنا حقاً لما جهله الذين لم يلحق شأؤهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات ووضعوا الحكم والسياسات ، وذاك كما انه من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما لا يوجد إلا في الغرب ، أو يظفر سالك طريق الغرب بما لا يوجد إلا في الشرق ، كذلك من المحال أن يظفر سالك معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ »^(١) وبقوله : « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^(٢) الآية .

ولا يكاد يجمع بين معرفة الدنيا والآخرة معاً على التحقيق والتصديق إلا من رشحهم الله تعالى لتهديب الناس في أمر معاشهم ومعادهم جميعاً كالأنبياء وبعض الحكماء ، ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى عسير لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منا نبي إلا أذنب أو هم » .

الباب الرابع

﴿ منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها ﴾

العقل اسم عام لما يكون بالقوة أو بالفعل ، ولما كان غريزياً وما كان مكتسباً .

١ - يونس ٧

٢ - الانعام ٣٧

وهو في اللغة : قيد البعير لثلاثيند ، وسمي هذا الجوهر به تشبيهاً على عاداتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات ، وخص بناء المصدرية لأنه لما كان يستعمل تارة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور ، ومرة للمعقول نحو خلق وأمر ، لكن يتصور منه كونه سبباً لتقييد الانسان به وكونه مقيداً له عن تعاطي ما لا يحمل وكونه معتداً به من بين الحيوان ، والنهي في الأصل : جمع نهية ، أو اسم مفرد نحو جعل وصرده ، أو وصف نحو دليل خنع وسائق حطم ، وجعل اسماً للعقل الذي انتهى من المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات ، ولذلك أحيل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ » (١) وقال : « وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى » (٢) .

والحجر : أصله من الحَجَرُ أي المنع ، وهو اسم لما يلزمه الانسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه ، وعلى ذلك قوله تعالى : « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ » (٣) .

وسمي حِجَى من حجاه أي قطعه ، ومنه الأحجية فكأنه سمي بذلك لكونه قاطعاً للانسان عما يقبح .

١ - السجدة ٢٥

٢ - طه ٥٣

٣ - الفجر ٤

وأما اللب فهو الذي قد خلص من عوارض الشبه وترسخ لاستفادة الحقائق من دون الفرع الى الحواس ، ولذلك علق الله تعالى في كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة نحو قوله : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »^(١) فوصفهم بهداية الله إياهم ، وقد سمي الله تعالى العلم نوراً والجهل ظلمة فقال : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا »^(٢) الآية . وسماه روحاً في قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ «الآية وسماه^(٣) حياة والجهل موتاً بقوله تعالى : «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً»^(٤) الآية . وقوله : «وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ»^(٥) الآية . وسماه ماء بقوله : «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا»^(٦) الآية . والايمان زبدة العقل والعمل ، ولذلك قال الله تعالى في مواضع : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(٧) فعلق به ما علق بهما .

وسمي العقل قلباً وذلك أنه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سمي به ، ولذلك عظم الله تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لأجله قال تعالى : «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»^(٨) وقال : «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ

٥ - فاطر ٢٢
٦ - الرعد ١٧
٧ - الروم ٢٢
٨ - الشعراء ٨٨

١ - الروم ٢٤
٢ - البقرة ٢٥٧
٣ - الشورى ٥١
٤ - الأنعام ١٢١

وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» ^(١) وقال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٢) فنبه أن القلب في الحقيقة يكون قلباً إذا كان متخصصاً بما قد أوجد لأجله وما أوجد لأجله ، هو المعارف الحقيقية وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في البدن مضغة إذا استقامت استقام البدن وإذا أعوجت أعوج البدن » ولما كان أشرف المعارف هو ما يخص به القلب قال الله تعالى : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ عَلَى قَلْبِكَ » ^(٣) فخصه بالذكر .

الباب الخامس

﴿ جلاله العقل وشرف العلم ﴾

العقل حيثما وجد يكون محتشماً ، حتى ان الحيوان إذا رأى إنساناً احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار ، ولذلك تنقاد الابل للراعي ، وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا منهم من كان أوفر عقلاً وأغزر فضلاً فيما هم بصده انقادوا لهم طوعاً ، فالعلماء إذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لأكثرهم علماً وأوفرهم نفساً وأفضلهم عقلاً ، ولا ينكر فضله إلا كل متدنس بالمعاييب متطلب للرياسة حافظ على غرض دنيوي ، قد جعل عقله خادماً لشهوته فلحظه على رياسته ينكر فضل الفاضل ، ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي صلى الله عليه وسلم قصدوه ليقتلوه فما كان إلا وقع طرفهم عليه فرؤي لهم

نور الله تعالى معرباً عنه ، فألقى في قلوبهم منه روعة فهابوه ، فمن مذعن له طائعاً وخبيث لا ينكره بعد ، إلا جاحداً ولهذا المعنى قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تغنيك عن خبره

وقد تقدم أن الانسان لم يتميز عن البهائم إلا بالعقل ، ولم يشرف إلا بالعلم ، ومن شرف العلم أن كل حياة انفكت منه فهو غير معتد بها بل ليست في حكم الموجودة ، فان الحياة الحيوانية لم تحصل ما لم يقارنها الاحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ويتألم بما يخالفه فيهرب منه وذلك أحسن المعارف ، فمقتضى الحياة الإنسانية أنها إذا تعرت من المعارف المختصة بها أن لا يعتد بها ، ولذلك سمي الله تعالى الجاهل ميتاً في غير موضع من كتابه فقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه »^(١) ولأجل أن الحياة تقارن العلم سمي الله تعالى العلم روحاً في قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا »^(٢) وقد ذكرنا أن حاجة الانسان الى العلم أكثر من حاجته الى المال ، لأن العلم نافع لا محالة ونفعه دائم في الدنيا والآخرة ، والمال قد ينفع وقد يضر وإذا نفع فنفعه منقطع ، فمن استفاد علماً ثم ضيعه ، أو تمكن من استفادته فأهمله فقد خسر خساراً مبيناً كما قال تعالى : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا (الى قوله) لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »^(٣) .

الباب السادس

❖ الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة ❖

العلم : إدراك الشيء بحقيقته .

وهو ضربان :

أحدهما : حصول صور المعلومات في النفس .

والثاني : حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود ،
أو نفي شيء عنه هو غير موجود له ، نحو الحكم على زيد بأنه خارج أو
ليس طائراً ، فالأول هو الذي قد يسمى في الشرع ، وفي كلام الحكماء
العقل المستفاد ، وفي النحو المعرفة ، ويتعدى الى مفعول واحد .

والثاني : هو الذي يسمى العلم ويتعدى إلى مفعولين ، ولا
يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث أن القصد إذا قيل : علمت زيداً
منطلقاً إثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد ، واعلم أن العقل
والعلم بقياس أحدهما على الآخر على ثلاثة أوجه : أحدهما : عقل
ليس بعلم وهو العقل الغريزي .

والثاني : علم ليس بعقل : وهو المتعدي الى مفعولين .

والثالث : عقل هو علم ، وعلم هو عقل ، وهو العقل
المستفاد ، والعلم الذي يقال له المعرفة ولم يصح أن يعدي العقل الى

مفعولين فيقال : عقلت زيدا منطلقاً ، كما يقال في علمت لكون العقل موضوعاً للعلم البسيط دون المركب ، وسمي عقلاً من حيث انه مانع لصاحبه أن تقع أفعاله على غير نظام ، وسمي علماً من حيث أنه علامة على الشيء ، وهذا إذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية .

وأما الفرق بين العلم البسيط أعني المتعدي الى مفعول واحد ، وبين المعرفة : هو أن المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وإن لم يدرك ذاته ، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما يدرك ذاته ، ولهذا يقال فلان يعرف الله تعالى ، ولا يقال يعلم الله عز وجل لما كانت معرفته يقال ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته . وأيضاً فالمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط .

والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال : الله تعالى عالم بكذا ، ولا يقال عارف به لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر ،

وأيضاً فالمعرفة تقال فيما يتوصل اليه بتفكير وتدبر ، والعلم قد يقال في ذلك ، وفي غيره ويضاد العرفان الانكار والعلم والجهل .

وأما الدراية : فالمعرفة المدركة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمة وإجالة الخاطر واستعمال الروية ، وأصله من دريت الصيد .

والدرية تقال : لما يتعلم عليه الطعن وللناقة يسيبها الصائد ليأنس الصيد بها فيرمي من ورائها ، والمدري : يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ، ولا يصح أن يوصف بذلك الباري تعالى لأن

معنى الخيل لا يصح عليه ، ولم يرد بذلك سمع فيتبع وقول الشاعر *
لا هم لا أدري وأنت الداري * من تعجرف الاعراب الاجلاف.

وأما الحكمة : فاسم لكل علم حسن وعمل صالح ، وهو
بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري ، وفي العمل أكثر استعمالاً
منه في العلم ، وإن كان العمل لا يكون محكماً من دون العالم به ،
ومنها قيل : أحكم العمل إحكاماً وحكم بكذا حكماً ، والحكمة من
الله تعالى عز وجل إظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة ، ومن العباد
معرفة ذلك بقدر طاقة البشر ، وقد حدت الحكمة بالفاظ مختلفة على
نظرات مختلفة فقول : هي معرفة الأشياء الموجودة بحقائقها ، ويعني
كليات الأشياء ، فأما جزئياتها فلا سبيل للبشر إلى الإحاطة بها ، وهذا
الحد بحسب اعتبارها بالعلم ، وقيل : هي إماتة الشهوات على ما
يجب ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية المراد من
الانسان ، وقيل : هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر ،
وذلك أن يجتهد أن ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم ، وجوده
عن البخل ، وحلمه عن السفه ، وينحو هذا العلم يقرب العبد من
خالقه سبحانه في الدنيا ، ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه ، كنسبة
الأعضاء الى البدن في كونها أبعاضاً لها ، ومن وجه كنسبة الرؤوسين الى
الرئيس في كونها مستولية عليها ، ومن وجه كنسبة الأولاد الى الأم في
كونها مولدة لها ، وهي في تعارف الشرع : اسم للعلوم العقلية أي
المدركة بالعقل ، وقد أفرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب فجعل
الكتاب رسماً لما لا يدرك إلا من جهة النبوات ، والحكمة لما يدرك من
جهة العقل ، وجعلاً منزليين ، وإن كان انزالهما من الله تعالى قد يكونان

مختلفين ، وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الآخر . فقد قيل : لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ، ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب ، وقد قيل الكتاب بمنزلة اليد ، والعقل بمنزلة الميزان ولا تعرف المقادير إلا بهما ، وكذلك عبر عن الحكمة : بالميزان في قوله تعالى : «وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»^(١) ولا يبلغ الحكمة إلا أحد رجلين ، إما مهذب في فهمه مؤمن في فعله ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر ، وإما إلهي يصطفيه الله تعالى فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلهي ، ويلقي اليه مقاليد جوده فيبلغه ذروة السعادة به وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

الباب السابع

﴿ توابع العقل ﴾

العقل المشرق في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة وقد تقدم ذكرهن ، ويحصل عنه أيضاً الذكاء والذهن والفهم والفتنة وجودة الخاطر ، وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير وإصابة الظن والفراسة والزكاة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأي والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة ، فأما الذكاء فالمضاء في الأمر وسرعة القطع بالحق ، وأصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة يدرك ذبحها بحدة السكين ، وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء ، ولكن لما كان أكثر ما يوجد ذلك فيمن

تمت سنه صار يعبر عنه عن تمام السن ، ومنه قيل جري المذكيات
غلاب ، وأما الذهن فقريب من الذكاء ، لكن يقال في إدراك ما وقع
فيه التنازع ،

وأما الفطنة : فسرعة إدراك ما يقصد إشكاله ، ولهذا يكثر في
استنباط الأحاجي والرموز.

وأما الفهم : فمقدمة للعقل فمن لا يعرف معنى الشيء فهما ،
لم يتحققه عقلاً ، وقد يسمى الفهم عقلاً وإن كانت مرتبته دون مرتبة
العقل . ففوة الفهم أن يدرك الأشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ،
ومعنى ذلك أن العقل يعترف أن العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم
يبين ، فيميز كل واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم ؟ وقد يوصف
بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق في لعب الشطرنج ، وكل من
يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم .

وأما الخاطر : فحركة الفهم نحو الشيء ، يقال : خطر الشيء
ببالي ولم يقل خطر بالي بشيء ، فيجوز أن يكون ذلك من المقلوب
كقولهم : عيش ناصب ، وقد قيل في قولهم : عقلت الشيء وأحسست
أنهما أيضاً من المقلوب ، فالشيء هو المؤثر في الحاسة والعقل لاهماً
فيه ،

وأما الوهم : فانقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها من قولهم
حمل وهم ، وطريق وهم ، والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال
فيما لا تقبله النفس ، والوهم لا يقال إلا فيما تقبله النفس ،

وأما الخيال : فنحو الوهم لكن لا يقال فيما له اعتبار بما يكون من

جهة الحاسة ، وفيما له صورة ما ، ومنه سمي الطيف الوارد من جهة المحبوب خيلاً ، والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة ، والطيف لا يقال إلا فيما يكون حال النوم ، ولهذا ينسب الى الخيال لما كان ذلك من جانبه قال الشاعر :

نم فما زارك الخيال ولكنـ

ك بالفكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة : فمعرفة ثابتة تحيى بلا فكر ولا قصد ، فالبديهة في المعرفة كالبديع في الفعل ،

وأما الروية : فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من روى .

وأما الكيس : فهو القدرة على جود استنباط ما هو أصلح في بلوغ الخير ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » ، من حيث أنه لا خير يصل اليه الانسان أفضل مما بعد الموت ، وقول العرب : أكيس من قشه لتصورها بصورة الكيس لأنها ذات كيس في الحقيقة . وكاس في مشيته أي أظهر الكيس برفع إحدى رجله ، وتسميتهم « الغادر » كيسان إما على طريق المجاز ، أو تنبيهاً على أن الغادر بعد ذلك كيساً ، أو لأن كيسان في الأصل اسم لغادر ، ويسمى كل غادر كيسان كتسميتهم كل حداد هالكية .

وأما الخبر : فالمعرفة المتوصل اليها من قولهم : خبرته أي أصبت خبره ، وقيل هو من قولهم ناقة خبرة ، أي غزيرة فكأن الخبر هو غزارة المعرفة ، ويجوز أن يكون قولهم ناقة خبرة أي المخبرة عن

غزارتها كقولهم : ناقة ناجرة ،

وأما الظن : فاصابة المطلوب بضرب من الامارة ، ولما كانت الامارات مترددة بين يقين وشك فتقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يفسر أهل اللغة بها ، فمتى رؤي إلى طرف اليقين أقرب استعمل ان المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ »^(١) وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعُ بِهِمْ »^(٢) ومتى رؤي الى طرف الشك أقرب استعمل معه أن التي للمعدومين من الفعل ، نحو ظننت أن تخرج وإن خرجت . وإنما استعمل الظن بمعنى العلم في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ »^(٣) لأمرين أحدهما تنبيه ان علم أكثر الناس في الدنيا بالإضافة الى علمه به في الآخرة كالظن في جنب العلم .

والثاني : ان العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبين والصديقين المعنيين بقوله : « الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُّمْ لَمْ يَرْتَابُوا »^(٤)

والظن متى كان عن أمانة قوية ، فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد ذم به كما قال تعالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ »^(٥)

وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الانسان وأحواله ، وقد نبه الله تعالى على صدقها

٤ - الحجرات ١٥

٥ - الحجرات ١٢

١ - البقرة ٤٦

٢ - الأعراف ١٧١

٣ - البقرة ٤٦

بقوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ »^(١) وقوله : « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ »^(٢) وقوله : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »^(٣) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للانسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام بل ضرب من الوحي ، وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذي يسمى صاحبه المروع والمحدث وقال عليه الصلاة والسلام : « إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عمر » وقيل في قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ »^(٤) الآية . إنما كان وحياً بالقائه في الروع وذلك للأنبياء كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ »^(٥) .

وقد يكون بالهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام ، ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

والضرب الثاني من الفراسة يكون بصناعة متعلمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل في ذلك كتب من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق

٤ - الشورى ٥١

٥ - الشعراء ١٩٣

١ - الحجر ٧٥

٢ - البقرة ٢٧٣

٣ - محمد ٣٠

بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراصة بنور الرب ، ومن قوي فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي »^(١) كان ممن وصفه بقوله : « أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ »^(٢) وكان ذلك النور شاهداً أصاب فيما حكم به .

ومن الفراصة قوله عليه الصلاة والسلام في المتلاعنين : « إن أمرهما بين لولا حكم الله » .

ومن الفراصة علم الرؤيا ، وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أُرِينَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ »^(٣) وقال : « إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ »^(٤) الآية . وقال في قصة ابراهيم : « يَبْنِي إِلَيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ »^(٥) وقوله : « يَتَأْتٍ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا » والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لايجاد هذه القوة في الانسان فائدة ، والله تعالى يتعالى عن الباطل ، وهي ضربان :

ضرب : وهو الأكثر أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة .

١ - الحجر ٢٩ ص ٧٢	٤ - الأنفال ٤٣
٢ - هود ١٧	٥ - الصافات ١٠٢
٣ - الاسراء ٦٠	٦ - يوسف ٤

وضرب : وهو الأقل صحيح وذلك قسماً :

قسم لا يحتاج الى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر الى مهارة يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، ول يميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا وفيهم من تصح رؤياه ، ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تلقى اليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ، ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطعام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وهذا العلم يحتاج الى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حدقاً فيه ، ورب نزر ألحظ من الحكمة ، وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة ،

وأما الزكاة : فهو ضرب من الفراسة وهي معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم ، والقيافة ضرب من الزكاة لكنها أدق وهي ضربان :

أحدهما : يتتبع أثر الاقدام والاستدلال به على السالكين .

والثاني : الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على نسبته ، وخص بالقيافة من العرب بنو مدلج ، وقيل إن ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم وهي محكوم بها في الشرع ، وقال بعض الحكماء : خص الله بذلك العرّب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثقب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزرورهم صيانة للنسبة النبوية ولأجل حفظه

تعالى نسبهم بذلك قال تعالى : « وَجَعَلْنٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوْا »^(١)
أي ليعرف بعضهم بعضاً بمعرفة أصله .

والكهانة : مختصة بالأمور المستقبلية والعرافة بالأمور الماضية ،
وكان ذلك في العرب كثيراً ، وآخر من وجد وروي عنه الأخبار العجيبة
سطيح وسواد بن قارب ، وقيل : كان وجود ذلك في العرب أحد
أسباب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يخبر به ويحث على
اتباعه ، ونزع ذلك عنهم بعد النبوة ، حتى روي لا كهانة بعد النبوة ،
وقال عليه الصلاة والسلام : « من أتى كاهناً ، أو عرافاً فصدقه بما
أتى به فقد كفر بما أنزل على محمد » . تنبيهاً على انه قد رفع .

وما يجري مجراها التطير : وهو تشاؤم الانسان بشيء يقع تحت
المنظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي . فأما نفارها مما هو
طبيعي في الانسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من
هذا واشتقاقه من الطير وأصله في زجر الطير وما سواه ملحق به قال :
وما أنا ممن يزجر الطير حوله * أصاح غراب أم تعرض طائر

ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية : « قالوا أطيننا بك وبمن
معك قال طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ »^(٢) أي السبب الذي يسعدكم أو يشقيكم
عند الله وقال تعالى : « وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما
طائرهـم عند الله »^(٣) وسمي عمل الانسان الذي يعاقب عليه طائراً
فقال تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَئِرَهُ فِي عُنُقِهِ »^(٤)

٣ - الأعراف ١٣١

٤ - الاسراء ١٣

١ - الحجرات ١٣

٢ - النمل ٤٧

والنظر إجمالة الخاطر نحو المراثي لإدراك البصيرة أيا كانت
فللقلب عين ، كما أن للبدن عيناً فمن صح عين قلبه وأعانه نور الله
اطلع على حقائق الأشياء وأدرك العالم العلوي وهو في الدنيا فيرى ما
لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولكون الاطلاع
عليه قال أمير المؤمنين ، لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

والرأي إجمالة الخاطر في رؤية ما يريده وقد يقال للقضية التي
ثبتت عن الرأي رأي ، والرأي للفكرة كالألة للصانع التي لا يستغنى
عنها ويكون في الأمور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ليكون من جملة
الممكنات فيما يكون إلينا ، فالطبيب لا يحيل رأيه في نفس البرء ، بل
يكون في كيفية الوصول إليه ،

ويحتاج الرأي إلى أربعة أشياء : إثنان من جهة الزمان التقديم
والتأخير ، أحدهما أن يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة
والسلام : « تفكروا في لا إله إلا الله ولا تفكروا في الله » قال تعالى :
« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ »^(١) وقال
تعالى : « يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »^(٢)

وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة ؟ فقال : الفكرة أن
تجعل الغائب حاضراً ، والعبرة أن تجعل الحاضر غائباً .

وأما الذكر فوجود الشيء في القلب ، أو في اللسان وذاك أن
الشيء له أربع وجودات ، وجود في ذاته ، ووجوده في قلب الإنسان ،

١ - الروم ٨

٢ - البقرة ٢١٩

ووجوده في لفظه ، ووجوده في كتابته .

فوجوده في ذاته سبب لوجوده في قلبه ، ووجوده في قلبه سبب لوجوده في نطقه ولوجوده في كتابته ، ويقال للوجودين : أي الوجود في القلب والوجود في اللسان الذكر ، ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن ذكر في القلب ، بل لا يكون ذلك شيئاً.

والذكر بالقلب ضربان : أحدهما : استعادة ما قد استتبته القلب فأعفى عنه نسياناً ، أو غفلة وهذا في الحقيقة هو التذكر ، والثاني : ثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان ولا غفلة وذكر الله تعالى على نحو الأول غير مرتضى عند الأولياء ، وإنما يحمد إذا كان على النحو الثاني .

واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالاجلال ، وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن ، وتارة لنعمة فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر ، فحق المؤمن ألا ينفك أبداً من ذكره على أحد هذه الأوجه وعليه دل قوله تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ »^(١) الآية أي يذكر ربه في كل حال لأن الانسان لا ينفك من هذه الأوجه الثلاثة ان قيل : ما حقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الأعمال ، حتى قيل : كل أمر لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتري؟ قيل : نبه بذلك على أن الأمور كلها يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى ، وإن كل أمر لا

١ - آل عمران ١٩٠

يقصد به ذلك فهو ناقص ، وشرع ذكره باللسان ليكون ذلك سبباً لتذكر فيتحرى بفعله وجه الله تعالى ولا يعمل ما ينافي رضاه ، وعلى ذلك قوله : « وَأَذْكُرُّ رَبَّكَ إِذْ نَسِيتَ »^(١) أي إذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذا ذكر ربك تتذكر أنه مطلع عليك ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وأما الحفظ فالمواظبة على مراعاة الشيء وقلة الغفلة عنه ، ومنه محافظة الحريم حتى قيل للغضب المقتضى لذلك حفيظة ، ويقال لثبات صورة الشيء في القلب الحفظ ، ويقال للقوة الحافظة أيضاً حفظ ، وفلان جيد الحفظ ، أي القوة الحافظة ، والحفظ للنفس من وجه جار مجرى الخزانة للملك يضع فيها الزخائر الى وقت الحاجة ، ومن وجه جار مجرى الكتاب الذي يكتب فيه الشيء فيرجع اليه ليتذكر به ، والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم ، فمنهم من قوى الله تعالى ذلك منه كما جعله لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام فلذلك كان له من الحفظ ما يكفيه ويغنيه عن الاستعانة بالكتابة ولهذا قال الله تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ »^(٢) فضمن أن يحفظ عليه مما جعله فيه من القوة الالهية ، وروي أنه لما نزل قوله تعالى : « وَتَعِيبَا أُذُنَّ وَعِيبَةُ »^(٣) قال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله تعالى عنه : « سألت الله تعالى ان يجعلها أذنك » فلم يسمع بعد ذلك شيئاً إلا وعاه ، ومن الناس من يسرع اليه النسيان ، فما سمعه

١ - الكهف ٢٤

٢ - القيامة ١٦

٣ - الحاقة ١٢

يكون كالحفظ يكتب على بسيط الماء .

وأما البلاغة فاجادة اختبار الألفاظ والإصابة في تأليفها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ، ولا يكون الكلام تام البلاغة ما لم يجمع هذه المعاني ، فإنه إن قبح اللفظ أو قبح التأليف ، أو كان أكثر مما يجب ، أو أقل مما يجب ، أو لم يطابق اللفظ المعنى إما حقيقة أو استعارة رائقة ، أو كان المعنى محالاً أو كذباً خرج الكلام بقدر ما اختل منه عن باب البلاغة . وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب أنظار مختلفة ، فقال بعضهم : البلاغة هي الإيجاز من غير عجز ، والإطناب في غير خطل ، وقيل : ما فهمه العامة ورضيه الخاصة ، وإلى غير ذلك من الأوصاف .

وأما الفصاحة فاشتقاقها من فصح اللبن أي خلص ، وهي الإصابة في اللفظ في الائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى ، فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب فموصوف بالفصاحة صدقاً كان أو كذباً فالبلاغة ترجع إلى اللفظ ، والمعنى والفصاحة إلى اللفظ دون المعنى .

الباب الثامن

﴿ ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية
والمكتسبة وغاية ما يبلغه الانسان ﴾

من أشرف ثمرة العقل : معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف

عن معصيته ، وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام : « العقل ثلاثة أجزاء جزؤ معرفة الله ، وجزؤ طاعة الله ، وجزؤ الصبر عن معصية الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « الايمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وماله العفة ، وثمرته العلم » فمعرفة الله العامة مركوزة في النفس ، وهي معرفة كل أحد انه مفعول وأن له فاعلاً فعله ونقله ، فالأحوال المختلفة وهي المشار إليها بقوله تعالى : « فِطَرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا »^(١) وبقوله : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »^(٢) وبقوله : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »^(٣) الآية . فهذا القدر من المعرفة في نفس كل واحد ويتنبه الغافل إذا نبه عليه فيعرفه ويعرف أن ما هو مسأول لغيره ، فذلك الغير مسأول له ، ومن هذا الوجه قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »^(٤) وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين : « فَإِلَيْهِ يَجْعَرُونَ »^(٥) وقال بعده : « ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ »^(٦)

وأما معرفة الله المكتسبة : فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب أن يثبت له من الصفات وما يجب أن ينفي عنه . وهذه المعرفة هي التي دعت إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال كلهم : قولوا لا إله إلا الله ، ولم يدع أحد الى معرفة الله تعالى ، بل دعا الى توحيده وهذه المعرفة أعني المكتسبة على ثلاثة أضرب .

٤ - لقمان ٢٥

٥ - النحل ٥٣

٦ - النحل ٥٤

١ - الروم ٣٠

٢ - البقرة

٣ - الأعراف ١٧٢

ضرب لا يكاد يدركه إلا نبي وصديق وشهيد ومن دانا هم ،
وذلك المعرفة بالنور الالهي من حيث لا يعتريه شك بوجه كما قال
تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا »^(١)

وضرب يدرك بغلبة الظن ، أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة
باليقين ، كما قال تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ »^(٢) وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات ، وإياه عنى
بقوله : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ »^(٣)

فالأول : يجري مجرى إدراك الشيء من قريب ، ولهذا قال الله
تعالى في وصفهم : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »^(٤)

والثاني : يجري مجرى إدراك الشيء من بعيد وقد تعتريه شبهة
لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ
طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »^(٥)

والثالث : يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد
فلا ينفك من شبهات ، كما أخبر تعالى عن هذه حالته بقوله : « إِنْ
نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ »^(٦) ولأجل معرفة الله تعالى على الحقيقة
حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا

٤ - ق ٣٧
٥ - الأعراف ٢٠١
٦ - الجاثية ٣٢

١ - الحجرات ١٥
٢ - البقرة ٤٦
٣ - يوسف ١٠٦

وهم مشركون»^(١) وقال تعالى : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ
الَّذِينَ »^(٢) وقال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ »^(٣) وقال تعالى : « قُلِ اللَّهَ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَعَبَدُوا مَا شِئْتُمْ
مِنْ دُونِهِ »^(٤) وقال عليه الصلاة والسلام : (من قال لا إله إلا الله
مخلصاً دخل الجنة) .

وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها
وأعراضها المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصنعة فيها وأنها محدثة ،
وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها ، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع
بقائه تعالى ، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه ، وهذا النظر قال أبو بكر
الصاديق رضي الله تعالى عنه :

سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن
معرفته ، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام : (تفكروا في لا إله إلا الله
ولا تتفكروا في ذات الله) .

ولما كانت معرفة كله تصعب على الانسان الواحد لقصور أفهام
بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم جعل
تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أو وجد فيه مثال ما هو
موجود في العالم الكبير ، ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من
كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر الى السفر والليل
والنهار ، فان نشط وتفرغ للتوسط في العلم ، نظر في العالم الكبير

٣ - البينة ٥

٤ - الزمير ١٤

١ - يوسف ١٠٦

٢ - الزمر ١١

الكتاب الكبير الذي هو الملكوت ، ليغزر علمه ويتسع فهمه ، وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه ، ولهذا قال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »^(١) ولشرف متأملي ذلك قال تعالى : « أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ »^(٢) وقال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ »^(٣) الآية . فنبه بمدحهم حيث قالوا : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ »^(٤) انهم عرفوا المقصود بخلقه .

وذلك آخر الأبحاث لأن الأبحاث أربعة :

وبحث عن وجود الشيء بهل هو ؟

وبحث عن جنسه بما هو ؟

وبحث عما يباين به غيره بأي شيء هو ؟

وبحث عن الغرض بلم هو ؟

وهذه الأبحاث يبتني بعضها على بعض ، لا يصح معرفة الثاني إلا بمعرفة الأول ، ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث ، أو قولهم : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا »^(٥) يقتضي انهم عرفوا الأبحاث الأربعة ، والا شهدوا بما لم يتحققوا ، ومن شهد بما لم يتحقق كذب ، وان كان ما شهد على ما شهد به .

٤ - آل عمران ١٩١

٥ - آل عمران ١٩١

١ - الذاريات ٢١

٢ - الأعراف ١٨٥

٣ - آل عمران ١٩١

ألا ترى أن الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا : « إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ »^(١) مع أنه رسوله فدلّت هذه الآية على أن البحث الذي يؤدي الى معرفة حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة البارئ تعالى ، هو من العلوم الشريفة بخلاف قول الصم البكم الذين لم يجعل الله لهم نوراً حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك .

الباب التاسع

﴿ وجوب بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم ﴾

بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الى الناس من الضرورات التي لا بد لهم منها ، وذاك أن جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة ، فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ، ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب ، وفي أي وقت يجب وكم يجب ، فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم ، بعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، لكي إذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزال علتهم ببعثة الأنبياء فقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(٢) .

الباب العاشر

﴿ ما يعرف به صحة النبوة ﴾

لكل نبي آيتان .

احدهما : عقلية يعرفها أولوا البصائر من الشهداء والصالحين
ومن يجري مجراهم .

والثانية : حسية يدركها أولوا الأبصار من العامة ، فالأولى ما
لهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم
المتقدمة عليهم والمستصحبة ، وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على
أولي البصائر كما قال الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :
لو لم يكن فيه آيات مبينة * كانت بداهته تغنيك عن خبره

وذاك أن حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من أكرم تربة
في العالم ، وحيث يكون عقل أربابها أوفر ، ولهذا لم يبعث نبي من
الأطراف التي تضعف عقول أصحابها ولهذا قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ
أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا »^(١) الآية . ونبه بقوله : « ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ
بَعْضٍ »^(٢) أنه جعل النبوة في بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه أشرف ،
ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تتملق من ابتلاها
كما قال تعالى : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي »^(٣) وقال لنبينا صلى الله عليه

٣ - طه ٣٩

١ - آل عمران ٣٣

٢ - آل عمران ٣٤

وسلم : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »^(١) .

ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه إذا كان مخصصاً بنور العقل ، ولذلك قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا »^(٢) الآية وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ، ولا يطلبها كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ، ولهذا لما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضي الله تعالى عنه الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال : (ما أحد عرضت عليه الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعثم فيه) .

وأما الآية الثانية فهي :

المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك يطلبه أحد رجلين :

إما ناقص عن الفرق بين الكلام الالهي ، وبين البشري وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره ، فيحتاج ما يدركه حسه لقصوره عن إدراك ذلك .

وإما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »^(٣) الآية .

(٣) - الأسراء ٩٠

١ - القلم ٤

٢ - الشورى ٥٢

الباب الحادي عشر

﴿ كون العقل والرسول هاديين الخلق الى الحق ﴾

الله عز وجل رسولان الى خلائقه :
أحدهما : من الباطن ، وهو العقل .
والثاني : من الظاهر ، وهو الرسول .

ولا سبيل لأحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كان تلزم الحجة، ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة انبيائه على العقل وأمر أن يفزع اليه في معرفة صحتها ، فالعقل ، قائد والدين مسدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً واجتماعهما كما قال تعالى : « نُورٌ عَلَى نُورٍ »^(١) .

الباب الثاني عشر

﴿ تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية ﴾

المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالبة للصحة ،
والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة ، كما أن

الجسم متى كان مريضاً لم ينتفع بالأغذية ، بل ينظر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »^(١) لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات ، بل صار ذلك ضاراً له مضرة الغذاء للمريض وعلى هذا قوله تعالى : « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا »^(٢) الآيتان ، وأيضاً فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات ، والاعتقاد فيه بمنزلة البذر إن خيراً وإن شراً ، وكلام الله بمنزلة الماء إذا سقى الأرض تختلف تأثيراته ، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ »^(٣) الآية . وقال تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه »^(٤) الآية وأيضاً فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخي على البصر وغشاء على القلب ووقر في الأذن ، والقرآن لا يدرك حقائقه إلا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وأزيل وقره ، ولهذا قال تعالى : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا » إلى قوله : « وقرا »^(٥) .

وأيضاً فالمعقولات كالحياة التي بها الأسماع والابصار ، والقرآن كالمدرک بالبصر والسمع ، فكما أن من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح والسمع والبصر ، كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ » (إلى قوله) : « إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ »

٤ - الأعراف ٥٨

٥ - الإسراء ٤٥ - ٤٦

١ - البقرة ١٠

٢ - التوبة ١٢٤

٣ - الرعد ٤

بِعَايِنَتْنَاهُمْ مُسْلِمُونَ»^(١) يعني آيات السموات والأرض وغيرهما .

الباب الثالث عشر ﴿الايان والاسلام والتقى والبر﴾

الايان : هو الازعان الى الحق على سبيل التصديق له واليقين ، ولهذا وصف الله الايمان والعلم بوصف واحد فقال : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^(٢) وقال : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ»^(٣) ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين ، هذا أصل الايمان ، لكن صار اسماً لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كالإسلام ، وصح أن يطلق على من يظهر ذلك ، وإن لم يتخصص به اعتقاداً أو ثلج صدر ، كاليهودي في أن أصله للمنسوب الى يهود ، والنصراني في أن أصله للمنسوب الى نصران ، وهي قرية . ثم صار اسمين للمتخصصين بالشريعتين ، على أن اشتقاق الايمان لا يمنع من أن يطلق على من يظهره ، فان المؤمن هو من صار ذا أمن ، وبإظهار الشهادتين يأمن الانسان من أن يراق دمه ، أو يباح ماله في الحكم ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (من قال لا إله إلا الله فقد عصم مناه ومانه إلا بحق) وروي (شهادة أن لا إله إلا الله كلمة جعلها الله بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها بلسانه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على الله) وذلك أنه لا يطلع على

٣ - الأنفال ٢

١ - الروم ٥٢ - ٥٣

٢ - فاطر ٢٨

القلوب إلا الخالق تعالى .

والشريعة واردة أن يطلق اسم الايمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ، ولا يتحاشى من إطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافي الايمان ، بخلاف ما ادعته المعتزلة : بانه لا يصح إطلاق المؤمن على الانسان ما لم يختبر في الأصول الخمسة ، ويوقف منه على حقيقة ما عنده .

والاسلام : هو الاستسلام بما يدعوا اليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله ، والملة : القود الى الطاعة ، والدين : الانقياد له ، وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة فيقال : اعتباراً بفعل المدعو في انقياده الى الطاعة والملة من أملت الكتاب فيقال : اعتباراً بفعل الداعي اليها والشارع لها ، ولكونها بالذات واحداً قال تعالى : « دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا »^(١) فابدل الملة من الدين ، والدين أعم من الاسلام ، إذ هو يستعمل في الحق والباطل والاسلام لا يستعمل إلا في الحق ولهذا قال الله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام »^(٢) وقال : « ومن يَبْتَغِ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه »^(٣) والإحسان تحري الحسنة في الايمان والاسلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما قيل له ما الاحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه) والتقوى جعل النفس في وقاية من سخط الله تعالى : (وذلك بقمع الهوى والبر : السعة في علم الحق وفعل الخير مشتق من البر ، أي السعة في الأرض ، وهو المعبر عنه بانسراح الصدر واطمئنان القلب وقال عليه الصلاة والسلام : (البر ما

١ - الأنعام ١٦١ ٢ - آل عمران ١٩ ٣ - آل عمران ٨٥

سكنت اليه نفسك واطمأن به قلبك ، والائتم ما حاك في نفسك وتردد في صدرك) وقال : (البر طمأنينة ، والشر ريبة ومن البر الجود) ولأجله جعل الجود من الإيمان قال الله تعالى : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ»^(١) والاخلاص أن يقصد الانسان بما يفعله وجهه الله تعالى متعرياً عن الالتفات الى غيره ، ولذلك قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »^(٢) ولقلة وجود ذلك قال الله تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٣) ولما كان الايمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل الجوارح ، والتقوى بقمع الهوى قال صلى الله عليه وسلم : (الاسلام علانية والايمان في القلب والتقوى ههنا) وأشار الى صدره ، لما كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب ، ثم قال : « ولا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه » وقال : (الايمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فان أبى قائدها لم يستقيم سائقها ، وان أبى سائقها لم تطع قائدها) ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة : « أعدت للمتقين »^(٤) وقال في موضع آخر : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا »^(٥) وقال : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »^(٦) الآية .

١ - الأنعام ١٢٥

٢ - البنية ٥

٣ - الحديد ٢١

٤ - البقرة ١١٢

٥ - يوسف ١٠٦

الباب الرابع عشر ﴿ في الايمان ﴾

اختلف في الايمان :

هل هو الاعتقاد المجرد ؟ أم الاعتقاد والعمل معاً ؟ ،
واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم ، فمن قال : هو الاعتقاد المجرد ،
فنظر منه الى اشتقاق اللفظ ، والى انه قد فصل بينهما في عامة القرآن
فعطف بالعمل عليه كقوله تعالى : « الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ »^(١) ولأن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بينهما في خبر
جبريل عليه السلام حين سأله عن الاسلام والايمان ؟ ففسر الأول
بالأعمال ، والثاني بالاعتقاد .

ومن قال : هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه الصلاة والسلام :
(الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان) وكذلك
اختلف أهل يكون في الايمان زيادة ونقصان ! فقال قوم : يكون ذلك
فيه لقوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيْمَانُهُمْ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »^(٢)
وقوله تعالى : « وَإِذَا نُفِيتْ عَلَيْهِمُ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا »^(٣) وقوله :
لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ »^(٤)

٣ - الأنفال ٢

٤ - الفتح ٤

١ - الشورى ٢٢

٢ - التوبة ١٢٤

ومن خالفهم : يقول الشيء إنما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبته ضده عليه قالوا : والايان لا يحصل إلا بعد الغلبة على الكفر ، فلا يضامه حتى يقال انه يغلب عليه .

وكذلك اختلفوا في جواز إطلاق اسم الإيمان على من أقر بالشهادتين ، فقال بعضهم : يجوز ذلك نظراً منه الى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « في الجارية التي سأها عن الله ، فأشارت إلى السماء ، وعن النبوة فأشارت إليه صلى الله عليه وسلم فقال : (اعتقها فانها مؤمنة) ، ولأن الايمان ليس بذي منزلة واحدة .

ومن قال لا يجوز ، فنظر منه الى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »^(١) لما روي عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : (من قال انا مؤمن فهو فاسق ، ومن قال انا عالم فهو جاهل) . إن قيل ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) قيل : الايمان ذو منازل ، كما وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله : (إنما يكون الانسان مؤمناً بلا مشنوية إذا استوعب منازلَه فتعري من جميع الشرور ، وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر) ومتى انخرم بعض ذلك خرج عما هو ، كقولهم : عشرة في كونه إسماً لعدد مخصوص ، إذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه .

ومن شرط الايمان الكامل أن لا يكون زانياً ولا سارقاً .

الباب الخامس عشر ﴿ في أنواع الجهل ﴾

الانسان في الجهل على أربعة منازل :

الأول : من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً ، وأمره في إرشاده سهل إذا كان طبعاً ، فانه كلوح أبيض لم يشغله نقش ، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر ، ويقال له باعتبار العلم النظري غفل ، وباعتبار العلم العملي غمر ، ويقال له سليم الصدر .

والثاني : معتقد لرأي فاسد ، لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به ، فاستنزاه عنه سهل وإن كان أصعب من الأول ، فانه كلوح يحتاج الى حذف وكتابة ، وكأرض تحتاج الى قلع وزراعة ويقال له : غاو وضال ،

والثالث : معتقد لرأي فاسد قدّر أنه قد تراءت له صحته فركن اليه بجهله وضعف بصيرته ، فهو من وصفه الله تعالى بقوله : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »^(١) لا سبيل الى تنبيهه وتهذيبه كما قيل لحكيم يعظ شيخاً جاهلاً : ما تصنع ؟ فقال : اغسل مسحاً إن ابيض .

والرابع : معتقد اعتقاداً فاسداً عرف فسادَه وتمكن من معرفته ،

لكنه اكتسب ذنية لرأسه ، وكرسياً لرياسته فهو محامي عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ، ويذم أهل العلم ليجر الى نفسه الخلق ، ويقال له : فاسق ومنافق ، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ»^(١) وقوله تعالى : «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»^(٢) فبهِ الله تعالى انهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه ، لكن يستكبرون عن إلتزام الحق ، وذلك حال ابليس فيادعي اليه من السجود لآدم عليه السلام .

والجنون : هو عارض يغمر العقل ، والحمق : قلة التنبه لطريق الحق ، وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضاً ، وقد عظم الحق ما لم يعظم الجنون وقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به * إلا الحماسة أعيت من يداويها

وقد حكي حكاية وهي وإن لم تصح فنافع ذكرها ، وهي ان عيسى عليه السلام أتى بأحمق ليداويه فقال : أعياني مداواة الأحمق ، ولم يعييني مداواة الأكهم والأبرص ، ومما يفرق بينهما :

ان المجنون يكون غرضه الذي يريده ويرومه فاسداً وسلوكه اليه خطأ ، ولهذا يعرف المجنون اذا رؤي بارادته قبل سلوكه الى مراده ، والأحمق لا يعرف بمراده بل بسلوكه ، ولهذا متى صح إرادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيراً من فلتات صوابه ، والأحمق لا يكاد

١ - آل عمران ٥

٢ - يونس ٢٢

يصيب في شيء من مسالكه .

وأما البله : فقلة التنبه في الأمور ويضاده الكيس ، وقد تقدم
ان البله والكيس يقالان تارة باعتبار الأمور الأخروية ، فمن كان في
أحدهما كيساً كان في الأخرى أبله ، وقال أبو بكر رضي الله تعالى
عنه : أكيس الكيس التقى ، وأحق الحمق الفجور

وأما الرقيع : فالذي يلصق بقلبه كل محال كأنه لصق بذلك .

والأرعن : الذي يأتي بما يخرج عن الصواب تشبهاً برعن الجبل
وهو الحيد منه ،

والأحمق : الناقص العقل من قولهم انحمقت السوق ، أي
نقصت ،

والغمارة : قلة التجربة في الأمور العملية مع تخيل سليم ، وقد
يكون الإنسان غمراً في شيء غير غمر في غيره ،

الحذق : يقال في الجاهل بالأمور العملية ، وذلك بأن يفعل
أكثر مما يجب ، أو أقل على غير النظام المحمود ، وفساد كل عمل لا
يعدو هذه الوجوه الثلاثة ، ويضاده الحذق .

والبغي : ارتكاب الهوى وترك ما يقتضيه الحق والعقل .

والضلال : ان يقصد لاعتقاد الحق ، أو قول الصدق ، أو فعل
الجميل ، فظن لسوء تصوره فيما كان باطلاً انه حق فاعتقده ، أو فيما كان
كذباً انه صدق فقال ، أو فيما كان قبيحاً انه جميل ففعله ، والجهل عام
في ذلك كله ،

والخب : استعمال الدهاء في الأمور الدنيوية صغیرها وكبیرها :
والجربة مثله ، لكن يقال فيما يقتضي الأمور الدينية ، والدهاء لكن
يقال في الأمور العظام إذ أدرك غاياتها ولهذا قالوا : الدهاء في الاسلام
أربعة ، فذكروا المتوجهين في الحالات الدنيوية الذين بلغوا بها أموراً
كباراً ، ومن الجهل الكفر ، وهو عناد الانسان للحق على سبيل
التكذيب له لا بيقين ، وأصله من سنن ما جعل الله للانسان بفطرته
وصبغته من المعارف بما يستعمله ويتحرره من عناد الحق ، ومن ترك
النظر والاخلال تزكية النفس المعني بقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »^(١)

الباب السادس عشر

﴿ في قول النبي صلى الله عليه وسلم الايان بضع وسبعون باباً ﴾

ثبت الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : (الايمان
بضع وسبعون باباً ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة
الأذى عن الطريق) وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها ، علم ان
الايان الواجب هو اثنان وسبعون درجة ، لا يصح أن يكون أكثر
منها. ولا أقل ، ولا يوجد من الايمان ما هو خارج عنها بوجه صادق ،
وانه عليه الصلاة والسلام فيما يورده كما وصفه عز وجل بقوله : « وَمَا

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝^(١).

وبيان ذلك ان الايمان شيثان : اعتقاد وأعمال .

والاعتقاد على ثلاث منازل ، يقيني : لا يعتريه شبهة ، كما قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا »^(٢)

وظني : وهو ما كان عن اماره قوية ، وأعني بالظن ههنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »^(٣) .

وتقليدي : وذلك ما يعتقد عن رأي أهل البصائر ، كما وصفه تعالى بقوله : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ »^(٤) .

والأعمال ثلاثة : عمارة الأرض المعنية بقوله تعالى : « وَاسْتَعْمَرُوا فِيهَا »^(٥)

وعبادته المعنية بقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »^(٦) وخلافته المعنية بقوله : « وَيَسْتَخْلِفُكَ فِي الْأَرْضِ »^(٧) وقوله : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »^(٨) وذلك بتحري مكارم الشريعة فهذه ستة ، وكل واحد من هذه اما يتحراه الانسان عن رغبة

٥ - هود ٦١
٦ - الذاريات ٥٦
٧ - الأعراف ١٢
٨ - البقرة ٣٠

١ - النجم ٣
٢ - الحجرات ١٥
٣ - البقرة ٤٦
٤ - النساء ١٣

أو رهبة ، كما قال : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »^(١) أو يتحرراه عن إخلاص بطوع واختصاص نفس كما قال تعالى : « وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ »^(٢) فهذه اثنتا عشرة منزلة ، وكل واحدة من هذه إما أن يكون الانسان في مبدئه ، أو في وسطه ، أو في منتهاه ، لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الانسان فيه من هذه الأحوال الثلاث ، ولهذا قال الله تعالى في الفضيلة : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمِعُوا »^(٣) الآية . وقال في الرذيلة : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا كُفْرًا »^(٤) الآية . فجعل منازل الايمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى ، فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة بستة وثلاثين . وكل واحد من هذه الستة والثلاثين ، اما أن يتوصل اليه من طريق الاجتناء ، أو من طريق الهداية ،

فالاجنباء : للأنبياء ومن يليهم من الأولياء ، وهو إيثار الله تعالى بعض عباده بفيض إلهي تأتيمهم الحكمة بلا سعي منهم وعلى هذا قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ »^(٥) وقوله : « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ »^(٦) .

والاهتداء : للعلماء والحكماء ، وهو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعية وجهدة الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة ، وإياهما عنى بقوله تعالى : « اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

٤ - النساء ١٣٧

٥ - يوسف ٦

٦ - آل عمران ١٧٩

١ - الأنبياء ٩٠

٢ - النساء ١٤٦

٣ - المائدة ٩٣

إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ»^(١) وقوله : « وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا »^(٢) فهذه اثنتان وسبعون درجة لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها ، وكل ما ورد من الأخبار فليس بخارج منها ، والله الموفق .

فما هو من جملة العبادة قوله عليه الصلاة والسلام : (الوضوء شطر الايمان) وقوله : (الايمان : الصلاة من فرغ لها قلبه وأقامها بحدودها ووقتها وسنتها) ،

ومما هو من مكارم الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام : (الحياء من الايمان) . وقال : (لا يجتمع ايمان وشح في قلب عبد) ، وقوله : (ثلاث من جمعهن جمع الايمان : الانفاق من الاقتار ، وانصاف المؤمن من نفسه ، وبذل السلام) . وقوله عليه الصلاة والسلام : أكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وألطفهم بأهله) . وقوله لأناس من أصحابه : (ما أيمانكم ؟ قالوا : الصبر على البلاء ونشكر في الرخاء ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : (مؤمنون ورب الكعبة) .

الباب السابع عشر

﴿ كون العلم مركزاً في نفوس الناس ﴾

الانسان معدن الحكمة والعلوم ، وهي مركوزة فيها مجعولة

١ - الشورى ١٣

٢ - مريم ٥١

بالفطرة لها وبالقوة كالنار في الحجر ، والنخل في النواة ، والذهب في
الحجارة ، وكالماء تحت الأرض ، لكن لا يوصل اليه إلا بدلو ورشاء .

ومنه ما هو كامن يحتاج في استنباطه الى حفر وتعب شديد ، فان
عني به أدرك وإلا بقي غير منتفع به ، كذا العلم في نفوس البشر منه ما
يوجد من غير تعلم بشري ، وذلك كحال الأنبياء ، فانهم تفيض عليهم
المعارف من جهة الملا الأعلى .

ومنه ما يوجد بأدنى تعلم ، ومنه ما يصعب وجوده كحال عوام
الناس ، ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ
رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ »^(١) الآية . فأقروا
أن الله هو الذي يربهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية فهو
إقرار نفوسهم كلهم بما ركن في عقولهم ، فأما الاقرار باللسان فلم
يحصل من كلهم ، وكذا المعنى بقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ »^(٢) أي لئن اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم
تنطق بذلك ، وعلى ذلك قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا »^(٣)
الآية . فبين ان الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه أي
خلقهم عالمين به . فان المعاندين وإن قصدوا تبديله وإزالة الناس عنه
لم يقدرُوا عليه وعلى ذلك قوله تعالى : « صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
صِبْغَةً »^(٤) وقال فيمن قويت في قلوبهم الفطرة والصبغة : « أُولَئِكَ

٣ - الروم ٣٠

٤ - البقرة ١٣٨

١ - الأعراف ١٧٢

٢ - الزخرف ٨٧

كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ»^(١) فسمى ذلك كتاباً وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » . وهذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان : ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ، ولذلك قال في غير موضع : «لعلهم يذكرون»^(٢) «وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ»^(٣)

وضرب أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا كما قال : «وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ»^(٤) فهم في الجهالة يتسكعون ، وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله : «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ»^(٥) وقال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ »^(٦) أي يسرنا القرآن ليكون سبباً أن تتوصلوا به الى تذكر ما سبق من عهدكم ،

والتذكر على ضرب : الأول : أن يكون باللسان عن صورة ما حصل في القلب . الثاني : أن يكون في القلب كصورة حصلت عن شيء معهود إما من البصر ، أو من البصيرة أو غيره من المشاعر .

والثالث : أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة في الانسان وهو المشار اليه بهذه الآيات ، ومن هذا الوجه قال الحكماء : التعليم ليس يجلب اللسان شيئاً من خارج في الحقيقة ، وإنما يكشف الغطاء عما

٤ - الصافات ١٣

٥ - المائدة ٧

٦ - القمر

١ - المجادلة ٢٢

٢ - البقرة ٢٢١

٣ - ابراهيم ٥٢

حصل في النفس فيبرزه بخلاجه ، فمثله كمثل الحافر المستنبت الماء من تحت الأرض ، وكالصيقل الذي يبرز الجلاء في المرأة ، وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله .

الباب الثامن عشر ﴿ حصر أنواع المعلومات ﴾

أنواع المعلوم ثلاثة أنواع : نوع يتعلق باللفظ ، ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ، ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ ،

أما المتعلق باللفظ : فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعاني وذلك ضربان :

أحدهما : حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة ،

والثاني : حكم لواحق الألفاظ ، وذلك شيان :

شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف و شيء يختص به النظم وهو علم العروض ، وعلم القوافي .

وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب : علم البراهين ، وعلم الجدل ، وعلم الخطابة ، وعلم البلاغة ، وعلم الشعر ، وأما المتعلق بالمعنى فضربان : علمي وعملي ، فالعلمي : ما قصد به أن يعلم فقط ، وهو معرفة البارئ تعالى ، ومعرفة النبوة ، ومعرفة الملائكة ، ومعرفة يوم القيامة ، ومعرفة العقل ، ومعرفة النفس

ومعرفة مبادئ الأمور ، ومعرفة الأركان ، ومعرفة الآثار العلوية من
الفلك والنيرين والنجوم ، ومعرفة طبائع النبات ، ويقال له علم
الفلاحة ، ومعرفة طبائع الحيوانات ، ومعرفة طبائع الانسان ، ويقال
له علم الطب .

وأما العملي : فهو ما يجب أن يعلم ، ثم يعمل به فيسمى تارة
السنن والسياسيات ، وتارة الشريعة ، وتارة أحكام الشرع ومكارمه ،
وذلك حكم العبادات ، وحكم المعاملات ، وحكم المطاعم ، وحكم
المناخ ، وحكم المزاج ،

والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب :

الأول : المستفاد من بديهية العقل ومصادمة الحس ، وذلك لكل
من لم يكن مفقود الآلة ، وإن اختلفت أحوالهم في ذلك .

الثاني : المستفاد من جهة النظر إما بمقدمات عقلية ، أو
بمقدمات محسوسة .

الثالث : المستفاد من خبر الناس ، أما بسماع من أفواههم ، أو
بالقراءة في كتبهم ولا يكون الخبر علما إلا ما كانت المظنة عن خبره
مرتفعة .

والرابع : ما كان عن الوحي إما بلسان ملك مرثي ، كما قال
تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ »^(١) وإما بسماع كلام من غير

مصادفة عين ، كما سمع موسى عليه السلام وإما بإلقاء في الروع في
اليقظة كما قال عليه الصلاة والسلام : (إن يكن في هذه الأمة محدث
فهو عمر) ، وإما بالنام ، وهو المعني بقوله : « الرؤيا الصالحة جزء من
سنة وأربعين جزءاً من النبوة ، وينطوي على ذلك قوله تعالى : « وَمَا
كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِيَ بِلَاذُنِهِ مَا يَشَاءُ » (١)

الباب التاسع عشر

﴿ ما يعرف به فضيلة العلوم ﴾

فضيلة العلم تعرف بشيئين : أحدهما بشرف ثمرته ، والآخر
بوثاقة دلالاته ، وذلك كشرف علم الدين على علم الطب ، فإن ثمرة
علم الدين الوصول : الى الحياة الأبدية ، وثمره علم الطب :
الوصول الى الحياة الدنيوية ، وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحي ،
والطب أكثر أصوله من التجارب ، ورب علم يوفي على غيره بأحد
الوجهين ، وذلك الغير يوفي عليه بالوجه الآخر ، كالطب مع
الحساب ، فللطب شرف الثمرة ، إذ هو يفيد صحة البدن ،
وللحساب وثاقة دلالة إذا كان العلم به ضرورياً غير مفتقر الى التجربة
وليس يجب أن يحكم بفساد علم لخطأ وقع من أربابه كصنيع العامة إذا
وجدوا من أخطأ في مسألة حكموا حكمه ، وعلى صناعته بالفساد ،

واذا رؤا من أصاب في مسألة حكموا على صناعته بالصحة ، وذلك عاداتهم في الطب والتنجيم فيحكمون على الصناعة بالصنائع ، خلاف ما قال أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه : يا حار الحق ملبوس عليك الحق ، لا يُعرف بالرجال إعرف الحق تعرف أهله ، وليس يدرون ان الصناعة مبنية على شيء روحاني ، والمتعاطي لها يباشرها بجسم وطبع يضامها العجز خليق بوقوع الخطأ منه ، ثم الانسان قد يتحل ما لا يحسنه ويتذرع بدعوى ما لم تجز آله ، ثم كثير ممن يتخصص بصناعة ، يدعى لصناعته ما ليس من طبعها ككثير من المنجمين المدعين ما ليس في التنجيم ، فاذا لا عبرة بدعاوى الناس .

الباب العشرون

﴿ استحسان معرفة أنواع العلوم ﴾

حق الانسان أن لا يترك شيئاً من العلوم أمكنه النظر فيه ، واتسع العمر له ، إلا ويخبر بشمه عرفه ، وبذوقه طيبه ، ثم ان ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فيها ونعمت ، والا لم يبصر لجهله بمحلله ولغباوته عن منفعته الا معاديا له بطبعه .

فمن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فمن جهل شيئاً عاداه ، والناس أعداء ما جهلوا ، بل قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ^(١) وحكي عن

بعض الفضلاء انه رؤي بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة فقليل له في ذلك ، فقال : وجدته علماً نافعاً فكرهت أن أكون لجهلي به معادياً له . ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم ، بل يجعل لكل حظه الذي يستحقه ومنزله الذي يستوجه ، ويشكر من هداه لفهمه وصار سبباً لعلمه ، فقد حكي عن بعض الحكماء أنه قال : يجب أن نشكر آبائنا الذين ولدوا لنا الشكوك ، إذ كانوا سبباً لما حرك خواطرنا لطلب العلم فضلاً عن شكر من أفادنا طرفاً من العلم ، ولولا إمكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح أخراهم . فمن تأمل حكمة الله تعالى في أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين ركباً على وجه يتوافى حدهما عن نمط واحد للقرض ، أكثر تعظيم الله تعالى وشكره ويقول : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »^(١) .

الباب الحادي والعشرون

﴿ معادة بعض الناس لبعض العلوم ﴾

العلم طريق الله تعالى ذو منازل ، قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والشغور في طريق الحج والغزو ، فمن منازل معرفته التي عليها مبنى الشرع ، ثم حفظ كلام رب العزة ، ثم سماع الحديث ، ثم الفقه ، ثم علم الأخلاق والورع ، ثم علم المعاملات ، وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين

والأدلة ولهذا قال : هم درجات عند الله وقال : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » ^(١) وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثوابا على قدر علمه ، لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته ، وشره في مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه يصير لأجل تنفيق سلعته صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائبا له ، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلوم دون الغاية عائبا لما فوقه ، وصارفاً عنه من رame ، فان قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل ، أو ينفر الناس عنه فعل ، فهو ممن قال الله تعالى فيهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » ^(٢) وما أرى من هذا صنيعه إلا من وصفهم الله تعالى بقوله : « الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » ^(٣) الآية . وذكر الترمذي هذه المسألة فقال : اذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكر الله تعالى بقوله : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ^(٤) الآية . فما الظن بما يستحق من العقوبة من يقطع الطريق على المسافرين الى الله تعالى ، وقد حكي عن عيسى عليه السلام أنه قال : يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ، وتدعوا غيركم يدخلها ، مثلكم كمثل الدفلى زهره حسن ، وثمره يقتل من أكله .

٣ - ابراهيم ٣

٤ - المائدة ٣٣

١ - المجادلة ١١

٢ - فصلت ٢٦

الباب الثاني والعشرون

﴿ الحث على تناول البلغة ﴾

من كل علم والاقتصار عليه ﴿

من كان قصده الوصول الى جوار الله ، فليتوجه نحوه ، كما قال تعالى : « ففروا الى الله » وكما أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : (سافروا تغثموا) فحقه أن يجعل العلوم كزاد موضوع في منازل السفر فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة ، فلا يعرج على نقيضه واستفراغ ما فيه ، فيقضي الانسان نوعاً واحداً من العلوم على الاستقصاء يستفرغ فيه عمراً ، بل أعماراً ، ثم لا يدرك قعره ولا يعبر غوره ، ثم نبهنا الباري تعالى على أن نفعل ذلك بقوله : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ »^(١) الآية . وقال الامام علي كرم الله وجهه : العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه وقال الشاعر :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم * في العين فضل ولكن ناظر العين

وقيل * حل طبعك بالعيون والنظر * فالشجرة لا يشينها قلة الحمل اذا كانت ثمرتها نافعة ، ويجب أن لا يخوض الانسان في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بلغته ويقضي منه حاجته ، فازدحام العلم في السمع مضلة للفهم ، وعليه قوله تعالى : « الَّذِينَ

«اتَّبِعْنَهُمْ أَكْتَبَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»^(١) أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً ، ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب ، وكثير من الناس نكلوا الوصول بتركهم الأصول ، وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحرراه التبليغ به الى ما فوقه حتى يبلغ به النهاية ، والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والمصدوقة ، فالعلوم كلها خدم لها وهي حرة ، وروي أنه رؤي صورة حكيمين من الحكماء في بعض مساجدهم وفي يد أحدهما رقعة فيها : ان أحسنت كل شيء فلا تظنن انك أحسنت شيئاً ، حتى تعرف الله ، وتعلم انه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفي يد الآخر: كنت قبل أن عرفت الله تعالى أشرب وأظمأ ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب ، بل قد قال الله تعالى ما قد أشار به الى ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم : « قل الله ثم ذرهم »^(٢) أي أعرفه حق المعرفة ولم يقصد بذلك ان يقول ذلك قولاً باللسان اللحمي فذلك قليل العناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قال عليه الصلاة والسلام : (من قال لا إله الا الله مخلصاً دخل الجنة) .

ويجب أن لا يتعرى علمه عن مراعاة العمل فيه بتبلغ ألا ترى انه ما خلى ذكر الايمان في عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »^(٣) والى ذلك أشار بقوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »^(٤) وقيل كثرة العلم من غير العمل مادة للذنوب ، وقيل العلم أس ، والعمل بناء والأس بلا

٣ - الكهف ١٠٧

٤ - فاطر ١٠

١ - البقرة ١٢١

٢ - الأنعام ٩١

بناء باطل وقال رجل لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل يا هذا اذا
أفنت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل ؟ وقال الشاعر ما يصلح أن
يكون اشارة الى هذا المعنى :
فعلام ان لم أشف نفسا حرة * يا صاحبي أجيد حمل سلاحي

الباب الثالث والعشرون

﴿ أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته ﴾

كما أن للانسان في حال مقتنياته أربعة أحوال : حال استفادة
فيكون مكتسباً .

وحال ادخار فيكون لما اكتسبه ، ويكون به غنياً عن المسئلة .
وحال انفاق ، فيصير به متنفعاً ،
وحال افادته غيره ، فيصير به سخيا ، كذا له أيضا في العلم
أربعة أحوال :

حال استفادة ، وحال تسخير تحصيل ، وحال استبصار ، وحال
تبصر وتعليم ، ومن أصاب مالا فانتفع به ونفع مستحقه كان
كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة ، والمسك الذي يطيب الناس وهو
طيب ، وهذا أشرف المنازل ، ثم بعده من استفاد علماً فاستبصر به ،
فاما من أفاد علمه غيره ولم ينتفع هو به فكالدفتريفيد غيره الحكمة
وهو عادمه ، وكالمسن يحد ولا يقطع ، وكالمغزل يكسو ولا يكتسى ،
وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضيء لغيرها ، ومن استفاد علماً ولم

ينتفع هو به ولا نفع غيره فانه :
كالنخل يشرع شوكاً لا يذود به * عن حمله كف جان وهو متتهب

الباب الرابع والعشرون ﴿ ما يجب على المتعلم أن يتحراه ﴾

حق المترشح لتعليم الحقائق أن يراعي ثلاثة أحوال .

الأول : أن يطهر نفسه من ردىء الأخلاق تطهر الأرض للبذر
من خبائث النبات ، فقد تقدم أن الطاهر لا يسكن إلا بيتاً طاهراً ، وان
الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب .

والثاني : أن يقلل من الأشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم
الحقيقية .

فما صاحب التطواف يعمر منها * وربعا اذا لم يخل ربعا ومنها
وقد قال الله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ »^(١)
والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه ، فينشفه الجو وتشربه
الأرض فلا يقع به نفع ، واذا جمع بلغ المزرع فانتفع به .

والثالث : أن لا يتكبر على معلمه ولا على العلم ، فالعلم
خراب للمتعالي كالسيل خراب للمكان العالي ، ولهذا قيل : العلم لا
يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فان أعطيته كلك ، فانك من اعطائه

اياك بعضه على خطر ، وكأنما اياه عنى من قال :

خدم العلى فخدمته وهي التي * لا تخدم الأقوام ما لم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً
فتلقاه بالقبول لم ينتفع به فحقه أن يضرع له كما قال تعالى : « لِمَنْ
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » ^(١) أي لمن له بنفسه علم
يستغنى به أو تذلل لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم ، وقال
بعض العلماء في قوله عليه الصلاة والسلام : (اليد العليا خير من اليد
السفلى) . إشارة الى فضل المعلم على المتعلم ، وفي تبين فضل المعلم
حث للمتعلم كالانقياد له ، وكما أن حق المريض أن يكل إلى الطبيب
الناصح الذي وقف على دائه ليطلب الطبيب دواءه وغذائه فانه إن
تشهى لم يتشبه إلا ما فيه دأؤه ، ولم يختر ما فيه شفاؤه

فمن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

كذا من حق المتعلم اذا وجد معلماً ناصحاً أن ياتمر له ، ولا يتأمر
عليه ، ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه وكفى على ذلك تنبيهاً ما حكى
الله عن العبد الصالح أنه قال لموسى عليه وعلى جميع الأنبياء السلام
حيث قال : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا فَقَالَ لَا
تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » ^(٢) فنهاه عن مراجعته
وليس ذلك نهياً عما حث الله تعالى عليه في قوله : « فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ
إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ^(٣) وذلك لأن النهي انما هو نهي عن نوع العلم

٣ - النحل ٤٣ ، ٧ الأنبياء

١ - ق ٣٧

٢ - الكهف ٦٦

الذي لم يبلغ منزلته بعد ، والحث إنما هو عن سؤال تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي هو بصدد تعلمه . وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغي الى الاختلافات المشككة ، والشبه الملتبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لثلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيؤدي ذلك به الى الارتداد ، ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوى في الاسلام عن مخالطة الكفار فقال : « يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا »^(١) وقال تعالى : « وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ »^(٢) الآية . ولأجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع لثلا يغووهم ، فالعامي إذا خلا بأهل البدع ، فكالشاة اذا خلت بالسبع ، وقال بعض الحكماء : إنما حرم الله تعالى في الابتداء لحم الخنزير ، لأنه أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككوهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى ، فحرم على المسلمين ذلك إذ هو معظم مأكولاتهم ، وعظم الأمر في تناوله ومسه ليتنزه المسلمون عن الاجتماع معهم في المأكلة والأنس ، وقال عليه الصلاة والسلام في المؤمن والكافر : لا تتوارى ناراها لثلا ذلك ، فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته إياهم فانه جار مجرى سلطان ذي أجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيثما توجه ، ولهذا جوز له الاستماع للشبه بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجادلهم ويجاهدهم ويدافعهم ، فالعالم أفضل المجاهدين ، فالجهاد ، جهادان : جهاد بالبنان ، وجهاد بالبيان ، ولما تقدم سمي الله تعالى الحجة سلطاناً في غير

١ - آل عمران ١١٨

٢ - ٧٧

موضع من كتابه العزيز كقوله حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام:
«إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ»^(١).

الباب الخامس والعشرون

﴿ ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه ﴾

حق المعلم أن يجري متعلميه منه مجرى بنيه فانه في الحقيقة أشرف من الأبوين ، كما قال الاسكندر وقد سئل عنه أ معلمك أكرم عليك أم أبوك؟ قال: بل معلمي لأنه سبب حياتي الباقية ، والدي سبب حياتي الفانية ، وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (انما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم) ، فحق معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم إذ هو في إرشاد الناس خليفته فيشفق عليهم إشفاقه ويتحنن عليهم تحننه كما قال تعالى في وصفه عليه الصلاة والسلام : « حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »^(٢) وأي عالم لم يكن له من يفيد العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجوداً وان فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين: العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة ، وقال بعض الحكماء في قوله تعالى: « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ »^(٣) انه سأل نسله يورثه علمه ، لا من يورثه ماله ، فاعراض

٣ - مريم ٦

١ - الدخان ١٩

٢ - التوبة ١٢٨

الدنيا أهون عند الأنبياء من ان يشفقوا عليها وكذا قوله: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ»^(١) أي خفت أن لا يرعوا العلم ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (العلماء ورثة الأنبياء) وكما أن حق أولاد الأب الواحد أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا ، كذلك من حق بني العلم الواحد ، بل الدين الواحد أن يكونوا كذلك ، فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة ، ولذلك قال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»^(٢) وقال: «الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^(٣) وحق العالم أن يصرف من يريد إرشاده من الرذيلة الى الفضيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب ، والتعريض أبلغ من التصريح لوجوه:

أحدهما: أن النفس الفاضلة لملها إلى استنباط المعاني تميل الى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر ، ولذلك قيل: رب تعريض أبلغ من تصريح .

والثاني: ان التعريض لا تنتهك به سجوف الهيبة ، ولا يرتفع به ستر الحشمة .

والثالث: أن ليس للتصريح إلا وجه واحد وللتعريض وجوه فمن هذا الوجه يكون أبلغ ، ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية للشواب والعقاب نحو قول الله تعالى: « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقَفَتْهُ أَبُوُّهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ »^(٤) الآية .

٣ - الزخرف ٦٧

٤ - الزمر ٧٣

١ - مريم ٥

٢ - الحجرات ١٠

والرابع : ان للتعريض عبارات مختلفة فيمكن ايراده على وجوه مختلفة والتصريح ليس له إلا عبارة واحدة ، فلا يمكن إيراده الا على وجه واحد .

والخامس : ان صريح النهي داع الى الاغراء ، ولذلك قيل اللوم إغراء وقال :

دع اللوم ان اللوم يغري وإنما * أراد صلاحاً من يلوم فأفسدا وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه ، قالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء) ، وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء في نهى الله تعالى إياهما عن أكل الشجرة ، ومن حق المعلم مع من يفيد العلم ان يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما علمه الله تعالى حيث قال : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا »^(١) فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيد علماً ثواباً لما يوليه ، وليعلم أن من باع علماً بعرض دنيوي فقد ضاد الله تعالى في حكمه ، وذلك أن الله تعالى جعل المال خادماً للطعام ، والملابس جعلها خادمة للبدن ، وجعل البدن خادماً للنفس ، وجعل النفس خادماً للعلم ، فالعلم مخدوم غير خادم ، والمال خادم غير مخدوم ، فمن جعل العلم ذريعة الى اكتساب المال ، فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم ، خادماً .

الباب السادس والعشرون

﴿ وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم
والاقتصار بهم على قدر أفهامهم ﴾

واجب على الحكيم العالم التحرير أن يقتدي بالنبي صلى الله

عليه وسلم فيما قال : (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ،
ونكلم الناس بقدر عقولهم) . وأن يتصور ما قال أمير المؤمنين عليّ
رضي الله تعالى عنه حيث قال لكميل بن زياد وأوماً بيده الى صدره
فقال : ان ههنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة ، بل لو أصيبت لفتى غير
مأمون عليها يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده .
وبحجته على كتابه ، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له يقتدح الشك في
قلبه بأول عارض من شبهته ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : (كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن
يكذب الله ورسوله) . وقال عليه الصلاة والسلام : (ما أحد يحدث
قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان ذلك فتنة على بعضهم) ،

وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة في غير أهلها
فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب الحاذق يصنع
دواءه حيث يعلم انه ينفع ، وقيل : تصفح طلاب حكمك كما تتصفح
خطاب حرمك وبه ألم أبو تمام

وما أنا بالغيران من دون جبرتي * إذا أنا لم أصبح غيوراً على العلم

وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع أحداً على حكمة يطلبها
منك؟ فقال : اقتداء بالباري عز وجل حيث قال : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ »^(١) فبين انه إنما
منعهم لما لم يكن فيهم خير ، وبين ان في اسماعهم ذلك مفسدة لهم
وسأل جاهل حكياً عن مسألة من الحقائق ، فأعرض عنه ولم يجبه فقال

له : أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار) فقال نعم : سمعته فاترك اللجام هنا واذهب ، فاذا جاء من يستحق ذلك وكتمته فليلجمني به ،

وقال بعض الحكماء في قوله تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا »^(١) انه نبه على هذا المعنى وذلك انه لما منعنا من تمكين السفهاء من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفاديا انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوي فلأن يمنع من تمكينه من حقائق العلوم الذي إذا تناوله السفهاء أداه الى ضلال وإضلال ، فهلاكه أحق وأولى شعر

إذا ما اقتنى العلم ذو شرة * تضاعف ما ذم من مخبره
وصادف من علمه قوة * يصول بها الشرفي جوهره

وكما أنه واجب على الحكام إذا وجدوا من السفهاء رشداً أن يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا اليهم أموالهم لقوله تعالى : « فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ »^(٢) فواجب على الحكماء إذا وجدوا من المسترشدين قبولاً أن يدفعوا اليهم العلوم بقدر استحقاقهم ، فالعلم قنية يتوصل بها الى الحياة الأخروية ، كما أن المال قنية يتوصل بها في المعاونة الى الحياة الدنيوية ، وبإذن العلم لمن لا يستحق يستوجب عقوبة ، ومانعه من أهله يستوجب عقوبات ولذلك قال الله تعالى : « وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »^(٣)

٣ - آل عمران ١٨٧

١ - النساء ٥

٢ - النساء ٦

وقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» (١) الآية. فإذا ثبت ذلك وجب أن يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع فحسنت حاله أن لا ينصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك الى انحلاله عن قيده، ثم لا يمكن أن يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور ومن اشتغاله بعمارة الأرض بين تجارة ومهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج اليه من هو في مرتبته في عبادة الله تعالى العامة، وأن يملأ نفسه من الرغبة والرغبة الوارد بهما القرآن، ولا نولد له الشبه والشكوك، فان اتفق اضراب بعضهم إما بانبعاث شبهة تولدت له، أو ولدها ذو بدعة دفعت اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقه أن يختبر. فان وجد ذا طبع للعلم موافق، وفهم ثاقب، وتصور صائب، خلى بينه وبين التعلم، وسوعد عليه بما يوجد من السبيل اليه، وإن وجد شريراً في طبعه أو ناقصاً في فهمه، منع أشد المنع ففي اشتغاله بما لا سبيل له الى إدراكه مفسدتان، تعطله عما يعود بنفع الى العباد والبلاد، واشتغاله بما يكثر فيه شبهة وليس فيه نفعه، وكان بعض الأمم المتقدمة إذا ترشح بعضهم ليخصص بمعرفة الحكم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبر، فان لم يوجد خيراً في الخلق أو غير متهيء للتعلم منع أشد المنع، فان وجد خيراً ومتهيئاً شورت على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ومنع من الخروج الى أن يحصل له العلم، أو يأتي عليه الموت، ويزعمون ان من شرع في حقائق

العلوم ولم يبرع فيها تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالاً مضلاً فيعظم على الناس ضرره بهذا السبب وقيل : نعوذ بالله من نصف متكلم

الباب السابع والعشرون

﴿ وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك ﴾

لا شيء أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم ، فمن الاخلال بها ينتشر الشر وتكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر ، وذلك ان السوأس أربعة :

الأنبياء : وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم .

والولاة : وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم .

والحكماء : وحكمهم على بواطن الخاصة .

والوعظة : وحكمهم على بواطن العامة ، وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة ، وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ، ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ فترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلهم بدعاً استغروا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم

فكل قرين الى شكله * كأنس الخنافس بالعقرب
وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستوراً مسبلة وطلبوا منزلة

الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة ، وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وكفروهم اعتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطؤهم باخفافهم وإظلافهم ، فتولد من ذلك البوار والجور العام .

الباب الثامن والعشرون

﴿ ذكر من يصلح لوعظ العامة ﴾

لا يصلح الحكيم إلا لنقص الحكيم ، لا لنقص العامي

* فلن ترى الشمس أبصار الخفافيش * وأيضاً فبين الحكيم والعامي من تنافر طبعيهما وتباين شكليهما من النفار قريب مما بين الماء والنار والليل والنهار ، وقيل لسلمة بن كهيل : ما لعي رضي الله تعالى عنه رفضته العامة وله في كل خبر ضرر قاطع ؟ فقال : لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره ، والناس الى أشكاهم أميل وبهذا النظر قال جاهل لحكيم ، اني أحبك فقال : نعت الى نفسي قيل له : ولم ؟ قال : ان صدق فليس ميله إلا لنقيصة بدت من نفسي لنفسه فأنست به ولهذا قال الشاعر

قد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

فحق الواعظ أن تكون له مناسبة الى الحكماء ، يقدر بها على الاقتباس منهم والاستفادة عنهم ، ومناسبة الى الدهاة يقدر بها على الأخذ منه كمناسبة الوزير للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك ، وتواضع السوق ، ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم ،

فكأنبي الذي جعله الله من البشر ، وأعطاه قوة الملك ليتمكن أن يأخذ من الملك ، ويمكن البشر أن يأخذوا منه ، ومنه قوله : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً »^(١) تنبيهاً أنه ليس في وسعكم التلقي عن الملك ما لم يتجسم فيصير في صورة رجل ، فإذا حق الواعظ أن تكون له نسبة إلى الحكيم وإلى العامة يأخذ منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف إلى اللحم وإلى العظم جمعاً : ولولاها لما أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم ، وهذا مما تؤمل فاطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة .

الباب التاسع والعشرون

﴿ ذكر الحال التي يجب أن يكون عليها الواعظ ﴾

حق الواعظ أن يتعظ ، ثم يعظ ، ويبصر ثم يبصر ، ويهتدي ثم يهدي ، ولا يكون دفترأ يفيد ولا يستفيد ، ومسناً يجد ولا يقطع ، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ، ولها أكثر مما تفيده ، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر مما تنبل ، ويجب أن لا يخرج مقاله بفعاله ، ولا يكذب لسانه بحاله ، فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »^(٢) ونحو ما قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه : قصم ظهري رجلان ، جاهل متنسك ، وعالم متهتك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم ينفرهم بتهتكه ، والواعظ ما لم تكن مع مقاله فعاله لم ينتفع به ، وذاك

١ - الأنعام ٩

٢ - البقرة ٢٠٤

ان عمله مدرك بالبصر فأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر
فيجب أن تكون عنايته باظهار عمله الذي يدركه أكثر من عنايته بالذي
لا يدرك إلا بالبصيرة ، ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوي من
المداوى ، فكما أن الطبيب اذا قال للناس : لا تأكلوا كذا فانه سم ، ثم
رأوه آكلأ له عد سخرية وهزأ ، وكذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمل ،
وهذا النظر قيل : يا طبيب طب نفسك ، بل قال الله تعالى : « يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »^(١) الآية . والآيات منه كثيرة ،
وأيضاً فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطبايع بما ليس منتقشاً بها ،
وكذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس موجوداً في نفس
الواعظ ، وإذا لم يكن الواعظ إلا ذو قول مجرد من الفعل لم يتلق عنه إلا
القول دون الفعل ، وأيضاً فان الواعظ يجري من الناس مجرى الظل
من ذي الظل ، فكما أنه محال أن يعوج ذو الظل والظل مستقيم ،
كذلك محال أن يعوج الموعوظ والواعظ مستقيم ، وأيضاً فكل شيء له
حالة يختص بها فإنه يجر غيره الى نفسه بقدر وسعه بارادة منه ، أو غير
إرادة ، كالماء الذي يحيل ما يتلقاه من العناصر الى نفسه بقدر وسعه ،
وكذلك النار والأرض والهواء فالواعظ اذا كان غاوياً جر بغيه غيره الى
نفسه ، ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار : « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا
أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا »^(٢) وقال أيضاً : « فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ »^(٣)
فمن ترشح للوعظ ، ثم فعل فعلاً قبيحاً اقتدى به غيره فيه ، فقد جمع
وزره ووزرهم كما قال عليه الصلاة والسلام : (من سن سنة سيئة

فعلية وزرها ووزر من عمل بها) بل قد قال الله تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ »^(١) وقال عز وجل : « وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »^(٢)

الباب الثلاثون

﴿ صعوبة المعيار الذي تعرف به حقائق العلوم ﴾

كما أن للدراهم والدنانير ميزانا قد عرف أهلها صحته ، فلكل علم ميزان نحو الحساب للمعدودات ، والهندسة للمحسوسات ، والعروض للشعر ، والنحو للألفاظ العربية ، وإلى هذا أشار تعالى بقوله «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»^(٣) وأوصى الذين أعطاهم الميزان فقال : «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ»^(٤) وقال : «أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»^(٥) فكل شك أو منازع غيره في مقدار ، فحقه أن يعد ميزانه ان عرفه ويقلد أربابه إن لم يعرفه ، وإن من ترك ذلك وأخذ بخرص ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه ، فالخرص قلما يصدق ، والظن قلما يحقق ، ولذلك عبر بالخرص عن الكذب

٤ - الشعراء ١٨٢

٥ - هود ١٨٥

١ - الأنعام ٣١

٢ - العنكبوت ١٣

٣ - الحديد ٢٥

فقال تعالى: « إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »^(١) وقال تعالى: « قُتِلَ الْخَرَّصُونَ »^(٢) وقال تعالى: « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »^(٣) ومعلوم أن ميزان الدين الذي صوابه يوصل الى الثواب العظيم ، وخطؤه يفضي الى العذاب الأليم ، أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة ، وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام ورام الزعامة فيه قبل أوانها ، وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها ، وأخذ كل واحد منهم يخرص خرصاً ، ويظن ظناً ويسلك بظنه طريقاً غير نهج ، فاذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه واعتقده فيما اتبعه ظنه ، فإذا تحاكموا الى ما اتخذوه ميزاناً صار خلافهم في الميزان أكثر من خلافهم في الموزون ، فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء ، لا جرم أن كثيراً من مناظراتهم لا تولد إلا شبهة ولا تثمر إلا حيرة: « ظلمات بعضها فوق بعض وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »^(٤) .

الباب الحادي والثلاثون

﴿ كراهية الجدال للعوام وذمه ﴾

إباحة الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين ، ولم يتهدنوا في سبيل البراهين يجري مجرى حل قيد الشيطان ، ورفع يأجوج

٣ - النجم ٢٨

٤ - النور ٤٠

١ - الزخرف ٢٠

٢ - الذاريات ٢٠

ومأجوج ، فانها شئون سلطان قوتهم السبعية خالفة من يد قائد العقل وقيد الشرع ، فالجدال مكروه للعلماء الأولياء ، فكيف الجهال الأغبياء ، ألا ترى أن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَجَدْتَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »^(١) فلم يطلق له جدال مخالف فيه حتى قيده بالأحسن هذا مع وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »^(٢) وقال تعالى في ذم الجدال : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »^(٣) وقال : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ »^(٤) وقال : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ »^(٥)

وللجدال مع كونه مكرهاً شروط وقوانين من تعاطاها ولم يكن متدرباً فيها كان خصياً جدلاً ، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة ، فان الجدل مع ما فيه قد يوقظ الفهم ، ويشير الأنفة لاقتباس العلم ، والخصومة لا تثمر إلا العداوة ، وإنكار الحق ، ولهذا جعلها الله شراء من الجدال فقال تعالى : « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »^(٦) وقال : « فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ »^(٧) أي جيد الخصومة مبين ولم يذكر الخصام في موضع إلا عابه ، وأيضاً فالتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربا ، وكل واحد منهم يجتهد أن يكون هو الفاعل ،

٥ - الأنعام ٦٨
٦ - الزخرف ٥٨
٧ - النحل ٤ ، يس ٧٧

١ - النحل ١٢٥
٢ - القلم ٤
٣ - الزخرف ٥٨
٤ - الحج ٨

وصاحبه المنطبع والقاتل ، كالمؤثر والسامع : كالمثأثر ولم يتولد منهما خير بوجه ، وقال حكيم : المجادل المدافع يقع في نفسه عند الخوض في الجدل أن لا يقنع بشيء ، ومن لا يقنعه الا أن لا يقنع ، فما الى إقناعه سبيل ، ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياء بكل معجزة كما قال : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ بِالْبَيِّنَاتِ لَرَأَى الْمُجْرِمُونَ »^(١)

الباب الثاني والثلاثون

﴿ ما يجب أن يعامل به الجدل المباحك ﴾

إذا ابتليت بمهارش مما حك مناوش ، قصده اللجاج لا الحجاج ، ومراده مناوأة العلماء وممارسة السفهاء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من تعلم العلم ليباهي به العلماء ، أو يباري به السفهاء) الخ وكما قال الشاعر :

تراه معداً للخلاف كأنه * يردّ على أهل الصواب موكل

فحقك أن تفر منه فراك من الأسود والأسود ، فان لم تجد من مزاولته بدا فكابر إنكاره الحق بانكارك الباطل ، ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب ، معتبراً في ذلك قوله عز وجل : « وَمَكْرُئِي مَا كُمْرًا »^(٢) وقوله : « وَمَكْرُؤًا مَّمْكُرًا »^(٣) وقوله تعالى حكاية عن المنافقين : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ »^(٤) وقال : « فَلَمَّا زَاغُوا

٣ - آل عمران ٥٤

٤ - البقرة ١٥

١ - الانعام ١١١

٢ - النحل ٥٠

أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»^(١) وبالغ في ذلك معه وإياك أن تعرج معه الى بث الحكمة وأن تذكر له شيئاً من الحقائق ما لم تتحقق له قلباً طاهراً لائقاً للحكمة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب) ، فان لكل تربة غرساً ولكل بناء أساً وما كل الرأس تستحق التيجان ولا كل طبيعة تستحق إفادة البيان ، وإن كان لا بد فاقصر معه على إقناع يبلغه فهمه فقد قيل : كما ان لب الشار مباح للنحل ، والتبن معدود للانعام ، كذلك لب الحكمة معد لذوي الألباب ، وقشورها مجعولة للانعام وكما انه من المحال أن يشم الأخشم ريحاناً ، فمحال أن يفيد الحمار بياناً .

واعلم أن سبيل انكار الحجة والسعي في إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ، ولهذا يتحرى المجادل الخصم أبداً بالدفاع ، لا المعاوضة بمثلها ، وذلك ان الافساد هدم والإتيان بالمثل بناء وهو صعب ، فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات ولا يقدر على إيجاد شيء منها يقدر على إفساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ، ولا يمكنه الإتيان بمثلها ولأجل ما قلنا دعا الله في الحجج الى الإتيان بمثلها فقال : « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »^(٢) فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وان كان ذلك مفترى وقال ابراهيم عليه الصلاة والسلام : « فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »^(٣) والله الموفق .

الباب الثالث والثلاثون

﴿ الوجوه التي من أجلها يقع الشبه والخلاف ﴾

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان :
المعنى واللفظ .

أما ما كان من جهة المعنى ، فاما أن يكون من جهة الناظر ، أو من جهة المنظور فيه ، وهو الحجة ، أو من جهة الآلة التي تستعمل في النظر ، فان الناظر في الشيء المعتبر له جار مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون ، فمتى كان الناظر غير تام العقل كان أعمى البصيرة ، فيجري مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن . ومن لم يكن أعمى البصيرة لكن هو غير مالك لقوانين البراهين والحجج والأدلة كان جارياً مجرى وزان عديم الميزان ، فأخذ يخمن ، والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه من الصواب غير معتد به إذ لا أصل له تسكن اليه النفس ، ومتى لم يكن أعمى البصيرة لكن لا يعرف أي حجة يستعمل فيما هو بصده فيطلب المعقول من جهة المحسوس ، والمحسوس من جهة المعقول كان جارياً مجرى وزان بصير ، لكن يزن الدنانير بصنج الدراهم ، والدراهم بصنج الدنانير ،

وأما ما كان من جهة اللفظ : فإما أن يكون ذلك واقعاً من جهة مفردات اللفظ ، أو من جهة مركباته .

فان كان من مركبات اللفظ ، فاما أن يكون من حيث أن اللفظ

مشارك بين المعنيين كالعين واليد ونحوهما ، أو يكون اللفظ عاماً موضوعاً موضع خاص ، أو خاصاً موضوعاً موضع عام ، أو مستعملاً على سبيل المثل ، أو الرمز أو الإشارة ، أو مستعملاً لشيء لم تتقرر صورة ذلك الشيء في نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكروسي .

فأما ما كان من جهة التركيب ، فاما أن يكون من جهة الكمية ، وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب أن يكون ، أو أقل مما يجب أن يكون وإما من جهة الكيفية وذلك بأن يقدم ما حقه أن يؤخر ويؤخر ما حقه أن يقدم كقول الشاعر :

وما مثله في الناس إلا مملكاً * أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومن أجل ما وقع في الألفاظ من الشبه قالت الحكماء ، يجب أن يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ في الحقيقة لا يدل على المعنى إلا بواسطة صورة ذلك اللفظ في القلب ، ومتى لم يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة .

الباب الرابع والثلاثون

﴿ بيان اختلاف جميع الناس في الأديان والمذاهب ﴾

جميع الاختلاف بين أهل الأديان والمذاهب على أربعة مراتب :

الأولى : الاختلاف بين أهل الأديان النبوية ، وبين الخارجين

عنها من الثنوية والذهرية ، وذلك في حدوث العالم وفي الصانع عز وجل وفي التوحيد .

والثانية : الخلاف بين النبوة بعضهم بعضاً ، وذلك في الأنبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود .

والثالثة : الخلاف المختص في أهل الدين الواحد بعضهم بعضاً في الأصول التي يقع فيها التبديع والتفجير والاختلاف في كثير من صفات الله عز وجل ، وفي القدر وكاختلاف المجسمة .

والرابعة : (الاختلاف المختص بأهل المقالات في فروع المسائل كاختلاف الحنفية والشافعية .

فالاختلاف الأول : يجري مجرى متنافيين في مسلكيهما ، كأخذ طريق الشرق وآخر طريق الغرب ، وأخذ ناحية الجنوب وأخذ ناحية الشمال .

والثاني : يجري مجرى آخذ نحو الشرق وآخذ يمينه أو شماله فهو وإن كان أقرب من الأول فليس يخرج أحدهما عن أن يكون ضالاً بعيداً وإياهما قصد تعالى بقوله : « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا »^(١) .

والثالث : يجري مجرى آخذين وجهة واحدة ، لكن أحدهما سالك المنهج والثاني تارك له ، وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وإن كانت الطريق تطلق عليه .

١ - النساء ٦٠

والثالث: جار مجرى جماعة سلكوا منهجاً واحداً لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله صلى الله عليه وسلم: (الاختلاف في هذه الأمة رحمة). وقولهم: كل مجتهد في الفروع مصيب، ولأجل الطرق الثلاثة أمرنا أن نستعيز بالله تعالى ونتضرع اليه بقوله: «اهدنا الصراط المستقيم»^(١) وقال تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكْرُ عَنْ سَبِيلِهِ»^(٢) وجميع الخلاف الواقع في هذه الأمة اثنان وسبعون على ما ورد في الخبر لا زائداً ولا ناقصاً، وقد ورد الخبر في ذلك على وجهين: أحدهما: (ستفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)،

وفي الخبر الثاني: كلها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة، وهذان خبران لا يمتنع أن يكونا صحيحين، ولكن على نظرين ومعنيين، وقد ذكر ذلك وبين في رسالة مفردة، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه.

الباب الخامس والثلاثون

﴿النطق والصمت﴾

النطق أشرف ما خص به الانسان، فانه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوان ولهذا قال عز وجل: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ

١ - الفاتحة ٦

٢ - الأنعام ١٥٣

الْبَيَان»^(١) ولم يقل وعلمه إذ جعل علمه تفسيراً لقوله : خلق الانسان تنبيهاً ان خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الانسانية مرتفعة ، ولهذا قيل : ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه قال الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أي إذا توهم النطق الذي هو باللسان والقوة الناطقة التي هي بالقلب ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم ، فإذا كان الانسان هو الانسان بذلك ، فمن كان أكثر منه أي كان أكثر منه انسانية .

والصمت ، من حيث هو الصمت مذموم ، فذلك من صفات الجملادات فضلاً عن الحيوانات وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات ، بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب ، ومن مدح الصمت فاعتباراً بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنایات عظيمة في أمور الدين والدنيا ، كما روي أن الانسان إذا أصبح كفرت أعضاؤه اللسان فتقول : اتق الله فينا فانك ان استقممت استقمنا وإن اعوججت إعوججنا ، فاما إذا اعتبرنا بأنفسهما فمحال أن يقال في الصمت فضل فضلاً أن يخاير بينه وبين النطق ، وسئل آخر عن فضلها؟ فقال : الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطأ ، وعنه أخذ الشاعر :

الصمت أليق بالفتى * من منطلق في غير حينه

والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة ، ان الصمت أبلغ لأنه يستعمل في ما لا قوة فيه للنطق ، ولما له قوة النطق ،

ولهذا قيل لما لا نطق له الصمت ، والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله ، والإنصات سكوت مع استماع ، ومتى انفك أحدهما عن الآخر لم يسم انصاتاً في الحقيقة وعليه قوله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »^(١) فقله : أنصتوا بعد قوله استمعوا ، يدل على أن الانصات بعد الاستماع ركن خاص بعد عام .

والاصاحة : الاستماع الى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد .

الباب السادس والثلاثون

﴿ في الصدق ومدحه والكذب وذمه ﴾

أصلهما في القول ، ولا يكونان بالقصد الأول من القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام ، فأما بالعرض فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء وذلك أن قول القائل : أزيد في الدار ؟ في ضمنه إخبار بكونه جاهلاً بحال زيد ، وكذلك إذا قال : واسنى ، في ضمنه انه محتاج الى المواساة ، وإذا قال لا تؤذني في ضمنه انه يؤذيه .

وكلاهما أي الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد أيضاً كقولهم : صدق ظنه واعتقاده وكذبا ، ويستعملان أيضاً في أعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم ،

وحد الصدق التام: هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً بل إما أن يوصف بالصدق والكذب ، أو تارة يوصف بالصدق ، وتارة يوصف بالكذب على نظرين مختلفين ، كقول الكافر: إذا قال من غير اعتقاد: محمد رسول الله ، فإنه يصح أن يقال فيه: انه صدق لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح ان يقال فيه: انه كذب بمخالفة قوله ضميره ، ولهذا كذبهم الله تعالى حيث قال: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾^(١) الآية وكذلك إذا قال: من لم يعلم كون زيد في الدار انه في الدار يصح أن يقال: صدق وأن يقال: كذب بنظرين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ) وفي خبر فقد كذب على الله .

والمبرسم لا قصد له فاذا قال زيد في الدار لا يقال له صدق ولا كذب ،

والصدق: أحد أركان بقاء العالم ، حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه ، وهو أصل المحمودات ، وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ، ولهذا قال عز وجل: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٢) والاختصاص بالكذب انسلاخ من الانسانية ، فخصوصية الانسان النطق فمن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع وإذا لم ينفع ، نطقه صار

١ - المنافقون ١

٢ - التوبة ١١٩

هو والبهيمة سواء ، بل يكون شراً من البهيمة فان البهيمة إن لم تنفع
 بلسانها لم تضر ، والكاذب يضر ولا ينفع ، ولهذا قال عز وجل : « إِنَّ
 هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »^(١)

واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الأخبار
 فليس بكذب على الحقيقة ، ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التحدث
 كقولهم في الحث على مداراة العدو والتلطف في خدمة الملوك : إن سبعاً
 وذئباً وثعلباً اجتمعوا فقالوا : نشترك فيما نتصيد فصادوا عيراً وظيفاً
 وأرنباً ، فقال السبع للذئب أقسم فقال : هو مقسوم العير لك ، والظبي
 لي والأرنب للثعلب ، فوثب السبع فأدماه ، ثم قال : للثعلب أقسم
 فقال : هو مقسوم العير لك لغذائك ، والظبي لمقيلك ، والأرنب
 لعشائك ، فقال من علمك هذه القسمة ؟ قال علمني الشوب
 الأرجواني الذي على الذئب ، وعلى المثل حمل قوم قوله عز وجل : « إِنَّ
 هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ »^(٢) وقوله تعالى :
 « كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ »^(٣) فقالوا : يصح
 هذا لما كان مثلاً وان لم تجر العادة بوجود الحبة هكذا .

الباب السابع والثلاثون

﴿ ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ﴾

ذهب كثير من المتكلمين الى أن الصدق يحسن لعينه والكذب

٣ - البقرة ٢٦١

١ - الفرقان ٤٤

٢ - ص ٢٣

يقبح لعينه ، وقال كثير من الحكماء والمتصوفة : ان الكذب يقبح لما فيه من المضرات الخاصة ، والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الخاصة ، وذلك ان الأقوال من جملة الأفعال ، ومن الأفعال ما لا يحسن ولا يقبح لذاته وإنما يقبح لما يتعلق به من الضرر على ما فيه من النفع وبالعكس ، ألا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والبغض ، وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح ، فكذا المقال من الصدق والكذب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (لا يحسن الكذب إلا في ثلاث : إصلاح ذات البين ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها ، وكذب الرجل في الحرب فانها خدعة) ، وقد ورد : « إذا أتاكم عني حديث يدل على هدى ، أو يرد عن رديء فاقبلوه قتلته أولم أقله ، وإن أتاكم عني حديث يدل على رديء ، أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فاني لا أقول إلا حقاً .

قالوا والكذب يكون قبيحاً بثلاث شرائط : أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه ، وأن يكون المخبر اختلقه عند الأخبار به ، وأن يقصد إيراد ما في نفسه لا نفعاً أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول الى ذلك النفع بغيره ، ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلاً وآجلاً ، قالوا ولا يلزم على هذا ان يقال احذروا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوي ، فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا تعادل ضرر أدنى كذب ، وإنما هذا الذي قلناه يتصور في نفع أخروي يكون الانسان فيه معذوراً عاجلاً ، كمن سأل عن مسلم استتر في دارك وهو يريد قتله فتقول لا ، فهذا يجوز فان نفع هذا الكذب موفى على ضرره وهو فيه معذور ، ولا خلاف في

أن في المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولم تزل الأنبياء والأولياء
يفزعون إليها ، كقول النبي عليه الصلاة والسلام لمن سألته من أين
أنت ؟ من ماء . وقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام : إني سقيم ،
وقوله : هذه أختي ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ،

وأما الصدق : فانما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضرره
بأحد ، فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقي والأرض تحتي
من غير أن يريد أن يجعل هذا مقدمة دليل أو إفادة معنى تعلقه به ،
فكذلك قبح النيمة والسعاية وإن كانا صدقا ، ولذلك قيل : كفى
بالسعاية ذماً انه يقبح فيها الصدق ،

وأقبح الكذب مع قبح كله أو جله ما لا يتعلق به رجاء نفع
عاجل أو آجل ويجلب للمقول له ضرراً ، كرجل يأتيك من بلد بعيد
فيقول ان ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق اليك وسألك أن تأتيه
لينيلك مالا وجاهاً ، فاذا وردت فلم تجد لذلك صدقاً بل وجدت ذلك
الملك حنقاً عليك .

الباب الثامن والثلاثون

﴿ أنواع الكذب والسبب الداعي اليه ﴾

الكذب : اما أن يكون اختراع قصة لا أصل لها ، أو زيادة في
القصة ، أو نقصاناً يغيران المعنى ، أو تحريفاً يغير عبارة ،
فما كان اختراعاً يقال له : الافتراء والاختلاق ، فان كان بزيادة

فين وكل من أورد كذباً في غيره^(١) . فإما أن يقوله بحضرة المقول فيه وهو المعبر عنه بالبهتان ، وكل من أورد حديثاً فإما أن يقوله عن علم ، أو عن غلبة ظن ، يحسن أو يقبح . فما كان عن تخمين فظن مذموم وعليه قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ»^(٢) الآية .

واعلم ان الداعي الى الكذب محبة النفع الدنيوي وحسب التراث ، وذلك ان المخبر يرى أن له فضلاً على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل فيظن انه يجلب بما يقوله فضلاً ومسرة ، وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ، ففضيحة كذبة واحدة لا توازي مسرة دهره ، والكذب عار لازم وذل دائم ، وحق الانسان أن يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص في أدنى كذب ، فمن استحلاه عسر عنه فطامه ، وقال بعض الحكماء : كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو إنابة ما خلا الكذب ، فان صاحبه يزداد على الكبر ، فانا رأينا شارب خمر أقلع ولصاً نزع ولم نر كذاباً رجع ، وعوتب كذاب في كذبه فقال : لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه والله الهادي .

الباب التاسع والثلاثون

﴿ الذكر الحسن من المدح والثناء ﴾

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا ، وهي من جبلة الناس في خصائصهم ولا يوجد في غيرهم من الحيوان كما قال الشاعر :

* حب الثناء طبيعة الانسان * ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ، ولما أخافه الهجاء ، ولا سره الثناء ، ولا ردعه عن سوء الفعال إلا سوط أو سيف ، ولذا قيل : مما ينفر عن القبح ويحث على الجميل : خمسة أشياء : العقل ، ثم الحياء ، ثم المدح والهجاء ، ثم الترغيب والترهيب ،

وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة ، ولم يردعه المدح الى حسنة ، فهو جماد أو بهيمة ، ولأجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة ، وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم ، وإنما يذم ويحمد بحسب المقاصد ، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب ، فذلك محمود وهو طريق ابراهيم صلى الله عليه وسلم حيث قال : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »^(١) أي اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحي صادقاً ، ومن هذا الوجه ندب للانسان أن يقول إذا مدح : اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، والمذموم أن يميل اليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه ، فانه يفتح باب الحسد ، والحسد يفتح باب الكذب ، والكذب رأس كل مذمومة ، وقد توعد الله سبحانه تعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة فقال تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا »^(٢) وينظر الى قوله صلى الله عليه وسلم : (من سرتة حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) . وقال : (المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الايمان في قلبه) ومن الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم

١ - الشعراء ٨٤

٢ - آل عمران ١٨٨

وقد سمع رجلاً أثنى على آخر فقال: (قطعت مطاه لو سمع ما أفلح)

والفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما إذا كان من مَادِحِ مطر ،
وجليس مفرّ ، وممن يحرف قبل أن يعرف ، وممن ان وجد قادحاً قدح ،
وإن وجد مادحاً مدح ،

وأما الثناء من الانسان على نفسه فشناعة وفظاعة ، وقد قيل
لحكيم ما الذي لا يحسن وإن كان حقاً؟ فقال: مدح الرجل نفسه ،
وقال معاوية رضي الله تعالى عنه لرجل: من سيد قومك؟ فقال أنا
فقال: لو كنته لما قلت. وإنما لم يُستقبح من يوسف عليه الصلاة والسلام
قوله: « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ »^(١) لأنه قصد
بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوض اليه ، وقد أحسن ابن
الرومي حيث اعتذر عن مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه بقوله:

وعزيز عليّ مدحي لنفسي * غير أني جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه * كل حر يريد إظهار آله
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله .

الباب الأربعون

﴿ الشكر ﴾

الشكر : تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها ، وهو مقلوب عن

الكشر ، ويزاده الكفر ، وهو من كفرت الشيء غطيته ودابة شكور أي مظهرة بسمنها أسداء صاحبها اليها ، وقيل : أصله من عين شكرى أي ممتلئة ، فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد ، لأن الحمد ذكر الشيء بصفاته ، والشكر ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ،

فالشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه ،

وهو أيضاً باعتبار الشاكر والمشكور ثلاثة أضرب : شكر الانسان لمن هو فوقه وهو بالخدمة ، والثناء والدعاء ، وشكر لنظيره وهو بالمكافآت ، وشكر لمن هو دونه وهو بالثواب ، وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر الصالح عباده ، وشكر العبد له هو معرفة نعمته وتحفظ جوارحه بمنعها عن استعمال ما لا ينبغي ، وشكر المنعم في الجملة واجب بالعقل كما هو بالشرع ، وأوجها شكر البارئ تعالى ، ثم شكر من جعله سبباً لوصول خير اليك على يده ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (لا يشكر الله من لم يشكر الناس) وقال عليه الصلاة والسلام : (اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا تزول النعمة إذا شكرت ولا دوام لها إذا كفرت) وقال بعضهم : كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله فان شكر نعمته نعمة منه ، فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكره الأول ، وكذلك الحال في الثالث والرابع ، وهذا يؤدي الى ما لا يتناهى ، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام : إلهي

أمرتني بالشكر على نعمك وشكري لك نعمة من نعمك . ومن هذا أخذ الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة * عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلته * وإن طالت الأيام واتصل العمر

ولهذا قيل غاية شكر الله تعالى ، الاعتراف بالعجز عنه ، بل قد قال الله تعالى: «وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا»^(١) وأيضاً فكل ما يفعل الله بعبدفه فهو نعمة منه ، وإن كان بعض ذلك يعدّ بليه ، ولهذا قال بعض الصالحين: يا من منعه عطاءه ، وبلاؤه نعماء ، ولأجل صعوبة شكره قال عز وجل: « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ »^(٢) ولم يثن بالشكر على أوليائه إلا على اثنين منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: « شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ »^(٣) اجتباه فخص لفظ لأنعمه الدال على أدنى العدد وقال في نوح عليه الصلاة والسلام: « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا »^(٤)

واعلم أن الشكر والصبر جماع الايمان كما روي في الخبر:
الصبر نصف الايمان ، لكن قال بعض المتصوفة: الشكر أفضل من الصبر ، فإن الصبر حبس النفس الى مسالة البلاء ، والشكر أن لا تلتفت الى البلاء بل تراه من النعماء ، فمن صبر فقد ترك إظهار الجزع ، ومن شكر فقد تجاوز الى إظهار السرور بما جزع له الصابر ، وأيضاً الصبر ترك العمل السيئ ، والشكر إظهار العقل الحسن ، وليس من ترك قبيحاً كمن فعل جميلاً ، وقابل تعالى الشكر بالمجازاة فعل

٣ - النحل ١٢١

٤ - الاسراء ٣

١ - ابراهيم ٣٤

٢ - سبأ ١٣

الحبيب بحبيبه ، فقال تعالى : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ »^(١) وقابل الصبر بالأجر فعل المستأجر بأجيره فقال تعالى : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »^(٢) وأين الاجر وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ، ثم قال في الصبر : يوفى ، فلم يسم فاعله ، وقال في الشكر : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ »^(٣) فانظر الى هذا اللطف في المقال قبل الانتهاء الى الفعل ، ولم يذكر من أنبيائه بالشكر الاثنين كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال : « كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ »^(٤) وقال : « لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »^(٥) فجعل الصبر مبدء الشكر تنبيهاً ، ولأن الصبر محمول عليه قهراً ، والشكر مؤدي طبعاً .

الباب الحادي والأربعون

﴿ الغيبة والنميمة ﴾

الغيبة : أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير أن يحوج الى ذكره ، وقد عظم الله تعالى أمرها فقال : « وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا »^(١) الآية ، وقال تعالى : « هَازِمًا مَّشَاءً بَمِيمٍ »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة قتات ، وروي النميمة تفطر الصائم ، وتنقض الوضوء ، وقل من كان عائباً إلا كان معيباً : وقال قتبية لرجل رآه يغتاب

٥ - ابراهيم ٥ ، لقمان ٣١ ، سبأ ١٩ ، الشورى ٣٣

٦ - الحجرات ١٢

٧ - القلم ١١

١ - آل عمران ١٤٥

٢ - الزمر ١٠

٣ - آل عمران ١٤٥

٤ - الأنبياء ٨٥

آخر : لقد تلمظت بما يعافه الكرام ، وحق الانسان ان لا يتعوذها فان لها ضراوة ، ولهذا غير انسان آخر بالغية فقال : لو تلمظت بها لما صبرت عنها ، ثم ان من اغتاب اغتیب ، ومن عاب عيب فبحشه عن عيوب الناس يورث البحث عن عيوبه ، وكما لا يجب أن يتحراها بقوله يجب أن لا يسمعها ، لأن سماع كل قبيح يعلق ضرره ووسخه بفكرته ، فنجس كلمة عوراء لا يمكن الطهرُ منه إلا بزمان مديد ، وعلاج شديد ، وسماع القبيح قد يكون سبباً لفساد الكبير المجيد ، وغواية العالم المستبصر فضلاً عن فساد الحدث الغر ، والناشئ الغمر ، ولذلك قال عز وجل في مدح قوم : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »^(١) وقد أجاد من قال :

وسمعتك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به .

وكقبح الغيبة والنميمة المسابة قال صلى الله عليه وسلم : (ما تساب اثنان إلا غلب الأملها وإلا انحط الأعلى الى رتبة الأسفل منهما ، وقيل إذا سمعت كلمة تؤذيك فتيامن لها حتى تتحاشاك وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

الباب الثاني والأربعون

﴿ الكلام القبيح البذاء ﴾

الكلام القبيح يكون من القوة الشهوية طوراً كالرفث

والسخف ، ويكون من القوة الغضبية طوراً ، فمتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة كان معه السباب ، ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتاً مجرداً لا يفيد نطقاً ، كما يرى في كثير ممن فار غضبه ، وهاج هائجه ،

والرفث : فواحش الكلام في باب النكاح وأوصاف النساء وهو قبيح ، وقال بعضهم : اني لأستقبح من الرجل أن يكون وصافاً لبطنه وفرجه ، ومن حق الانسان أن يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن التفوه به فمه ، ولذلك وصف الله تعالى قوماً فقال : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »^(١) وقال تعالى : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ »^(٢)

والسباب ثلاثة : الأول قدح في نسب المسبوب ، الثاني : في نفسه أو بدنه لعاهة به أو آفة ، الثالث : في شيء فعله أو فعل به ، والسفه : التسرع الى القول القبيح .

الباب الثالث والأربعون

﴿ المزاح والضحك ﴾

المزاح إذا كان على الاقتصاد فهو محمود ، كما روي عنه عليه الصلاة والسلام : (اني لأمزح ولا أقول إلا حقاً) ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم كلمات مازح بهن . وقال سعيد بن العاص : اقتصد في

١ - الفرقان ٧٢

٢ - القصص ٥٥

مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين ، لكن الاقتصاد منه صعب جداً لا يكاد يوقف عليه ، ولذلك تخرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل : المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء ، وفحل لا ينتج إلا الشر.

وأما الضحك : فمن خصائص الانسان ، وذلك لأنه يكون عن التعجب ، والتعجب لا يكون إلا عن فكرة ، والفكرة تميز الانسان عن البهائم ، والاقتصاد فيه ومعرفة ما هو حسن منه عسر كالمزاح ، وقيل : إياك وكثرة الضحك فانها تميم القلب وتورث النسيان ، وقيل كثرة الضحك من الرعونة ، ويحكى عن عيسى عليه الصلاة والسلام انه قال : إن الله يبغض المضحك من غبر عجب ، والمشاء الى غير أرب ، وأما إيراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك منه ويل له ويل له).

الباب الرابع والأربعون

﴿ الحلف ﴾

الحلف الكذب أقبح من اليمين الفاجرة ففيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به ، وحق المسلم أن يتحاشى من الاستعانة باليمين في الحق فكيف في الباطل ، وأن يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم ان الاعراض الدنيوية أوبخ أمراً وأخس قدراً من أن يفزع فيها الى اليمين بالله ، وتقدير ذلك أن القائل إذا قال : تالله إن لي عليك كذا ،

أي أن وجود ذلك حق ، كما أن وجود الله حق ، وهذا كلام يتحاشى منه من في قلبه حبة خردل من تعظيم الله تعالى ، وقد قال تعالى : « وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ فَمَنْ قَلِيلًا »^(١) وقال تعالى : « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا »^(٢) وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه : الحلف ينفق السلعة ويذهب البركة ولن يخص يميناً من يمين ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يحلف على ماله فلا مال له) ، فانه وإن كان بنظر الفقهاء انه يفسح له في الحلف صادقاً انه بنظر الحكماء حث على اتيان تعظيم الله تعالى ، وتقديم على إثثار المال ، وتعريض بان الذي فاته هو عرض حاضر لا الدين والمروءة ، وحق العاقل إذا اضطر اليه أن يسلك سبيل التعريض اليه دون التصريح ، وما لا يضطر اليه يتركه تعريضاً وتصريحاً وإن بدر منه سهواً حلف ، يدرؤه بالاستثناء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (من كان حالفاً فليقل ان شاء الله ، فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويرد اللجاجة) . وقيل : العاقل إذا تكلم أتبع كلامه مثلاً والأحق إذا تكلم أتبع كلامه حلفاً ، وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف قال الشاعر :

وفي اليمين على ما أنت واعدته * ما دل أنك في الميعاد متهم

وقال بعض الحكماء : الخلافة تدل على كذب أربابها ، لأن ذلك لقلة الركون الى كلامهم ، وكما جَوَزَ عليه الصلاة والسلام الكذب إذا اضطر اليه ، جَوَزَ الحنث في اليمين ، فقال : (إذا حلف أحدكم على شيء فرأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) .

١ - النحل ٩٥

٢ - البقرة ٢٢٤

الفصل الثالث

﴿ فيما يتعلق بالقوى الشهوية ﴾

الباب الأول

﴿ الحياء ﴾

الحياء: انقباض النفس عن القبائح ، وهو من خصائص الانسان وأقل ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، وجعله الله سبحانه في الانسان ليرتدع به عما تنزغ اليه الشهوة من القبائح ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو مركب من جن وعفة ، ولذلك يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحيّاً ، لتنافي اجتماع العفة والفسق ، وقلما ما يكون الشجاع مستحيّاً والمستحي شجاعاً ، لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ، ولقلة وجود ذلك تجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة ، وبين المدح بالحياء ، نحو قول الشاعر:

يجري الحياء الغض من قسائمهم * في حين يجري من أكفهم الدم
وقال:

كريم يغض الطرف فضل حيائه * ويدنو وأطراف الرماح دواني
ومتى مدح بالانقباض ، فمدح للصبيان دون المشايخ ، ومتى قصد به ترك القبيح فمدح لكل أحد وبالاعتبار الأول قيل: الحياء

للأفاضل قبيح ، ومن هذا الوجه خزى خزياً في الهوان ، وخزى خزاية في الاستحياء ، فجعلنا من منبع واحد .

وبالاعتبار الثاني قيل : ان الله يستحي من ذي الشيبة في الاسلام أن يعذبه ، أي يترك عذابه ،

وأما الخجل : فحيرة النفس لفرط الحياء ، ويحمد في النساء والصبيان ، ويذم باتفاق من الرجال ، والوقاحة مذمومة بكل انسان ، إذ هي انسلاخ من الانسانية ، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه من حافر وقاح ، أي صلب وبهذه المناسبة قال الشاعر :
يا ليت لي من جلد وجهك رقعة * فأقد منها حافراً للشهب
وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد * إلا تكامل فيه الشر واجتمعا
فأما مداواة اكتساب الحياء إذ هم بقبيح فبأن يتصور أعظم ما في نفسه ، ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال الذين لا يميزون ، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر من الواحد ،

والذي يستحي منهم الانسان ثلاثة :

البشر : وهو أكثر ما يستحي منه ، ثم نفسه ، ثم الله عز وجل ، ومن استحي من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه أخس عنده من غيره ، ومن استحي منهما ولم يستحي من الله عز وجل ، فلعدم معرفته به ، فان الانسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه ويسمع نجواه ومن

لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : استحيوا من الله حق الحياء ، في ضمنه حث على معرفته ، وقال الله عز وجل : « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »^(١) تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب ، وسئل الجنيد عما يولد الحياء من الله تعالى فقال : رؤية العبد آلاء الله عليه ، ورؤية تقصيره عن شكره ، إن قيل : كيف قال عليه الصلاة والسلام : (من لا حياء له لا إيمان له) ، وقيل الحياء أول ما يظهر في الانسان من أمانة العقل ، والايمان آخر مرتبة العقل ، ومحال حصول المرتبة الأخيرة لمن لم تحصل له الأولى ، فبالواجب إذا كان من لا حياء له لا إيمان له ، وقال صلى الله عليه وسلم : (الحياء شعبة من الايمان ، وقال : الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء).

الباب الثاني

﴿ كبر الهمة ﴾

وأما كبر الهمة فخاص بالانسان ، وأما سائر الحيوان فكل جنس يتحرى العقل بقدر ما في طبعه ، وهو حال بين التفنج وصغر الهمة .
فالتفنج : تأهل الانسان لما لا يستحقه وهو البذخ ،

وصغر الهمة : ترك لما لا يستحقه ، وهو الدناءة وكلاهما مذموم ، لكن المتفنج جاهل أحق ، وصغير الهمة جاهل غير أحق ، وليس لكبر

الهمة إفراط مذموم في الحقيقة ، وإنما الافراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس تصوره عدم الهمة وليس كذلك ،

واعلم انه يقال : فلان كبير الهمة ، وفلان صغير الهمة إذا كان أحدهما يطلب مغتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر ،

والكبير الهمة على الاطلاق ، هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة .

والصغير الهمة ، من كان على الضد من ذلك ، وقال أعرابي فلان عظمه صغير الدنيا في عينه ، فكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وخارجاً من سلطان فرجه فلا يستحق له رأياً ولا بدنأً ، وحق الانسان ان يتظلف من ذلك فانه وإن كان بعنصره حيواناً فبعقله وفكره ملك ، إذا ضيع نفسه صار شراً من البهيمة وذلك هو الخسران المبين ،

وقيل : من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة ، فان أمكنك أن تقني قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل ، فلا اعتداد بما له فناً ،

والكبير الهمة على الاطلاق ، من يتحرى الفضائل لا لذة ولا لثروة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية ، بل يتحرى مصالح العباد شاكراً بذلك نعمة الله وطالباً به مرضاته غير مكترث بقله

مصاحبيه ، فانه * إذا عظم المطلوب قل المساعد * وطرق العلاء قليلة
الايناس .

الباب الثالث

﴿ الوفاء والغدر ﴾

الوفاء أخو الصدق والعدل ، والغدر أخو الكذب والجور ،
وذلك ان الوفاء صدق باللسان والفعل معاً ، والغدر كذب بهما وفيه مع
الكذب نقض العهد ، والوفاء يختص بالانسان فمن فقداه فقد انسلخ
من الانسانية كالصدق ، وجعل الله سبحانه العهد من الايمان وصيره
قواماً لأمور الناس ، فالتناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا
بمراعاة العهد والوفاء ، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت
المعاش ، ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهُبُوا »^(١) وقال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
عَاهَدْتُمْ »^(٢) وقال تعالى : « وَثِيَابِكُمْ فَطهروا »^(٣) أي نزه نفسك عن الغدر
وقال عز وجل : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا »^(٤) وقال عز وجل :
« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »^(٥) وعظم حال السموءل فيما
التزم به من الوفاء بدروع امرىء القيس ، ولقطة وجود ذلك في الناس
قال تعالى : « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ »^(٦) وضرب المثل به في المعزة

١ - البقرة ١٧٧

٢ - النحل ٩١

٣ - الأعراف ١٠٢

٤ - البقرة ٤٠

٥ - المعارج ٣٢

٦ - ٣

فقل هو أعز من الوفاء قال الشاعر:
أبى الناس إلا ذميم الفعال * إذا جربوا وقبيح الكذب

الباب الرابع ﴿ المشاورة ﴾

اشتقاقها من شرت الدابة إذا استخرجت جريها ، وهي استنباط
المراء رأي غيره فيما يعرض له من الأمور المشكلات ، ويكون ذلك في
الجهة التي يتردد المراء فيها بين فعلها ونعمت العدة هي قال أمير المؤمنين
رضي الله تعالى عنه : المشاورة حصن من الندامة وأمن السلامة .

وقيل : الأحق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن
الاستخارة ، فالرأي الواحد كالسجل ، والرأيان كالخيطين ، والثلاثة
إصرار لا ينقض ، وكفأك بمدحه قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه
وسلم : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »^(١) وقد استحسّن الحكماء قول بشار:
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن * برأي لبيب أو فصاحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافي تابع للقوادم
لكن اعتبار من تجوز مشورته صعب جداً ، فانه يحتاج أن يكون
صديقاً مجرباً ، حازماً ناصحاً رابط الجأش ، غير معجب بنفسه ، ولا
متلون في رأيه ، ولا كاذب في مقاله ، فمن كذب لسانه كذب رأيه ،
ويجب أن يكون فارغ البال في وقت ما يستشار فقد أحسن بشار في

قوله :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

الباب الخامس

﴿ النصح ﴾

النصح : أصله من نصحت الثوب إذا خططته ، وهو إخلاص
المحبة لغيره في إظهار ما فيه صلاحه ، وهو ذوب المحبة المختصة
بالفضيلة دون محبة النفع واللذة وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم
أمرها فقال : (الدين النصيحة ، ف قيل لمن يا رسول الله ؟ فقال : لله
ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم) ، فبين صلى الله عليه وسلم أن
النصح واجب لكافة الناس وذلك بأن تتحرى مصلحتهم في جميع
أمرهم بقدر وسعك .

وأول النصح أن ينصح الانسان نفسه ، فمن غشها فقلما ينصح
غيره وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وإن كان ذلك في شيء
يضره ويتحرى فيه قول الله عز وجل : «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ
بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ»^(١) وقال تعالى : «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ»^(٢) وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : لا يزال

١ - النساء ١٣٥

٢ - الانعام ١٥٢

الرجل يزداد في صحة رأيه ما نصح لمشيره ، فاذا غشه سلبه الله تعالى صحته ، ولا يلتفتن الى ما قيل إذا نصحت صاحبك فلم يقبل منك ، فتقرب الى الله بغشه فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه ، اللهم إلا أن يريد بغشه السكوت فقد قيل : كثرة النصيحة تورث الظنة ، ومعرفة الناصح من الغاش المستنصح صعبة جداً فالانسان بمكره يعز الاطلاع على سره إذ هو يبدي خلاف ما يخفي ، وليس كالحیوان الذي يمكن الاطلاع على طبيعته .

الباب السادس

﴿ كتمان السر ﴾

السر ضربان :

أحدهما : ما يلقي الى الانسان من حديث يستكتم ، وذلك إما لفظاً : كقولك لغيرك أكتم ما أقول لك ، وإما حالاً وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسه ، ولهذا قيل اذا حدثك انسان بحديث فالتفت فهو أمانة .

والثاني : أن يكون حديثاً في نفسك ما تستقبح إشاعته ، أو شيئاً تريد فعله ، والى الأول من ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله) ، والى الثاني أشار : من قال من وهي الأمر إعلانه قبل احكامه ، وكتمان النوع الأول من الوفاء وهو أخص بعامة الناس ، والثاني من الحزم

والاحتياط وهو أخص بالملوك وأصحاب السياسات ، وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر ، وتوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان ، والسبب في انه يصعب كتمان السر هو أن للانسان قوتين : آخذة ومعطية وكلتاها مما تتشوف الى الفعل المختص بها ، ولولا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها لما أتك بالآخبار من لم تزود ، فصارت هذه القوة تتشوف الى فعلها الخاص تحت إطلاقها ولا يخذعك عنك عن شرك قول من قال شعراً :

❖ واكتم السرفيه ضربة العنق ❖

وقوله :

ويكاتم الأسرار حتى أنه ❖ ليصونها عن أن تمر بباله

فذلك قول من يستنزلك عما في قلبك ، فاذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك . فقد قيل : الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر : وما أصدق من أنبا عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه : أريد أن أفشي اليك سرأ تحفظه علي؟ فقال : لا أريد أن أرى قلبي بجواك وأجعل صدري خزانة شكواك ، فيقلقني ما أقلقك ، ويؤرقني ما أرقك ، فتبيت بافشائه مستريحاً ، ويبيت قلبي بحرّه جريحاً ،

وقيل : أكثر ما يستنزل الانسان عن سره في ثلاثة مواضع ، عند الاضطجاع على فراشه ، وعند خلوته بعمرسه ، وفي حال سكره .

ومن حق من يساور غيره أن يجتنب المحافل لأمرين :

أحدهما حذراً من أن يساء به الظن ، فهذا يقول قد خبأ شيئاً

وهذا يستريب وذا يتهم .

والثاني ربما يتبع بالفحص فيطلع على مراده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الثالث) .

الباب السابع ﴿ التواضع والكبر ﴾

التواضع مشتق من الضعة : وهو رضا الانسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته ، وفضيلة لا تكاد تظهر في إفناء الناس لانحطاط درجتهم وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم ، وهو من باب التفضل ، لأنه يترك بعض حقه وهو بين الكبر والضععة .
فالضععة : وضع الانسان نفسه منزلة تزري به ليضع حقه .
والكبر : وضع نفسه فوق قدره .

والفرق بين التواضع والخشوع : ان التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع ، وأيضاً فالتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة ، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ، ولذلك يقال : تواضع القلب ، وخشعت الجوارح ، وقال عز وجل : « خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ »^(١) « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ »^(٢) وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم التواضع فقال : (طوبى لمن تواضع في غير منقصة ، وذل في نفسه من غير مسكنة) .

١ - القلم ٤٣ ، المعارج ٤٤

٢ - طه ١٠٨

وقيل لبزرجهر هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال نعم أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء ، من الكبر مع الأدب والسخاء ، فأحسِن بحسنة غطت على سيئتين ، وأقبحُ بسيئة غطت على حسنتين ، فالكبر ظن الانسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، ولذلك صار مدحاً في البارئ تعالى وذماً في البشر . وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»^(١) تنبيهاً على ان ذلك لهم رفعة لا ضعة ،

والتكبر والضرع كلاهما جاهل ، لكن الضرع غبي ، والتكبر غير أحق ، وشتان ما بينهما . والغبي قد يتأدب ، والأحمق لا سبيل الى تأديبه ، ولأن الضرع قد ترك ماله ، والأحمق قد ادعى ما ليس له ، وشتان ما بين المنزلتين . ولأن التكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الانسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال : «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ»^(٢) وقال تعالى : «فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ»^(٣) وقال تعالى الى : «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا»^(٤) وقال صلى

٣ - الأحقاف ٢٠

٤ - غافر ٣٥

١ - النساء ١٧٢

٢ - النحل ٢٣

الله عليه وسلم عن الله : (العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدة منهما قذفته في نار جهنم) . ونبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَحْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا»^(١) وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : الكبر والبخل) ، واستحسن قول الشاعر :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * نفس الملوك وأخلاق الممالك

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ، ومن تفكر في ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأواسطه عرف بعضه وروض كبره ، وقد نبه الله على ذلك بقوله : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ »^(٢) الآية . وقال تعالى : «قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ»^(٣) وقال تعالى : «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ»^(٤) والى هذا المعنى نظر معارف بن عبد الله الشخير لما قال ليزيد بن المهلب كيف يزهى من ضجيجه * أبد الدهر رجيجه

وقال :

يا قريب العهد بالمخ * رج لم لا تتواضع
فمن كان تكبره لقنيتيه فليعلم أن ذلك ظل زائل وعارية مستردة ،
والاستطالة : إظهار الطول ، فمن أظهر ذلك من غير طول

٣ - عبس ١٨ ، ١٩

٤ - الانسان ٢

١ - الاسراء ٣٧

٢ - الطارق ٥

فمنسلخ من الانسانية ، ومن أظهره مع طوله فقد ضيع الطول ،
والصلف يقال : اعتبار الميل في عنقه ، والصعر الميل في خده ،
ولذلك استعمل فيه لِيَ الرأس نحو قوله تعالى : «لَوُوا رُؤُسَهُمْ»^(١) .
والباء استقصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب .
والخيلاء : أن يظن في نفسه ما ليس فيها من قولهم خلت ، ولتصور
هذا المعنى قال حكيم : إعجاب المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع
ضعف قوة فيظهر فرحه ، والزهو الاستخفاف من الفرح بنفسه ،

وأما العزة : فالترفع بالنفس عما يلحقه غضاضة ، وأصلها من
العزاز وهو الأرض الصلبة فالتعزز من حصوله في عزاز لا يلحقه فيه
غضاضة كالمتظلف في كونه في ظلف من الأرض لا يلحقه مذلة ، والعزة
منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الانسان بقدر نفسه وإكرامها عن
الضراعة للأعراض الدنيوية ، كما ان الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر
نفسه وإنزالها فوق منزلتها وكثيراً ما يتصور أحدهما بصورة الآخر ،
كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة ، وتصور الاسراف
بصورة الجود والبخل بصورة الحزم ، ولهذا قال الحسن رضي الله تعالى
عنه لمن قال له ما أعظمك من نفسك؟ فقال : لست بعظيم ولكنني
عزيز قال الله تعالى : «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»^(٢) وقال النبي
صلى الله عليه وسلم : (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) . ولما قلنا قالوا
التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيهاً على أن هذا التكبر عزة نفس ومن

١- المنافقون ٥

٢- المنافقون ٨

أجل ان هذا التكبر غير مذموم ، قال عز وجل : «يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(١) وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه ، وشطر مروءته .

الباب الثامن

﴿ الفخر ﴾

الفخر : هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الانسان ، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله ، فأعراض الدنيا عارية مستردة ، لا يؤمن كل ساعة أن ترتجع ، فالمباهي بها مباه بغير ثراه ومجج بما في نظر سواه كالفاجرة تجدح بزيتها ، بل هودون من ذلك فقد قال بعض الحكماء لمشر يفتخر بثرائه : إن افتخرت بفرسك فالحسن^(٢) والفراهة له دونك ، وإن افتخرت بأبائك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت هذه محاسنها فما لك من الحسن ، وأيضاً فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قال الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا فرحت * من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل : «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ»^(٣) فان افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك

١ - الأعراف ١٤٦

٢ - الكهف ٤٥

وبقاءه ، أو بقائك وزواله ، أو فناءكما جميعاً ، فإذا رابك ما هولك
فانظر الى قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه اليك ، وطول حسابك
عليه ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله :
«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»^(١)

الباب التاسع

﴿ العجب ﴾

العجب : ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ، ولهذا قال أعرابي لرجل معجب بنفسه : يسرني ان أكون عند الناس مثلك عند نفسك ، وأكون في نفسي مثلك عند الناس ، فتمنى حقيقة ما يقدره المخاطب ورأى ذلك إنما يتم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه ، وقد قيل للحسن من شر الناس ؟ فقال : من يرى أنه أفضلهم ، فقال بعضهم : الكاذب أبعد الناس من الفضل ، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب ، لأنه يكذب بقوله وفعله ، والمعجب أسوأ حالاً منهما فانهما يريان نقص أنفسهما ويريدان اخفائه ، والمعجب أعمى عن مساوئ نفسه فيراها محاسن ويبيديها ، قالوا : والمرائي والكاذب قد ينتفع بهما : كملاح خاف ركابه الغرق من مكان في البحر فيؤديهم ذلك الى العطب ، وقد يحمد رأي الرئيس إذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير ، والمعجب لاحظ له في ذلك بوجه ، لأنك إذا وعظت المرائي والكاذب بنفسهما تصدقك وتبكتهما لمعرفة بنقصهما ،

والمعجب لجهله بنفسه يظنك في وعظه ملغياً فلا ينتفع بمقالك وإياه قصد تعالى بقوله: « أَقْنِ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَأَهُ حَسَنًا »^(١) ثم قال تعالى: « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ »^(٢) تنبيهاً على انهم لا يعقلون لإعجابهم وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه): يقول إبليس: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها ، إذا أعجب بنفسه ، واستكثر عمله ، ونسي ذنوبه ، وكما أن المعجب بفرسه وإن كان رديئاً لا يروم أن يستبدل به غيره ، كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله وإن كانت رديئة بدلاً.

وأصل الإعجاب من حب الإنسان نفسه وقد قال صلى الله عليه وسلم: (حُبُّكُ الشَّيْءِ يَعْمي وَيَصُمُّ ، ومن عَمِيَ وَصَمَّ تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ عَيْبِهِ) ، فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيوناً نعرفنا عيوبنا بحق: قال عمر رضي الله تعالى عنه: رحم الله امرأً أهْدَى إِلَيَّ عَيْبِي ، ويجب على الإنسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع على نفسه ، فإن رأى منها ذلك نزعها ولم يغفل عنها قال الشاعر:

فمن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

والتيه قريب من العجب ، لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهماً والتيه يصدقها قطعاً كأنه متحير في تيه .

١ - فاطر ٨

٢ - فاطر ٨

الباب العاشر

﴿ أنواع اللذات وتفصيلها ﴾

اللذة: إدراك المشتهي ، والشهوة: انبعاث النفس لنيل ما تتشوفه ، وهي ثلاث بحسب القوى الثلاث ، فبحسب المعينات الثلاث .

لذة عقلية: وهي التي يختص الانسان بها كلذة العلم والحكمة ،
ولذة بدنية: يشارك فيها جميع الحيوانات الانسان كلذة المأكل
والمشرب والمنكح .

ولذة يشارك فيها بعض الحيوان الانسان كلذة الرياضة والغلبة ،
وأشرفها وأقلها وجوداً اللذة العقلية ، فشرفها انها لا تمّل وتبذل بها ، لكن
لا يعرفها إلا من تخصص بها ، فالحكمة لا يعرفها إلا الحكيم ، وأدنى
اللذات منزلة وأكثرها وجوداً اللذة البدنية ، فكل انسان يتشوفها وكل
حيوان ، لكنها تمّل تارة وتُراد تارة وهي من وجوه مداواة من آلام ومن
وجوه هي آلام ، وعلى هذا قال الحسن في وصف الانسان : صريع جوع
وقتيل شبع .

وجميع اللذات تنقسم عشرة أقسام : مأكل ، ومشرب ،
ومنكح ، وملبس ، ومشم ، ومسمع ، ومبصر ، ومركب ، وخادم ،
ومرفق من الآلات . وما أشبهها وقد جعل ذلك سبعة وأدخل المركب

والمرفق والخدام من جملة المبصرات ، وعلى ذلك ما روي ان أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه قال لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه وقد رآه يتنفس : علام تنفسك يا عمار ؟ إن كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك ، فاني وجدت لذاتها سبعاً : المأكولات ، والمشروبات ، والمنكوحات ، والملبوسات ، والمشمومات ، والمسموعات ، والمبصرات .

فأما المأكولات : فأفضلها العسل وهو من ذباب .

وأما المشروبات : فأفضلها الماء وهو مباح ، أهون موجود وأعز مفقود .

وأما المنكوحات : فمبال في مبال ، وحسبك ان المرأة تزين بأخس شيء ، وتراد بأقبح شيء منها .

وأما الملبوسات : فأفضلها الديباج وهو نسج دود ،

وأما المشمومات : فأفضلها المسك وهو دم فارة .

وأما المسموعات : فريح هابة في الهواء .

وأما المبصرات : فخيالات صائرة الى الفناء وقد ذكر الله عز وجل أصل ذلك في قوله : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ »^(١) والمشار اليه بحرث الدنيا هذه الأشياء السبعة على ما ذكر أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه ، والعشرة على ما ذكر غيره ، وكلا القولين في التحصيل واحد ، والمراد بالنساء اقتناؤهن والاستكثار منهن ، والبنين الذكر من

الأولاد والحفد والخدم ، وبالانعام الأزواج الثمانية وبالخيل المسومة السائمة منها والمستعدة .

واعلم أن التي هي ضرورية للانسان من هذه اللذات ولا قوام له إلا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان المأكّل والمشرب يجمعهما اسم الغذاء والمنكح ، فبالغذاء بقاء الأشباح ، وبالنكاح بقاء الأنواع ، ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصار تناولهما لا بد للناس منه ، وسائر اللذات مخصوص بها الانسان وليس بضروري له ويتناوله بفكره وتأنف الملوك من هذه الملاذ إلا اثنتين ، السماع لكونه لذة روحانية ، والثناء لكونه دالاً على الهمة الرفيعة ، ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية ، قيل لها : الحرص ، والحرص قد يكون محموداً ولذلك قال تعالى : « حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »^(١) ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها الشره ، سواء كان مالا أو نكاحاً فمتى كانت للطعام ، قيل لها : التّهم ، ومتى كانت للنكاح قيل لها : الشبق ، وثلاثتها أعني الشره والنهم والشبق مذمومة ، وما روي من قوله : منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ، ومنهوم بالعلم ، فالتّهم بالعلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ما تقصر قواه عنه فينبت وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) .

الباب الحادي عشر

﴿ فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه ﴾

الغذاء ضربان :

أحدهما : ما لا يستغنى عنه في قوام البدن كالطعام الذي به يتغذى والماء الذي به يروى ، والانسان إذا تناول من ذلك مقدار ما يمكن التبلغ بأقل منه على ما يجب ، وكما يجب معذور بل مشكور ومأجور ، وعلى هذا ما روي عند أكل الصالحين تنزل الرحمة ، وحقه أن يتناوله تناول مضطر عالم بقذارته ، ويرى ان إدخاله نفسه كدخول المستراح ، ويتحقق أن نسبة الانسان الى الفواكه والثمار نسبة الجعل الى الروث ، فلو نطق الشجر لقال لك : أنت تأكل فضالتي كما يأكل الجعل فضالتك ، والخنزير إذا استطاب لفاظة الانسان فما هو إلا كاستطابتنا لفاظة الشجر ، وبهذا يعلم ان شرف المطعم والمشرب بالاضافة ، لا بالاطلاق ، فألق ايها الانسان عن مناكبك الدثار وحل البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ما قلت ، ومن تناول من الطعام أكثر من ذلك كره له طبياً وشرعاً ،

أما طبياً :

فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

وقد قال صلى الله عليه وسلم : (البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء) وعود كل بدن ما اعتاد ،

وقال ابن زكريا المتطبب : ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم من الطب شيئاً إلا وأتى به في هذه الكلمات الثلاث ، وأما شرعا: فقد قال صلى الله عليه وسلم : (ما من وعاء أبغض الى الله من بطن مليء من حلال) ، وذلك ان امتلاء البطن مقوم للشهوة ، وتقوية الشهوة داعية للهوى ، والهوى أعظم جند للشيطان . ومن أثر هواه انتشر في بدنه وحل في كل عضو منه خرق بقدر وسعه له فكثير جنود الشيطان ، والشيطان إذا تسلط على الانسان سباه من ربه ، وصرفه من بابه . وقيل لحكيم ما بالك مع كبرك لا تتفقد بدنك ، وقد انهذ؟ فقال : لأنه سريع المرح ، فاحش الأثر ، فأخاف أن يجمع بي فيورطني ، ولئن أحمله على الشدائد أحب اليّ من أن يحملني على الفواحش ،

والضرب الثاني من المطعم : ما يستغنى عنه ، ولو توهمناه مفقوداً لم يخلّ بافتقاده البدن ، وأعظمها ضرراً المسكر فنفعه ليس بضروري : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ »^(١) وقيل : حيث الشراب واللهاول تسكن الحكمة والعفة ، فان قيل فقد قال الله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »^(٢) فلم يخص من الحلال قدراً دون قدر ، وجنساً دون جنس ، قيل : الطيب التام هو الذي جمع بين اللذة والنفع والفضيلة ، وذلك هو القدر المتبلغ به على ما يجب وكما يجب ، ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده فقال تعالى : « ذَرُّهُمْ يَا كُلُّوا

١ - المائدة ٩١

٢ - الأعراف ٣٢

وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ^(١) وقال تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ^(٢) ومن الدلالة على خسة كثرة الأكل ، ادعاء العامة الاستغناء بالقليل ، وقلة وجود المفتخر بكثرة الأكل . وقيل : مَنْ هِمَّتْهُ مَا يَدْخُلُ بَطْنُهُ فَقِيَمَتُهُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وقد استحسّن قول الشاعر :

فانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك الا غاية الذم أجمعا

وقال صلى الله عليه وسلم : (حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه فان أبيت فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء) فنبه من الخبرين انه لا يستحب للانسان إلا الأكل في ثلث بطنه ، وهو ما ذكره من اللقيات وذلك دون عشر لقيات ، لأن الجمع بالألف والتاء فيما دون العشر ، ثم رخص لمن يغلب عليه النهم أن يبلغ الى ثلث بطنه ، فحصل من ذلك أن يكون أكل المؤمن في اليوم بحسب شبع بطنه ثلثه .

الباب الثاني عشر

﴿ فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه ﴾

قد تقدم ان النكاح ضروري في حفظ النسل وبقاء النوع ، كما أن الغذاء ضروري في حفظ الشخص ، ولذلك قال صلى الله عليه

١ - الحجر ٣

٢ - محمد ١٢

وسلم: (تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة ، وقال: خير النساء الودود الولود، وقال: (سوداء ولود خير من حسناء عقيم) ولقصد النسل حظر اتيان النساء في محاشها وعلى هذا نبه قوله عز وجل: «نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي سَنُتِمُّ»^(١) فنبه على انه لا يجوز اتيانها إلا في المحرث ، وكره العزل توكيداً للمقصود من الجماع ، وعلى ذلك دل قوله عز وجل: «وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ»^(٢)

وتحري النكاح على ضربين أحدهما: على الوجه الذي سنه الشرع ، وذلك إما محمود وهو أن يتعاطاه قاصداً به النسل ، أو مزيلاً على ما يجب لوجعه ، أو مسكناً لنفسه ، فالماء إذا اجتمع في مقره يدعو صاحبه الى ما هو في الشرع محرم أو مكروه طبا، ان لم يكن قد كره شرعاً ، وذلك أن يتعاطاه المرء فضلاً عما تقدم ذكره، فانه ينفذ العمر ويستنفذ القوى ، ويوسع أوعية المنى ، ويجلب اليها دماً كثيراً ، ويزيده شهوة وأعظم فائدة فيه أن يلحق صاحبه بأفق البهائم من الجاموس والثيران ، ونحوها مما يوصف بالشبق .

والضرب الثاني: هو أن يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان :

أحدهما تعاطيه في المحرث ولكن لا على الوجه الذي يجب وكما يجب كالزنا وقد عظم الله عز وجل أمره فقال: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ»^(٣) ومرة قرنه بالشرك

٣ - النو

١ - البقرة ٢٢٣

٢ - البقرة ١٨٧

وقتل النفس المحرمة فقال عز وجل : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً »^(١) وسمى ذلك سفاحاً من حيث أن المجتمعين عليه لا غرض لهما سوى سفح الماء للشهوة ، كمن ضيع مالا في غير حرثه .

والثاني : تعاطيه في غير المحرث كاللواط ، وهي أعظم من الزنا لأن الزنا وضع البذر في المحرث على غير الوجه المأمور به ، فهو كمن يزرع في أرض غيره ، أو على غير الوجه الذي يجوز أن يزرع فيها ، وفي اللواط مع ذلك تضييع البذر فمتعاطيها ممن قال عز وجل فيه : « وَيَهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ »^(٢) ولهذا وصف الله تعالى قوم لوط بالاسراف فقال : « أَتُنْكِرُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ »^(٣)

وأما العشق الشهوي فحمق وجهل بما وضع لأجله الجماع وتجاوز حد البهائم في عدم ملكة النفس ، وذم الهوى لأن المتعشق لم يرض بارادة لذة الباه التي هي من أسمح الشهوات حتى أرادها من موضع واحد ، فازداد بذلك عبودية وذلة على ذلة ، والبهيمة أحسن حالاً منه ، لأنها إذا أسقطت الأذى عن نفسها بالسفاد ، سكنت فصارت الى الراحة ، وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة واستحلائها ، وإنما أعطاه العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادماً لها وساعياً في حقها ، وتعاطي العشق حال كل

٣ - الاعراف ٨١ ، النمل ٥٥

١ - الفرقان ٦٨

٢ - البقرة ٢٠٥

جاهل فارغ سياً إذا نظر في أحوال العشاق وجالسهم ، وربما يؤدي
الحال العشاق الى الرق والذبول بل الى الموت قال :

لو فكر العاشق في منتهى * معشوقه قصر عن عشقه

ومن أراد شقوته فهو كمن يثير بهائم عارية ، وسباعاً ضارية ،
ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها ، وكفى بما يحتاج من باعث الطبيعة
عن إثارتك بالفكرة والروية ، فمن أعان الطبيعة على ذلك كان كما
قيل :

كلما ركب الزمان قناة * ركب المرء في القناة سناناً

وقال حكيم لتلميذ له هوي جارية : هل تشك في انك تفارقها
يوماً ما ؟ قال نعم قال : فاجعل ذلك المرارة المخترعة في ذلك اليوم في
يومك هذا وارنج ما بينهما من هول اليوم المنتظر وصعوبة ذلك بعد
الاستحكام وانضمام الالفه اليه ، وقيل لبعض الحكماء ما العشق ؟
فقال : جنون لا يؤجر صاحبه عليه ، وسئل آخر عنه فقال : مرض
نفس فارغة لا همة لها ، وقال آخر هو اختيار صادق نفساً فارغة
فأشاروا كلهم الى معنى واحد .

الباب الثالث عشر

﴿ العفة ﴾

العفة لا تتعلق إلا بالقوة الشهوية لا بالملاذ الحيوانية ، وهي
المتعلقة بالغارين البطن والفرج دون الألوان الحسنة ، والألحان الطيبة

والأشكال المنتظمة . فان قيل : فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم ألا ترى ان الذئب يستطيب ريح الغنم ، والكلب يستطيب ريح الأرنب ، وقيل : استطابتها لذلك استطابة للأكل ، والذي قلناه من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لأجل غيره ، وما هو لأجل أحد الغارين فحكمه حكمهما ، كاستطابة الانسان ريح السكباغ ،

فثبت أن العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية ، وهي الحالة المتوسطة بين افراط هو الشره ، وبين تفريط هو جمود الشهوة ، وهي أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يغطي على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمه العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول الى المحاسن ،

وأسها يتعلق بضبط القلب عن الشهوات البدنية ، وعن اعتقاد ما يكون جالباً للبغي والعدوان ،

وتماها يتعلق بحفظ الجوارح ، فمن عدم عفة القلب والعقل يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة ، لأن من تمنى ما في يد غيره حسده ، فاذا حسده عاداه ، وإذا عاداه نازعه ، ومن نازعه ربما قتله ، ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى ، ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما جميعاً فقال : « وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ »^(١) وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنْ

الظَّنَّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ^(١) فامر فيهما بقطع أصل شجرتين يتفرع
عنهما جل الرذائل ، ولا يكون الانسان تام العفة ، حتى يكون عفيف
اليد واللسان والسمع والبصر ،

فمن عَدَمَهَا في البصر مدّه العين الى المحارم وزينة الحياة الدنيا
المولدة للشهوات الرديئة .

ومن عَدَمَهَا في السمع ، الاصغاء الى المسموعات القبيحة وعماد
عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يخص كل واحد
منها إلا فيما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى .

واعلم انه لا يكون المتعفف عفيفاً إلا بشرائط وهي : أن لا يكون
تعفّفه عن الشيء انتظارا لأكثر منه ، أو لأنه لا يوافقه أو لجمود شهوته أو
لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير
عارف لقصوره فان ذلك كله غير عفة بل هو اصطيد أو تطبب أو مرض
أو خرم أو عجز أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها
عن الغضب ، والشهوة مغتالة مخادعة . والغضب مغالب ، والمنحسر
عن قتال المخادع أدرأ حالا من المنحسر عن المغالب . ولهذا قيل : عبد
الشهوة أذل من عبد الرق ، وأيضاً فالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بمدينة
لها ستة أبواب رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها وليس من تعاطى
قبيحاً يعرفه كمن تعاطاه وهو يظنه حسناً .

الباب الرابع عشر ﴿ القناعة والزهد ﴾

القناعة: الرضا بما دون الكفاية . والزهد: الاقتصار على الزهد أي القليل ، وهما يتقاربان ، لكن القناعة تقال اعتباراً برضا النفس ، والزهد يقال اعتباراً بالمتناول لحظ النفس ، وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ، ولذلك قال بعض الصوفية: القناعة أول الزهد ، تنبهاً على أن الانسان يحتاج أولاً الى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطي الزهد ، والقناعة هي الغنى في الحقيقة .

والناس كلهم فقراء من وجهين أحدهما: لافتقارهم الى الله عز وجل كما قال تعالى: «يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»^(١) والثاني لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة ، فمن سد مفارقة بالمقتنيات فما في انسدادها طمع ، فهو كمن يرقع الخرق بالخرق ، ويسد الفقر بالفقر ، ومن سدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على ضرورياته فهو الغني والمقرب الى الله تعالى . كما أشار تعالى اليه فيما حكى عن طالوت: «إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا

مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ»^(١) ولأن الغنى هو عدم الحاجة فأغناهم أقلهم حاجة، ولذلك كان الله سبحانه أغنى الأغنياء، لأنه لا حاجة به الى شيء وعلى هذا نبه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (ليس الغنى من كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس) . ومن أبيات الحكمة :

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة * فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً
والخير بين أن يستغني عن الدنيا، وبين أن يستغني بها،
كالمخير بين أن يكون مالكاً أو مملوكاً ، وقوياً أو ضعيفاً ، ومعافى أو
مبتلى ، وميتاً أو حياً . فمتى اختار الاستغناء بها فقد اختار أن يكون
مملوكاً وضعيفاً وميتاً ومبتلى ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :
(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا
انتكش) وقيل لحكيم لم لا تغتم ؟ فقال : لأنني لم أجد ما يغمني .

واعلم أن الزهد ليس من ترك المكاسب في شيء ، كما توهمه
قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة ، فان
ذلك يؤدي الى خراب العالم ، ومضادة الله عز وجل فيما قدر ودبر ،
وقد تقدم .

والزهد من وجه صبر ومن وجه جود .

والجود ضربان : جود بما في يدك متبرعاً . وجود عما في يد غيرك
متورعاً . وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف
الدنيا ما هي ، ويعرف عيوبها وآفاتنا ويتحقق ما يستغني عنها ويعرف
الآخرة ، وافتناره اليها ، ولأجل انه لا بد في ذلك من العلم قال تعالى :

« قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ إِنَّهُمْ لَذَوُّ حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ » (١) ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الآخرة فهو يبيعها بها ، ثم قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ » (٢) ومحال أن يبيع كيس عينا بأثر إلا إذا عرفها عارف وعرف فضل المتاع على المبيع . وقيل لبعض الزهاد ما أزهك وأصبرك ؟ فقال أما زُهدى فرغبة فيما هو أعظم مما هو أعظم مما أنا فيه ، وأما صبري فلجزعي من النار .

الباب الخامس عشر

﴿ الورع ﴾

الورع : أصله جن وضعف ، وقد يستعمل في كل واحد منهما لكن ، جعل في عرف الشرع لترك التسرع الى تناول أعراض الدنيا وذلك على ثلاثة أضرب :

واجب : وهو الاحجام عن المحارم ، وذلك للناس كافة .
ونَدْب : وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأواسط ،

وفضيلة : وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل

١ - القصص ٧٩ - ٨٠

٢ - التوبة ١١١

الضرورات ، وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا يكون العبد من الصالحين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس) وقال باعتبار المنزل الثاني لما قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم (ما أيسر الورع اذا شككت في شيء فدعه) .

الفصل الرابع

﴿ فيما يتعلق بالقوى الغضبية ﴾

الباب الأول

﴿ ما يتبع من القوى الغضبية ﴾

الحمية : قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فتولد منه ثلاثة أحوال ، وذلك لأنها إما تتحرك على من فوقه ، أو على من دونه ، أو نظيره ، فان كان ذلك على من فوقه ممن يظن انه لا سبيل له الى الانتقام تولد منه انقباض الدم وذلك هو الجزع . وإن كان على من دونه ممن يظن ان له سبيلاً الى الانتقام منه تولد منه انقباض الدم ، وتردده بين الانقباض والانبساط وذلك هو الحقد ، ولكون الغضب والغم بالذات واحداً واختلافهما بالاضافة ، سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنه فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع قادراً عليه أظهره غضباً ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزناً ، ومنه قول الشاعر :

• فحزن كل أخي حزن أخو الغضب •

والانبساط: دم القلب للحقد يحمي وجهه تارة وذلك إذا كثر واشتد غضبه ، كنار في غار فيسود جوّه ، والانقباض دم الجزع عن ظاهر الجلد واجتماعه في القلب يصفر وجهه حتى ربما يهلك من ذلك ، والتردد دم الحقد بين هذه الأحوال يحمر ويصفر ويسود ، والحرْدُ هو الغضب لكن يستعمل إذا كان معه قصد المغضوب عليه، ولذلك يقال: حرد حرد الأسد.

الباب الثاني ﴿أنواع الصبر ومدحه﴾

الصبر ضربان: جسمي ونفسي .

فالجسمي: هو تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ، ونهايته المعلومة وأكثرها لذوي الجسوم الخشنة وليس ذلك لفضيلة تامة قال:
والصبر بالأرواح يعرف فضله * صبر الملوك وليس بالأجسام
وذلك في الفعل ، كالمشي ودفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الصرف والقطع ،

والثاني: نفسي وبه تعلق الفضيلة ، وذلك ضربان: صبر عن تناول مشتهى ، ويقال له العفة ، وصبر على تحمل مكروه أو محبوب ، وذلك تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه ، فإذا كان ذلك في نزول مصيبة فانه مما استعد به اسم الصبر ، ويضاده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال غنى فقد سمي ضبط النفس ويضاده ^(١) الدَّقْعُ والبَطَرُ

وان كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب، سمي حليماً ، ويضاده التذمر ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم ، وإن كان في امساك كلام في الضمير سمي كتمان السر ، ويضاده الافشاء ، وإن كان في الامساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضاده الحرص والشره ، ولكون الصبر عاماً قال عز وجل : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس »^(١) فذكر انهم يصبرون في البأساء أي الفقر ، وفي الضراء أي المصيبة ، وحين البأس أي المحاربة ، قال بعضهم : يقال ضبط النفس في الأشياء المملذة ، والصبر يقال في الأشياء المحزنة ، وقال بعضهم : بل هما من الأسماء المترادفة على معنى واحد ، إن قيل ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصبر نصف الايمان) ، قيل لما كان جميع المحامد ضرين . ترك الشر ويعبر عنه بالصبر ، وفعل الخير ويعبر عنه بالشكر . صار الصبر الذي هو ترك الشر نصف الايمان .

الباب الثالث

﴿ الشجاعة ﴾

الشجاعة :

إن اعتبرت وهي من النفس ، فصرامة القلب على الأهوال وربط

الجأش في المخاوف ، وإن اعتبرت بالفعل فالأقدام على موضع الفرصة ، وهي فضيلة بين التهور والجبن ،

وتولدها من الغضب والفرع إذا كانا متوسطين ، فإن الغضب قد يكون مفرطاً ، كمن يحتدم سريعاً من أشياء صغيرة ، وقد يكون مفرطاً كمن لا يغضب على حرمه وشم أبيه وأمه ، وقد يكون متوسطاً على ما يجب في وقت ما يجب وبقدر ما يجب ، وكذلك الفرع يكون مفرطاً فيتولد منه الجبن الهالـع . ومفرطاً فيتولد منه الوقاحة والغفارة كمن لا يفزع من شتم أبيه وتضييع حرمه وأصدقائه ، وقد يكون متوسطاً كما يجب ، وبقدر ما يجب ، لكونها أعني الغضب والفرع على حالتين محمودة ومذمومة ، صارا يـحمدان تارة ، ويذمان تارة ، فإن الغضب في نحو قوله عز وجل : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ »^(١) والفرع في نحو قول الشاعر : * غضبت لظلمه الخ . محمودان والتهور : هو الثبات المذموم في الأمور المعطبة .

وأنواع الشجاعة .

خمسة سبعة ، كمن أقدم لثوران غضب وتطلب غلبة وبهيمة : كمن حارب توصلـا الى مآكل أو منكح ، وتجريبية : كمن حارب مراراً فظفر فجعل ذلك أصلاً يبنى عليه ، وجهادية : كمن يحارب ذباً عن الدين ، وحكمية : وهي ما تكون في كل ذلك عن فكر وتميز وهيئة محمودة بقدر ما يجب على ما يجب ، ألا ترى كيف يـحمد من أقدم على كافر غضباً لدين الله ، أو طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، أو اعتماداً

على ما رأى من إنجاز الله تعالى وعده في نصره أوليائه ، فان كل ذلك محمود ، وإن كان محض الشجاعة أن لا يقصد بالاقدام حَوْز ثواب ودفع عقاب . فقد قيل : مَنْ عَبْدَ الله بعوضٍ فهو لثيم ،

والفرق بين المقدم في الحرب لمحض الحكمة واخلاص الدين ، وبين المقدم لغير ذلك . أن المقدم لغير الحكمة والاخلاص يخاف الموت أكثر مما يخاف المذمة ، والمُقَدِّم للحكمة والاخلاص بالضد من ذلك فإنه يختار الموت الحميد على الحياة الذميمة . ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه : أيها الناس إن لم تُقْتَلُوا تَمُوتُوا ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش .

ومن الشجاعة المحمودة : مجاهدة الانسان نفسه أو غيره ، وكل واحدة منهما ضربان : مجاهدة النفس بالقول ، وذلك بالتعلم . وبالفعل ، وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية . ومجاهدة العين بالقول . وذلك بتعين الحق وتعليمه . وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب .

الباب الرابع

﴿ أسماء أنواع الفرع والفرق بينهما وما يحمد منهما ويذم ﴾

الفرع والجزع إخوان ، لكن الفرع ما يعتري الانسان من الشيء الخفيق ، والجزع ما يعتري من الشيء المؤلم ، والفرع لفظ عام

سواء كان عارضاً عن أمانة أو دلالة ، ومتى كان عن شيء يضر فهو الفرق والذعر ، ومتى كان الخوف محبوباً ، فهو الاشفاق ولهذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ »^(١) .

والخوف: توقع مكروه عن امانة ، والخشية خوف يشوبه تعظيم المخشى مع المعرفة به ، ولذلك قال تعالى : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ »^(٢)

والوجل: استشعار عن خاطر غير ظاهر ليس له أمان قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ »^(٣) الآية والرغبة مع تحرز واضطراب لتضمن الاحتراز قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُوكُمْ »^(٤)

والهيبة: رهبة جالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ولذلك يستعمل في كل محتشم قال الشاعر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة * علي ولكن ملء عين حبيبها

وهذه الأشياء قد تدم باعتبار الأمور الدنيوية ، وتحمد باعتبار الأمور الأخروية ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »^(٥) وقال : « وَإِنِّي فَأَرْهَبُوكُمْ »^(٦) وقال : « إِنَّمَا يَخْشَى

٤ - البقرة: ٤

٥ - الحج ٣٥

٦ - البقرة ٤٠

١ - الطور ٢٦

٢ - ق ٣٣

٣ - المؤمنون ٦٠

اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَكَا»^(١).

والخوف من الله تعالى ليس يشار به الى ما يخطر في البال من الرعب ، كاستشعار الانسان الرعب من الأسد . وإنما يشار به الى ما يقتضيه الخوف، وهو الكف عن المعاصي ، ولذلك قيل : لا تعدن جائعاً من لا يترك الذنوب وقال تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ»^(٢) أي لا تفعلوا ما يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما يقتضيه خوفي ، إن قيل كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله : «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^(٣) قيل : أما الممدوح فهو مقتضاهما ، وذلك باقامة العبادات ، وأما المنفيان عنهم ، فهما اللذان يكونان من الأشرار .

الباب الخامس

﴿ مداواة الغم وإزالة الخوف ﴾

حق الانسان أن يعلم أن الدنيا جمة المصائب ، ريقة المشارب ،
تثمر للبرية أضعاف البلية ، فيها مع كل لقمة غصة ، ومع كل جرعة
شرقة ، فهي عدوة ومحبوبة ، كما قال أبو نواس
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف * له عن عدو في ثياب صديق

١ - فاطر ٢٨

٢ - آل عمران ١٧٥

٣ - يونس ٦٢

وكما روي عن الحسن انه قال : ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال
كثير:

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة * لدنيا ولا مقلية ان تقلت
فما أحد فيها إلا وهو في كل حال غرض لاسهم ، ثلثه سهم
بلية ، وثلثه سهم رزية ، وثلثه سهم منية .

تناضله الآفات من كل جانب * فتخطأه يوماً ويوماً تصيبه

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب ، أو فوت
مطلوب ، ولا يسلم منهما انسان لأن الثبات والدوام معدومان في عالم
الكون والفساد ، فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه فهو غير
عاقِل لأنه يريد أن يملك ما لا يملك ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحق المرء
أن يخلي قلبه من اعتبار ما يرى من الارتجاع لودائعها من أربابها ،
وحلول توادعها بأصحابها ، وما أحسن قول ابن الرومي :

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه * كفاحاً إذا فكرت في الخلوات
فما لك كالمرمي من نائل له * بنبل أته غير مرتقبات
فان قلت مكروه أتى فجأة به * فما فوجئت نفس مع الخطرات
ولا عوقبت نفس بسلوى وقد رأت * عظات أتها ثم بعد عظات
إذا بعثت أشياء قد كان مثلها * قديماً فلا تعتدها بغتات
ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل لحكيم
لم لا تغتم ؟ فقال : لأنني لم أقتن ما يغمني فقدته ، فقد أخذه من
الشاعر حيث قال :

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً

وقيل لحكيم هل للانسان أن يعيش آمناً؟ قال: نعم إذا احترس من الخطيئة وقنع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لا محالة .

واعلم ان الجزع على ما فات لا يلد ما يشعث ، ولا يبزم ما انتكت كما قال * وهل جزع أحد عليّ فاجزعا *

فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : . اما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن .

فان كان على ما هو ممتنع كونه ، فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبل الواجب كونه كالموت الذي هو حتم في رقاب العباد ،

وإن كان ممكناً كونه ، فان كان من الممكن الذي لا سبيل الى دفاعه كما كان الموت قبل الهرم . فالحزن له جهل واستجلاب غم الى غم ،

وإن كان من الممكن الذي يصح دفعه ، فالوجه أن يحتال الى دفاعه بفعل غير مشوب بحزن فان دفعه وإلا تلقاه بصبر ، وليتحقق قوله عز وجل : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ »^(١) فمن علم أن ما جرى في حكمه وسبق في علمه لا سبيل الى أن لا يكون هانت عليه النوب .

واعلم أن الذي يغر الناس حسن ظنهم باغترار الآفات ، واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات ، ولو تأملوها لتحققوا انها

كما قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه : ما قال الناس لقوم طوبى لكم
إلا وقد خبأ الدهر لهم يوم سوء ، شعر :

إن الليالي لم تحسن الى أحد * إلا أساءت اليه بعد إحسان

وأما سبب الاغتمام بالموت فلا يتفك من أربعة أوجه .

إما لشهوة بطنه وفرجه أن تفوت .

وإما على ما يخلفه من ماله .

وإما على جهله بماله .

وإما خوفاً مما قدمه من عصيانه .

فإن كان ذلك لخوفه على شهوة بطنه وفرجه أن تفوت ، فليعلم ان
ذلك كمشته داء ليقابله بداء مثله ، فان الانسان لا يستلذ بالطعام حتى
يجوع ، والجوع داء مهروب منه وشبعه داء مهروب منه ، فمثل من
يجب الجوع ليستطيب بعده الأكل ، كمن يستطيب القعود في الشمس
ليناله الحر ، ثم يستطيب القعود في الظل ، فمحنة ذلك رقاعة لا تحدد
ولا تعد .

وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله ، فذلك لجهله بخساسة
الأعراض الدنيوية ، وكونها تجمع كل بلية وبنفاسة الأملاك الحقيقية
التي وعد المتقون بها .

وإن كان لجهله بما له فلعدم مداولته العلم والمعرفة الحقيقية التي
تريه حال ما للانسان بعد الموت ، كما قال حارثة للنبي صلى الله تعالى
عليه وسلم : كأني أنظر الى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر الى أهل
الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار يتعاونون فيها .

وإن كان خوفاً لما قدمه من عصيانه فدواؤه المبادرة بالتوبة وكفاه
إن كان ذا بصيرة ما جعله الله له سبيلاً من تدارك ما فرط منه وما وعد
التائبون .

الباب السادس

﴿ أحوال الناس في محبة الموت والاحتيا لقللة المبالاة به ﴾

الناس في ذلك على ثلاثة أضرب :

الأول : حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه ، وإن
الانسان في هذا العالم وإن طال فيه لبثه فهو لحظة برق لمعت في آفاق
السماء ، ثم عادت للاختفاء ، وانه في دنياه كمبعوث الى ثغر يحوطه
وبلد يسوسه ، يراعي ما استرعى ويسر بدعائه إذا دعي ، ولا يكاد يود
خروجه منها إلا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد من تقربه
والاشفاق مما يقول ، ويقال له كما قال بعض الصالحين ، وقد روي منه
جزع عند الموت فقال : جزعي أن أسلك طريقاً لم أعهده ، وأقدم
على رب لم أره ، ولم أدر ما أقول وما يقال لي .

الثاني : والناس رجلٌ ألف هذا العالم وإن كرهه ، فسبيله سبيلٌ
من ألف بيتاً مظلماً قدراً ولم ير غيره ، فهو يكره الخروج منه وإن كان قد
كره دخوله فيه كما قال :

دخلنا كارهين لها فلما * ألفتها خرجنا مكرهين

وما حب البلاد بنا ولكن * أمر العيش فرقة من هوبنا

وحقٌ ما قيل : لو رضي الناس بأرزاقهم رضاهم بأوطانهم ، لما
شكا أحدٌ فقره ، فهذا متى خرج من دنياه ، واطلع على ما أعد
للمصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، سرٌّ
بخلاصه كما حكى الله سبحانه وتعالى عمن استقر به القرار في جنة
النعيم حيث قالوا: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ »^(١)

والثالث: رجل أعمى البصيرة متلطف السريرة عما ارتكبه من
أنواع الجريمة رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ، ويش من الآخرة كما
يش الكفار من أصحاب القبور ، فاذا خرج منها الى دار الخلود أضر
ذلك به * كما تضر رياح الورد بالجعل ، فاذا خرج من قاذورات الدنيا
لم يوافقه عالم العلا في مصاحبة الملاء الأعلى ومنادمة أولي العلا
فيعمى ، كما قال تعالى: « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
أَعْمَى »^(٢) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة
الكافر) . فان من تربى في هذا العالم بغذائه من العلم والعمل
الصالح جدير بأن لا يشتاق اليه بعد خروجه منه ، وإن خرج كارهاً كما
لا يشتاق الى بطن أمه بعد الخروج منه . ويدلك على انه خرج من بطن
أمه كارهاً بكأؤه قال بعض العلماء: أول ما يسئل الصبي عن غمه عند
سقوطه لما يضغطه من مضيق خروجه ويصبيه من ألم الهواء فيتوجع ،

١ - فاطر ٣٤

٢ - الاسراء ٧٢

والوجع يورثه الغم والغم يحمله على البكاء ، وقال : ان للصبي كل ما يكون للحيوان غير التعلق بالألم واللذة والجوع والعطش ، وقال ابن الرومي :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وانها * لأفسح مما كان فيه وأرغد

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما أحد إلا والموت خير له من الحياة ، لأن الله تعالى قال في الأخيار : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ بَرَّارٍ »^(١) وقال في الأشرار : « إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا »^(٢) وقيل : الصالح إذا مات استراح من الدنيا ، والطالح إذا مات استراحت منه الدنيا ، قال بعض الصالحين : من قال لغيره صانك الله من نوب الأيام وصروف الزمان فانه يدعو عليه بالموت ، لأن الانسان لا ينجو من ذلك إلا بعد خروجه من دار الكون والفساد . وقال بعض الصوفية ، حق ملك الموت أن يحبه المسلم من بين الملائكة ، فانه يفصل حياته الأبدية من حياته البدنية ، ولهذا أمرنا أن نقول في دعائنا : اللهم صل على جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ، وان جبريل ومكائيل سبب لانبائنا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد ، فاذن حقه عظيم وشكره لازم .

وقد حكى أن قوماً من الأوائل كانوا يعظمون زُحَلْ ، وقالوا : انه لا يعين على الحياة العرضية ، بل هو سبب إنقاذنا من الدنيا الدنية .

١ - آل عمران ١٩٨

٢ - آل عمران ١٧٨

وقال بعض الأولياء في مناجاته : إلهي إن سألتك الحياة في دار
المئات فقد رغبت في البعد عنك ، وزهدت في القرب منك ، فقد قال
نبيك وصفيك : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله
كره الله لقاءه ، وقال بعضهم : إن كان في قلة الحياة الدنيوية غنى ففي
انقطاع الحاجة كلها الغنى الأكبر ، ولا انقطاع لها إلا بمفارقة الدنيا التي
هي سبب فاقتنا والعبودية لغير الله تعالى ، وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة
والتخصص بعبودية غير رب العزة ، والموت سبب نقص ذلك
الانسان ، ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم ، ومن
كره الموت أخرج من الدنيا كارهاً فيكون كعبد أبى رداً الى مولاه
مأسوراً ، وقيد الى حضرته مقهوراً ، وشتان ما بين عبد دعاه مولاه فأتاه
طوعاً ، وعبد أبى أسرفأتى به قسراً وحق العاقل أن يكثّر من ذكر
الموت ، فذكره للموت لا يقرب أجله ، ويفيده ثلثي القناعة بما رزق
والمبادرة بالتوبة والنشاط في العبادة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
(أكثر وأذكر هاذم للذات ، فانه ما ذكره أحد وكان في ضيق إلا وسعه
عليه ، ولا في سعة إلا ضيقها عليه) . وقيل ذكر الموت يطرد فضول
الأمّل ، ويكف عرق المنا فيهن المصائب ، ويحول بين الانسان
والطغيان .

الباب السابع

﴿ السرور والفرح ﴾

السرور: انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلاً

وآجلاً وذلك في الحقيقة لا يكون إلا إذا لم يخف زواله ، لا يكون إلا في القنيات الأخروية ، ولذلك قيل : لا سرور في الدنيا على الحقيقة ،

والفرح : انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة ، وذلك في اللذات البدنية الدنيوية ولهذا قال عز وجل : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »^(١) والفرح يدعو الى النشاط والنشاط الى المرح ، والمرح الى الأشر ، والأشرمقدمة البطر ، وأكثر ما يحدث ذلك في الأحداث والصبيان يقدر ما يغلب عليهم من الغفلة ، وقد ذمه سبحانه وتعالى بقوله : « وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^(٢) وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »^(٣) وقال تعالى : « ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ »^(٤) وقال تعالى : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »^(٥)

وقد يسمى الفرح سروراً والسرور فرحاً ، لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق ويتصور أحدهما بصورة الآخر ، ولذلك قيل من طلب السرور كان خارجاً منه لم ينله .

الباب الثامن

﴿ العذر والتوبة ﴾

المذنب إذا عوتب أو خاف العنف لا ينفك عن وجهين :

- ٤ - غافر ٧٥
٥ - المؤمنون ٥٣

- ١ - الحديد ٥٧
٢ - الرعد ٢٦
٣ - القصص ٧٦

أما أن يكون مصرّاً ، أو معتذراً .

فأما المصر فقد يستحسن في بعض الأحوال التجافي عنه ، وقد سمع رجل حكياً يقول : ذنب الاصرار أولى بالاعتفاء ، فقال : صدق ليس فضل من عفا عن السهو القليل ، كفضل من عفا عن العمد الجليل .

وأما المعتذر: فهو المظهر لما يحويه الذنب وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه :

إما أن يقول: لم أفعل .

أو يقول: فعلت لأجل كذا فبين ما يخرج به عن كونه ذنباً .

أو يقول: فعلت ولا أعود ، فمن أنكر وأناب عن كذب ما نسب إليه فقد برئت ساحته ، وإن فعل وجحد فقد يعد التغابي كرمًا ، وإياه قصد الشاعر بقوله

تغابي وما بك من غفلة * لفرط الحياء وفضل الكرم

ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك ، قال بعض البلغاء: تجاوز عن مذهب لم يسلك بالاقرار طريقاً حتى أخذ من رجائك رفيقاً ، وإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة ، والانسان حقه أن يقتدي بالله في قبولها .

وللتوبة شرائط فرضاً ونفلاً .

ففرضها: ترك الذنب مع عدم العود اليه ،

ونفلها: التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له ، وترك

بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان .

واعلم أن للمذنب التائب إذا تاب توبة نصوحاً فضيلة على من لم يذنب من ثلاثة أوجه :

الأول : لأنه جرب العيوب والذنوب ، وعرف مداخل الشيطان على الانسان ، فيكون أهدي الى الاحتراز فقد قيل لحكيم : فلان لا يعرف الشر ، فقال : ذاك أجدر أن يقع فيه ،

والثاني : أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتي مولاه خزياناً منكسراً ، ومن لم يذنب ربما يعجب بنفسه ، ويذل بفعله وليس خدمة عبد عصي ملكاً وخرج عليه خارجياً ، ثم عاد اليه وجلا فتجوفي عنه كخدمة مدل بطاعته ،

والثالث : ان التائب حلب الدهر بشطريه خيره وشره وحلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين ، وأوفق لهم وأصلح للرياسة ممن يظن ان الذنب خارج عن الطبيعة الانسانية فيعجب بنفسه ويزري بغيره .

الباب التاسع

﴿ الحلم والعفو ﴾

الحلم : إمساك النفس عن هيجان الغضب .

والتعلم : إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج ، ولما كان الحلم عن تأثير العقل وغير منفك عنه صار يعبر به عن كل عقل ظهر فعلاً

كقوله عز وجل في ذم الكفار على سبيل التعجب منهم: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا»^(١) ومتى استعمل الحلم في الباري تعالى فانما يراد
العمل بمقتضاه وهو العفودون انفعال يعرض له ، ولن يتم حلم
الانسان إلا بامساك الجوارح كلها ، اليد عن البطش ، واللسان عن
الفحش ، والعين عن فضولات النظر ، وأقرب لفظ يستعمل في ضد
الحلم التذمر ،

وأما العفو والصفح: فهما صورتا الحلم ومخرجاه الى الجود
فالعفو ترك المؤاخذه بالذنب ، والصفح ترك التثريب ، واشتقاقه من
تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوبه أي الاعراض بصفحة الوجه عن
التلفت الى ما كان منه ، وهو محمود إذا كان على الوجه الذي يجب ، فقد
قال تعالى: «فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ»^(٢) فحضر تنبيهاً على ما يحمل
منه، وقد حث الله تعالى على ذلك بقوله: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ»^(٣) فأمر بالحلم والعفو وقال تعالى: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا»^(٤)
وقال تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»^(٥) وقال:
«فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٦) والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت
الإساءة مخصوصة بالعافي كمن أخذ ما له أو شتم عرضه . فأما إذا كانت
الإساءة عائدة بالضرر على الشرع ، أو على جماعة الناس ، فانه إن كان
فيها أدنى شبهة فللسلطان العفو ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (ادرؤا
الحدود بالشبهات) ، فان لم تكن ذات شبهة فليس عفواً ، ولذلك قال

٤ - النور ٢٢

٥ - المائدة ١٣

٦ - الشورى ٤٠

١ - الطور ٣٢

٢ - الحجر ٨٥

٣ - آل عمران ١٣٤

الله تعالى في الزنا: « وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »^(١)

وحق المعاقب أن لا يكون سبعا في انتقامه بل لا يعاقب حتى
يزول سلطان غضبه لئلا يقدم على ما ليس بواجب ،

ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جرمه
ويعيد النظر فيه ،

قال بعضهم ينبغي للسلطان أن يؤخر العقوبة حتى ينقضي
سلطان غضبه ، ويعجل مكافأة المحسن ، ويستعمل الأناة فيما يحدث ،
فتأخير العقوبة فيه إمكان العفو ان أحب ذلك ، وفي تعجيل المكافأة
بالاحسان مسارعة الأولياء الى الطاعة ، أتى الاسكندر بمذنب فصطح
عنه فقال : بعض جلسائه لو كنت إياك لقتلته فقال : فاذا لم أكن أنا
إياك ولا أنت إياي فكيف قتله ، وانتهى الى بعض أصحابه فوجده
يغتابه فقال بعض جلسائه : لو انهكته عقوبة ، فقال : اذن أبسط عذرا
ولسانا في اغتيابي .

واعلم أن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفي يلحقها
ذم الندم والعقوبة ألام حالات ذي القدرة وهي طرف من الجزع ، ومن
رضي أن لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فليتنصف ، وقد نبه الله
تعالى على ذلك بلطيف من المقال فقال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »^(٢)

١ - النور ٢

٢ - الشورى ٤٠

فسمى مجازاة المسيء بإساءته إساءة وقال تعالى: « فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »^(١) فسمى المجازي على الاعتداء معتدياً تنبيهاً على انه قد كاد يكون إياه ،

والعقوبات بين الناس أقبحها ما كان فيما لم يظهر بالفعل ، فقد قال بعض الملوك: إنما غمك الأجساد دون الضمائر، ونفحص عن الظواهر لا عن السرائر ، ثم من سلم ظاهره احتمل جرائمه ، فقد يهفو المرء وآيته سليمة ، ويزل وطريقته مستقيمة .

الباب العاشر

﴿ ثوران الغضب وفضل كظمه ﴾

الغضب بمنزلة نار ما يشتعل ، والناس يختلفون فيه ، فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضي بطيء الخمود بطيء الوقود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم بعكس ذلك وهو أحدهم ما لم يكن مفضياً به الى زوال حميته وفقدان غيرته ، واختلافهم تارة يكون بحسب الأمزجة ، فمن كان طبعه حاراً يابساً يكثر غضبه ، ومن يكون بخلافه يقل ، وتارة يكون باختلاف العادة في الناس من تعود السكون والهدوء وهو المعبر عنه بالذللول والهين واللين ، ومنهم من تعود الانزعاج والطيش فيحتد بأدنى ما يطرقه ، ككلب يسمع صوتاً فينبج قبل أن يعرف ما هو .

وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجراً
الشيخوخة ، وأجل الناس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من
كظم الغيظ ، وعلى ذلك دل قوله عز وجل : « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »^(١) وقال عليه الصلاة والسلام
وقد مر يقوم يرفعون حجراً : (ألا أخبركم بأشدكم ، من ملك نفسه
عند الغضب) .

واعلم أن نار الغضب متى كانت عتيقة تأججت واضطربت
واحتد منه غليان الدم في القلب وامتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً
مضطرباً يسوء منه حال العقل ويضعف به فعله ، فكما ان الكهف
الضييق إذا مليء حريقاً اختنق فيه اللهب والدخان وعلا منه الاجيج
فيصعب علاجه واطفاؤه ، ويصير كل ما يدنو منه مادة لقوته ، وكذلك
النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشد وصمت عن الموعدة فتصير
مواعدة مادة لغضبه ، ولهذا حكى عن ابليس انه قال : متى أعجزني
ابن آدم فليس يعجزني إذا غضب ، فانه ينقاد لي في كل ما أبتغيه ويعمل
بما أريده وأبتغيه ، وقيل الغضب : حزن ساعة وربما أدى الى تلف وهو
اختناق حرارة في القلب ، وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية الى
التلف ، وأسباب العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاج والتهيه
والضيم والاستهزاء وطلب ما فيه التنافس وشهوة الانتقام ، وحق من
اعترفته غضبيته أن يتفكر فان كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى
لاستشاضته إذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجأش ، فان كان

غضبه على من لا سبيل له فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل بالواجب . وقال حكيم : سد طرس الغضب قبل تلهب ناره في لحمك ودمك ، فانما يمكن اطفائها قبل انتشارها ، فأما إذا انتشرت فلا سبيل الى إطفائها ، وقال سلطان لحكيم : كيف لي ان لا أغضب؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذاكراً انه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط ، وأن تخدم لا أن تخدم فقط ، وأن تحمل لا أن تحمل فقط ، وأن تتحقق بأن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فعلت ذلك لم تغضب ، وإن غضبت غضبت قليلاً .

الباب الحادي عشر

﴿ الغيرة والحوار ﴾

الغيرة: ثوران الغضب حماية على إكرام الحرم ، وأكثر ما يراعى في الحرم والنساء ، وجعل الله سبحانه هذه القوة في الانسان سبباً لصيانة الماء وحفظاً للأنساب ، ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نساها ، وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الانسان صيانتة في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه ، وسياسة منزله وأهله ، وسياسة مدينته وضيعته ، ولذلك قيل : ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل مختص به ، وقيل الغيرة: الذب عن كل ضعيف ، وتسمى كراهة النعمة عند من لا يستحقها غيرة ، والغيرة وان كانت قوة إنسانية فواجب كونها في كل جيل ، فقد كثرت في العرب ، حتى ان من دخل دار أحدهم والتجأ الى

فناؤه عدواً فعله حرمة وجواراً وذماراً، بل أن تعلق ذلك بالوحشيات والهوام حتى كان يسمون بذلك مجير الجراد، ومجير الغزال، ومجير الذئب، وسمي الغضب المقتضي للغيرة الحفيظة فقالوا: أحفظني فلان أي أغضبني الغضب الذي أثار مني قوة الحفظ.

الباب الثاني عشر

﴿ الغبطة والمنافسة والحسد ﴾

الذي ينال الانسان بسبب خير يصل الى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله هو الغبطة، وإن كان في ذلك سعي منه في أن يبلغ هو مثله من ذلك الخير أو ما فوقه فمنافسة، وكلاهما محمود وإن كان مع ذلك يتمنى زوال ما بصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد،

والحسد: تمنى زوال نعمة مستحقة من غير أن يكون طالباً ذلك لنفسه، ولذلك قيل: الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه، قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن يغبط والمنافق يحسد). فحسد الغبطة، وقال تعالى: «وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ»^(١) فحثنا على التنافس إذ هو الباعث لنا على طلب المحاسن وذلك كقوله تعالى: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ»^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ينجو منها أحد، الظن والطيرة والحسد، وسأخبركم بالمرجع من ذلك إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض ولا تستن، وإذا حسدت فلا تبغ)،

١ - المطففين ٢٦

٢ - الحديد ٢١

أي إذا أصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ إزالته عنه .

واعلم أن الحسد من وجه غاية البخل ، لأن الحاسد يبخل بمال الله ، والبخيل بمال نفسه ، ولذلك قيل الحاسد بخيل بما لا يملكه ، ومن وجه هو أظلم ظالم ، لأنه يظلم غيره في إزالة حاله ، ويظلم ربه فيما قدره ، وقيل : الحسد والحرس ركنا الذنوب ، ومنه نتج ذنب ابليس وآدم . فابليس حسد آدم فصار لعيناً ، وآدم حرص على ما نهى عنه فأخرج من الجنة ، فهما شجرتان تجتني منهما سائر الرذائل ، فمن قطع أسبابهما نجا .

إن قيل ما وجه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فجعله في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها) قيل : عني بالحسد ههنا الغبطة ، وقد تسمى بالحسد من حيث انهما الغم الذي ينال الانسان من خير يناله غيره ولا يناله هو ، وعلى ذلك يقول الانسان لولده : لا تحسد فلاناً فيما يتعلمه أي لا تتمن حاله ،

واعلم أن الحسد ضرب من الحماقة ، لأن اغتنامه بما يناله ذووه وأهل بلده يقتضي انه ربما يغم بما يناله أهل الصين والهند ، على أن الخير الذي يناله ذووه وأقاربه هو أنفع له مما يناله الأبعد .

الفصل الخامس

﴿ في العدالة والظلم والمحبة والبغض ﴾

الباب الأول

﴿ ذكر العدالة وفضيلتها ﴾

العدالة : لفظ يقتضي ذكر المساواة ولا يستعمل إلا باعتبار
الاضافة ، وهي في التعارف إذا اعتبرت بالقوة هيئة في الانسان يطلب بها
المساواة ، وإذا اعتبرت بالفعل ، فهي القسط القائم على الاستواء ،
وإذا وصف الله تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة ، وإنما يراد به أن
أفعاله واقعة على نهاية الانتظام ، والانسان في تحري فعل العدالة
يكون تام الفضيلة إذا حصل مع فعله هيئة متنزّه لتعاطيه ، وقد يقع فعل
العدالة من الانسان ولا يكون ممدوحاً به نحو أن يقسط مراآة ، أو
توصلا الى نفع دنيوي ، أو خوف عقوبة السلطان ،

والعدالة : تارة يقال هي الفضائل كلها ، من حيث لا يخرج شيء
من الفضائل عنها ، وتارة يقال : هي أجمل الفضائل من حيث أن
صاحبها يقدر أن يستعملها في نفسه وفي غيره ، وهي ميزان الله المبرأ
من كل زلة وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله عز وجل : «اللَّهُ الَّذِي
أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»^(١) وقال : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

١ - الشورى ١٧

الْمِيزَانَ»^(١) وعبر عن العدالة بالميزان إذ كان من أثرها ومن أظهر أفعالها للحاسة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (بالعدل قامت السماء والأرض) ، أي لو كان شيء من موجودات العالم وأصولها زائداً على الآخر ، أو ناقصاً عنه لم يكن منتظماً هذا النظام ومن فضله ان الجور الذي هو ضده لا يتسبب إلا به ، فلو أن لصوصاً تشارطوا فيما بينهم شرطاً فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم ،

ومن فضلها أن كل نفس تتلذذ بسماعها وتتألم من ضدها ، ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره إذا رآه أو سمع به ، وقيل : العدل اتحاف الله . أي من حيث العدالة لا خوف عليه ولحسن العدالة والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مركباً في العالم ليس له نظام ، فيكره العرج والعمور ويتشاءم به ، ولتحري المساواة جعل الله أعضاء الانسان الواقعة في الأطراف زوجين اثنين ، وفي الأوساط واحداً ، وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بازاء كل منقوش في جانب منقوشاً مثله في الآخر ، لثلاث تصوير الصورة معوجة العدالة وسط أطرافها كلها جور ، فالجور : الخروج من وسط بزيادة أو نقصان ، ولذلك صار الجور والخطأ بالاضافة الى العدل والصواب من حيز ما لا نهاية له .

والعدل والصواب من حيز المتناهي وإدراكها صعب عسر ، ولصعوبة ذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام : (استقيموا ولن تحصوا) وتمدح سبحانه وتعالى بقوله : « وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »^(٢) تنبيهاً على انه المتحقق بالعدالة والصواب من كل شيء ، وقال بعض

الصوفية : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : له يا رسول الله بلغني أنك قلت شيبتي سورة هود وأخواتها فما الذي شيبك منها؟ قال : قوله تعالى : «فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ»^(١) ولما كانت طريق الوصول عسرة صار طالبها إذا تحراها بجهد، وان أخطأ فيها معذوراً بل مأجوراً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران) .

الباب الثاني

﴿ أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه ﴾

العدل ضربان : عدل مطلق يقتضي العقل حسنه ، ولا يكون منسوخاً في شيء من الأزمنة ولا يوصف بالجور في حال ، وذلك جذب الاحسان الى من أحسن اليك ، وكف الأذية عمن كف أذاه عنك .

وعدل مفيد : يعرف كونه عدلاً بالشرع ، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة ، وذلك مقابلة السوء بمثله ، كأحوال القصاص ، وأرش الجنايات ، وأخذ مال المرتد . وهذا النحو يصح ان يوصف على المجاز في بعض الأحوال بالجور ، ولذلك قال عز وجل : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»^(٢) فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث انه لو لم يكن معتبراً بالسيئة المتقدمة كانت هي سيئة ، وعلى ذلك : « إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ »^(٣)

٣ - هود ٣٨

١ - هود ١١٢

٢ - الشورى ٤٠

وبالنظر الى النوع الأول والاعتبار به ، قال بعض المتكلمين :
يعرف العدل والجور بالعقل قبل الشرع .

وبالنظر الى الأول والاعتبار به قال بعضهم : لا يعرف إلا
بالشرع ، وبالجمله ان الشرع مجمع العدالة ، وبه تعرف حقائقها ولو
توهمناه مرتفعاً لكان يؤدي الى أن لا يكون عدالة على الحقيقة في شيء
من جزئيات الأفعال ، ولا يكون في كثير من كلياتها ،

والعدالة المحموده: هي التي تتحرى لا رياء ولا سمعة ، ولا
رغبة ولا رهبة ، وإنما تكون عن تحر للحق عن سجية ،
والذي يجب أن يستعمل الانسان معه العدالة خمسة :

الأول: بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه

والثاني: من قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلماً لعقله فقد
قيل أعدل الناس من أنصف عقله من هواه .

والثالث: بينه وبين أسلافه الماضين في إنفاذ وصاياهم ، والدعاء
لهم .

والرابع: بينه وبين معاملته من اداء الحقوق والانصاف في
المعاملات من المبيعات والمقارضات والكرامات .

والخامس: بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم ، وذلك
الى الولاة وخلفائهم .

وأما أحكام العدل في الأرض فتلاثة : حاكم من الله تعالى وهو

الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والعامل
والأمر به ، وهو كل وال عدل ، والناضح المعتبر به وأعلاه الدينار ومعناه
بالفارسية الدين أوردته ، والناضح من وجه كالحاكم ، ومن وجه كالألة
للمحاكم يعتبر إذا قيس عمل بعمل ،

ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع من
انتظامها والتزامها أظلم ظالم ، ولهذا قال عز وجل : « فمن أظلم ممن
افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم
الظالمين »^(١) ولكون الكفر ظلماً قال عز وجل : « وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً »^(٢) فقابل المؤمن
بالباطل .

الباب الثالث

﴿ ما يحسن ترك العدالة فيه ﴾

ترك العدالة أي الظلم عمداً مذموم في جميع الأحوال ، والخارج
منها الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطاً من الله عز وجل ،
إلا أن يتغمده الله تعالى بعفوه ،

وأما الخارج عنها الى الانظام ، أي إلزام الظلم فقد يحمده ،

والانظام من حيث الكمية ثلاثة أضرب :

١ - الانعام ٤٤

٢ - الاسراء ٨٢

انظلام في المال وهو الاستخذاء للظالم في أخذ ماله . وانظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم . وانظلام في النفس وهو استخذاء لمن يؤمله ، وكل واحد يكون محموداً ومذموماً .

ومن حيث الكيفية ضربان : محمود ومذموم ،

فالمحمود : التغابن في حق له في المال ، أو في الكرامة ، أو في النفس بقدر ما يحسن وهو المعبر عنه بالانخداع ، والتغافل الذي فيه العقل مكيال ، ثلثه فطنة ، وثلثاه تغافل ، وإياه قصد معاوية رضي الله تعالى عنه بقوله : من خدعك فانخدعت له فقد خدعته ، وقال الشاعر * ممن يغر على الشاء فيخدع * وذلك إذ كان في المال فمساخرة ، وإذا كان في النفس فعفو ، وإذا كان في الكرامة فتواضع ،

وأما على الوجه المذموم ففي المال والرأي غبن ، وفي النفس والكرامة هوان ومذلة ، وقد تقدم ان الاحسان والافضال أشرف من العدالة إذا كان الحكم بينك وبين غيرك ، وأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلا العدالة ، وإنما الاحسان الى المتحاكمين . ولهذا قال تعالى : «ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»^(١) وقال فيمن له الحق : «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ»^(٢) .

وقال يحيى بن معاذ إصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل ، فمع العدل الاستقصاء واني لأرجو أن لا يحاسب عباده بالعدل وقد أمرهم

١ - النساء ٥٨

٢ - البقرة ٢٣٧ .

أن يعامل بعضهم بعضاً بالفضل ، وقد عظم الله تعالى أمر الافضل والاحسان فقال: « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »^(١) قال: وهل يأمر الحكيم بأمر ثم لا يفعله ، وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدالة وقد بين أن التفضل أفضل ، وكيف لا يرجى فضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل ، لأنه مبتدئ بما لا يلزمه ، والابتداء بما لا يلزم تفضل ، وهل يجوز أن يترك التفضل انتهاء وقد تحرراه .

الباب الرابع ﴿ ذكر الظلم ﴾

الظلم: هو الانحراف عن العدالة ولذلك حدّ بأنه : وضع الشيء في غير موضعه المخصوص ، وقد تقدم ان العدالة تجري مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الافراط، العدوان والطغيان، واليه أشار تعالى بقوله: « قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا »^(٢) والانحراف عنها في بعض جوانبها جور ، والظلم أعم الأسماء ، ولما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة، صار العدل عنها إما بعيداً وإما قريباً ، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه اليه أصعب، ولذلك قال عز وجل: « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا »^(٣) تنبيهاً على انه متى أمعن بهم في البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء ولأجل من جعلهم الشيطان كذلك قال تعالى: « أولئك ينادون من مكان بعيد »^(٤)

٣ - النساء ٦٠

١ - يونس ٢٦

- ٤

٢ - النساء ١٦٧

وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة ، وهم الذين يجب أن تستعمل العدالة معهم وقد تقدم ذكرهم .

الأول : رب العزة سبحانه ، الثاني : قوى النفس ، الثالث : أسلاف الرجل ، الرابع : معاملوه من الأحياء ، الخامس : الناس إذا تولى انسان الحكم بين بعضهم بعضاً . وقال بعض العلماء : شر الناس من جار على نفسه ثم من جار على ذويه ، ثم من جار على كافة الناس ، وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ، ثم مع عشيرته ، ثم مع نفسه وهذا قول أورد بنظر عامي ، فان الظالم لا يكون ظالماً لغيره حتى يكون ظالماً لنفسه . فانه أول ما يهيم بالظلم فقد ظلم نفسه ، فاذن الظالم أبداً مبتدئاً بنفسه بالظلم ، والعاقل في الناس إذا هم بالعدل وتحراهم فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره ،

قال بعضهم : الظلمة ثلاثة ، الظالم الأعظم ، وهو الذي لا يدخل تحت شريعة الله تعالى وإياه قصد تعالى بقوله : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »^(١)

والأوسط : وهو الذي لا يدخل تحت حكم السلطان .

والأصغر : وهو الذي يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة . ومن خرج عن تعاطي العدالة بالطبع والخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة ، فقد انسلخ من الانسانية ، ومتى صار أهل صقع كلهم كذلك تهارشوا أو تغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر قبول ، فقد تقدم ان عادة الله في أمثالهم إهلاكهم عن آخرهم .

الباب الخامس

﴿ الأسباب التي يحصل منها الأضرار ﴾

جميع ذلك أربعة أسباب:

الأول: الشرارة كمن يضر بغيره مستلذاً بنفعه وذلك أخس الوجوه.

الثاني: الشهوة وهي أن يرى أنه لا يمكنه إدراك شهوته إلا بأن يضر غيره كعامة المتلصصة العاتين في الأرض.

الثالث: الخطأ وهو أن لا يقصد الإضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعلاً آخر فاتفق منه ذلك كمن رمى قرطاساً فأصاب رجلاً فهو معذور من وجه.

الرابع: الشقاوة كمن أصابه رمح فأوقعه على إنسان فمات ذلك الإنسان فذلك معذور ومرحوم.

الباب السادس

﴿ ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ﴾

المكر والخديعة يتقاربان ، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره وهو ضربان :

أحدهما مذموم وهو الأشهر عند الناس والأكثر ، وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالمخدوع وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله: (المكر والخديعة في النار) والمعنى يؤدي بقاصدهما الى النار.

والثاني بعكس ذلك وهو أن يقصد فاعلهما الى استجرار المخدوع والممكور به الى مصلحة لهما ، كما يفعل بالصبي إذا امتنع من فعل خير ، قال بعض الحكماء: المكر والخديعة محتاج اليهما في هذا العالم وذلك ان السفیه يميل الى الباطل ولا يقبل الحق ولا يميل اليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف موهبة خدعة الصبي عن الثدي عند الفطام ، ولهذا قيل : مخرق ، فان الدنيا مخارق وسفسط فان الدنيا سوفسطائية ، وليس هذا حثا على تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ، ولكون المكر والخديعة ضربين سَبِيًّا وَحَسَنًا قال الله تعالى : «والذين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ»^(١) وقال تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتَجَارُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٢) وقال : « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ »^(٣) فخص في الآيات السيء من المكر تنبيهاً على جواز المكر الحسن ، ووصف نفسه تعالى بالمكر الحسن فقال : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ»^(٤)

٣ - النحل ٤٥
٤ - آل عمران ٥٤

١ - فاطر ١٠
٢ - فاطر ٤٣

وأما الكيد: فإرادة لاستتار ما يراد به لكن أكثر ما يستعمل ذلك في الشر، ومتى قصد به شرف مذموم، ومتى قصد به خير فمحمود، وعلى الوجه المحمود قال تعالى: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»^(١) وعلى ذلك الاستدراج منه قال تعالى: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢) فاستدراجه تعالى تغطية السبيل على الانسان وتمكينه منه ليطلبه بالآلات التي أعطاه وذلك تكليف له لما تعذر عليه وإن كان فيه مشقة ولتمكينه من إدراك ذلك قال تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ»^(٣)

فمن جاهد في سبيله واعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على ما يجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة ولطفاً وإحساناً، ومن عطل إمعانه من الفكرة والبصر والسمع حتى أضل طريقه كان ذلك خذلاناً وعذاباً له، وعلى نحو ما تقدم وصف تعالى نفسه بالحيلة والمماحلة فقال تعالى: (وهو شديد المحال) وهذه ألفاظ لولا ان الباري تعالى أطلقها في مواضع مخصوصة قاصداً بها معاني صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى أن يخطر ذلك بباله فضلاً عن أن يجريه في مقاله، وإن قصد بها المعنى الصحيح تنزيهاً له وتعظيماً فيجب أن تتلى في القرآن حيثما وردت ولا يتعدى بها، وقد ذكر المفسرون أن كثيراً من الأوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود ما كان يتجاسر أن تطلق عليه سبحانه لولا السمع، لما في هذه الأسماء من الكيفية

٣ - البلد ٨

١ - يوسف ٧٦

٢ - القلم ٤٤

والكمية والانفعال في معنى اللغة والله تعالى منزّه عن ذلك كله وهذا فصل كبير يختص به غير هذا الكتاب .

الباب السابع

﴿ ماهية المحبة وأنواعها ﴾

المحبة : ميل النفوس الى ما تراه أو تظنه خيراً وذلك ضربان :
أحدهما : طبيعي وذلك في الانسان والحيوان ، وقيل قد يكون بين الجمادات كاللفة بين الحديد وحجر المغناطيس ،
والثاني : اختياري وذلك يختص به الانسان ، فاما ما يكون بين الحيوانين فاللفة .

وهذا الثاني أربعة أضرب :

الأول : للشهوة وأكثر ما يكون ذلك بين الاحداث .
والثاني : للمنفعة ومن جهة ما يكون بين التجار وأرباب الصناعات المهينة .
والثالث : ما يكون مركباً من ضربين كمن يحب آخر للنفع ، وذلك محبة للشهوة .

والرابع : للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم ، وهذه المحبة باقية على مرور الأوقات وهي المستثناة بقوله تعالى : « الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضِ عَدُوٍّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^(١).

وأما الضروب الأخر: فقد تطول مدتها وتقصّر بحسب دوام أسبابها والصدّاقة، أخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل إلا في الحيوان.

وأما العشق فمحبة بافراط، وذلك اما بحسب اللذة فيكون مذموماً، أو بحسب الفضيلة فيكون محموداً، ولا يكون للنفع فان النافع يراد لغيره والفضيلة واللذة يرادان لأنفسهما.

الباب الثامن

﴿ فضيلة المحبة ﴾

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة، ثم العدالة فلو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا عن العدالة، فقد قيل: العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة، ولذلك عظم الله المنّة بايقاع المحبة بين أهل الملة فقال: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ»^(٢) وقال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا»^(٣) أي محبة للقلوب تنبهاً على أن ذلك أجلب للعقائد، وهو أفضل من المهابة، فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف،

٣ - مريم ٩٦

١ - الزخرف ٦٧

٢ - الأنفال ٦٣

وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ، لأن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببها ، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا وإذا تواصلوا تعاونوا وإذا تعاونوا عملوا وإذا عملوا عمروا^(١) وإذا عمروا ، ولفضل وقوع المحبة شرعاً شرع الله اجتماع أهل الملة الواحدة في مساجدهم خمس مرات لإقامة صلاتهم ، واجتماع أهل ملتهم في بلد كل أسبوع مرة في الجامع ، واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة واجتماع أهل البلدان النائية في العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الأنس ، وليقع بسبب ذلك الود.

الباب التاسع

﴿ فضيلة الصداقة ﴾

الصديق محتاج اليه في كل حال إما عند سوء الحال فيعاونونه ، وإما عند حسن الحال ، فليؤانسوه وليضع معروفه عندهم ، ومن ظن انه يمكن الاستغناء عن صديق فمغرور ، ومن ظن أن وجوده سهل فمعتوه ، ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال : هو آخر بالشخص ، إلا أنه أنت بالنفس ، ولعزة وجوده سئل آخر عنه فقال : هو اسم على غير معنى حيوان غير موجود ، فمن وجد إخواناً ذوا ثقة وجد بهم عيوناً وآذاناً وقلوباً كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد ، واختيار من تركزن اليه لتصادقه صعب إذ قد يتشيع لذلك الناقص فتظنه فاضلاً ، فيكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم .

الباب العاشر

﴿ في ذكر المحب في الناس ﴾

من حبيه الله الى الناس فقد أنعم عليه نعمة وَسِيعَةً ، كما أن من بغضه اليهم فقد جعل له نقمة فظيعة ، والسبب فيمن يكون محبا الى الخلق أن من رعاه الله فصنى جوهره وطاب وحسن عمله حصل له نور ليتزيا في مشاعر من يراه فيحبه . وإياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام: « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله عبدا ألقى محبته في الماء فلا يشربه عبد إلا أخبه ، وإذا بغض عبدا ألقى بغضه في الماء فلا يشربه أحد إلا بغضه) ولما ألقى الله تعالى على نبينا من المحبة قلما كان يأتيه من يبغضه فيهم بقتله إلا إذا رآه وقلب في آفاق وجهه طرفه وألقى الى كلامه سمعه وأعجب به ففارقه على جميل .

الباب الحادي عشر

﴿ الحث على مصاحبة الأخيار والحث على مفارقة الأشرار ﴾

حق الانسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار فهي قد

تجعل الشرير خيراً ، كما أن مصاحبة الاشرار قد تجعل الخير شريراً ، قال بعض الحكماء: مَنْ جالس خيراً أصابته بركته ، فجلس أولياء الله لا يشقى ، وإن كان كلباً ككلب أصحاب الكهف حيث قال جل وعز: « وَكَلَبُهُمْ بِسِطْرٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ »^(١) ولهذا أوصت الحكماء بمنع الأحداث من مجالسة السفهاء ، وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله ويعدانك مثله ، وقيل: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ، ويزيد في خيركم نطقه ،

وقالوا: اياك ومجالسة الشرير فان طبعك يسرق من طبعه وأنت لا تدري بل قال صلى الله عليه وسلم : (مثل المجلس الصالح كمثل الداري^(٢)) ان لم يجذك من عطره يعلقك من ريحه ، ومثل المجلس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشره يؤذك بدخانه) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال) ، أي يجذبه خليله الى دينه ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

وليس^(٣) أعداء المجلس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط بل وبالنظر اليه ، فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقاً مناسبة الى خلق المنظور اليه ، فان دام نظره الى مسرور سر ، ومن دام نظره الى محزون حزن ، وذلك ليس في الانسان فقط بل في الحيوان وسائر النبات ، فان

الجميل الصعب قد يصير ذلولاً بمقارنة الذلول ، والذللول يصير صعباً بمقارنة الصعاب ، والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الزابلة ، ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لثلا تفسدها ، ومعلوم ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة . وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها . فقد قيل سمي الأنس أنساً لأنه يأنس بما يراه ان خيراً وإن شراً ،

وللإنسان في المعاشرة ثلاثة أحوال: إما أن يكون شكساً أي قاسي الطبع ، وأما أن يكون ملقاً أي سلس الطبع ، أو مساعداً أي تاركاً للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود ،

وحق الإنسان في المعاشرة أن يتقوى من جهة الفكرة بالمطابقة في الكلام ، ومن جهة الغضب بالتحالم ، ومن جهة الشهوة بالجلود ، وأن يتعزى من أصداد ذلك ، وأن يجامل المعاشرين والمعادين والمتشمتين بالاخوان ويصابرهم ويكاسرهم طمعاً في رجوعهم اخواناً واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفاً . فان الظرف عبارة عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة .

الباب الثاني عشر

﴿ فضيلة تفرد الإنسان عن الناس ورذيلته ﴾

قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط ، فبعضهم

آثر التفرد عن الناس ، وبعضهم الاختلاط بهم ، وأورد كل فريق منهم في ذلك أخباراً ، وذلك بسبب اختلاف نظريهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته ، ومصاحبة الآخر بمن مصاحبته حميدة ،

والأصل : ان اجتماع بعضهم مع بعض أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ، ولهذا لما سمع عمر رضي الله تعالى عنه قائلاً يقول : اللهم أغنني عن الناس . قال يا رجل أراك تسأل الموت قل : اللهم أغنني عن شرار الناس ، فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض ،

وقيل : التفرد مكروه إلا لثلاثة سلطان لانشاء تدبير المملكة ، وحكيم لاستنباط الحكمة ، ومتنسك لمناجاة رب العزة ، فان التفرد يبطل الانسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ، ومن ظن التفرد خيراً فلاجل أن ليس يظهر منه سر وذلك يشاركه فيه الموتى ، وفضيلة الانسان أن يكون خيراً لا أن يكون شريراً ، وان كان زماننا كما قيل : إنا لفي زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس إجمال وإحسان

فحق الفاضل العاقل أن يجتمع مع العامة في ظواهر أحكام الشرع ، وإقامة وظائف العبادات ، وإنالتهم من الفضيلة بقدر الوسع ويترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق والأفعال الجميلة ، ولمراعاة حكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالسواد الأعظم) ولمراعاة الترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق قيل : المروءة التامة مباينة العامة بل قيل : من استأنس بالله استوحش من الناس ، وذلك لمخالفته إياهم في الخلق ، وللنهي عن الاغترار بكثير منهم والركون

اليهم ، سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق قال تعالى : « إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ »^(١) وقال تعالى : « إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ »^(٢)

الباب الثالث عشر ﴿العداوة﴾

العدو: هو الذي يتحرى اغتيال الآخر، ويضاده فيما يؤدي الى ضرره، ومنه تعدى فلان أي فعل فعل العدو وهو من قولهم مكان ذو عدو أي متنافي الأجزاء^(٣) ثاب لمن حله.

والعدواة ضربان: باطن لا يدرك بالحاسة ، وظاهر يدرك بالحاسة ،

فالباطن اثنان : احدهما الشيطان وهو أصل أصل كل عدو ويعادي معادن جوهرته ، وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »^(٤) وقال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ »^(٥) الآية . وقال : « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ »^(٦)

٤ - يس ٦٠
٥ - البقرة ٦٨ ، ٢٠٨

١ - فاطر ١٤
٢ - الأعراف ١٩٤
٣ - فاطر ٦

والثاني: الهوى المعبر عنه بالنفس في قوله تعالى: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»^(١) وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك)، وكذلك الغضب إذا كان فوق ما يجب، ولكون هذه القوة في الانسان إذا أثرت طريقاً للشيطان في وصوله اليها وكونها كالخليفة لها سماها النبي صلى الله عليه وسلم باسمه فقال: (الهوى شيطان والغضب شيطان) وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»^(٢) وأما الظاهر من الأعداء فالانسان وذلك ضربان: ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد الى الأضرار إما مجاهرة وإما مساترة وذلك اثنان.

واحد يعادي كل أحد وهو انسان سبعي الطبع خبيث الطينة مبغض لكل من لم يحتج اليه في العاجل بغيض الى كل نفس يمارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر:

يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذي عنى تعالى بشياطين الأنس.

والثاني عدو خاص العداوة وذلك إما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كمعاداة الجاهل العالم،

وإما بسبب نفع دنيوي كالتجاذب في رياسة ومال وجاه،

وإما بسبب حمة ومجاورة مورثة للحسد كمعاداة بني الأعمام

١ - يوسف ٥٣

٢ - القصص ١٥

بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعي ، وقال رجل لآخر ،
اني أحبك فقال : قد علمت ذلك قال : ومن أين علمت قال : لأنك
ليس لي بشريك ولا نسيب ولا جار قريب ، وأكثر المعاداة بين الناس
تتولد من شيء من ذلك .

والضرب الثاني : عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدي حاله
بالانسان الى أن يقع بسببه في مثل ما يقع من كيد عدوه فسمى عدواً
لذلك كالأولاد والأزواج ولذلك قال عز وجل : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ
وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوَّكُمْ لَكُمُ فَاحْذَرُوهُمْ »^(١) وقال عليه الصلاة والسلام : (ليس
عدوك الذي إن قتلتك أجرك الله في قتله وإن قتلك أدخلك الجنة ولكن
أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وامرأتك التي تضاجعك وأولادك
الذين من صلبك) وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الانسان
لما كانوا سبباً لإهلاكه الأخروي لما يرتكبه من المعاصي من أجلهم
فيؤدي ذلك الى هلاك الأبد الذي هو شر من إهلاك المعادي المناصب
إياه .

واعلم انه لكون بعض الناس مشاركاً للشيطان في المعاداة سمي
الله تعالى الأعداء شياطين في قوله : « شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »^(٢) وقد سمي كل ما يتأذى به
شيطاناً حتى قالوا : ما ورود الفقير إلا شيطان مجنون يؤدي بروح
الانسان ، والفقير هو اسم بثر فجعل ورودها شيطاناً يتأذى به والله
سبحانه أعلم .

١ - التغابن ١٤

٢ - الانعام ١١٢

الفصل السادس

﴿ فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل ﴾

الباب الأول

﴿ في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر ﴾

اعلم انه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج اليه إلا بمعاونة عدة رجال له ، فلقمة طعام لو عددنا تعب محصليها من الزراع والطحان والحباز وصناع آلاتها لصعب ، حصروه احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا ، ولأجل ذلك قيل الإنسان مدني بالطبع أي لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا ، وعلى ذلك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله : (المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً) وقال : (مثل المؤمنين في تواددهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا تألم بعضه تداعى سائرته) ، وقيل : الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضاً استقل ، ومتى خذل بعضه بعضاً اختل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثاني

﴿ تسخير الله تعالى همم الناس إلى الصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه ﴾

لما احتاج الناس بعضهم الى بعض ، سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة ما يتعاطاها ، وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية ، واتفاقات سماوية ، يؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدرها بمجلاستها ، وتطيعه قواه بمزاولتها ، فاذا جعل اليه صناعة أخرى فرمما وجد متبلداً أو متبرماً بها ، وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بآجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات ، ولولا ذلك لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أطيبها ، ومن الصناعات إلا أنظفها ، ومن الأعمال إلا أرفعها ، ولتتجزوا على ذلك ، ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلا منهم مجبراً في صورة مخير . فالناس إما راض بصنعة لا يريد عنها حولا ، كالحائك الذي يرضى بصنعتة ويعيب الحجام ، والحجام الذي يرضى بصنعتة ، ويعيب الحائك ، وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى : « فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »^(١) وأما كاره لها يكابدها مع كراهيته إياها ، كأنه لا يجد لها بدلاً وعلى هذا دل قوله عليه الصلاة والسلام : « كل ميسر لما خلق له » بل صرح تعالى بقوله : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(١) وقال: « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »^(٢) وقال: « قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ »^(٣) ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لن يزال الناس ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا) فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتام والاجتماع والاتفاق ، كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التي لولاها لما حصل لها نظام ، فسبحان الله ما أحسن ما صنع ، وأحكم ما أسر ، وأتقن ما دبر ، ولهذا قيل: من حق من قيص له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام: (من رزق من شيء فليلزمه) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث

﴿ كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس ﴾

حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص ، هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة الناس ، إما باختيار وإما باضطرار ، ولهذا قيل: رب ساع لقاعد ، وهو أن الناس لو كفى كل واحد أمره لأدى ذلك الى فساد العالم من حيث أنه لم يكن أحد يتولى لغيره مهنة يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها ، فيؤدي ذلك الى فقر جميعهم وقد قيل : قيام

٣ - الاسراء ٨٤

١ - الزخرف ٣٢

٢ - الفرقان ٢٠

العالم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى ، لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث الملك والتجارة والكتابة ، وسائرهما قائم بالفقر ، فلو لم يكن الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ؟ ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال ؟ وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله : «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» ومن تدبر صنع الله تعالى في ذلك وتأمل ما أشار اليه في هذه الآيات التي ذكرها لم تعرض لها الشبهة التي تعرض لمن يقول : إذا كان الله جواداً واسعاً فلم خص بعضهم بالغنى وجعل أكثرهم فقراء ؟ ومن حق الغني الذي لا يفنى غناه والجواد الذي لا يعرف لجوده منتهى أن لا يخص بالعطية بعضاً دون بعض ، وذاك أن الجواد هو الذي يعطي كل أحد بقدر استئصاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل ذلك بالعباد .

الباب الرابع

﴿ مناسبة بدن الإنسان لصناعته ﴾

إن الله تعالى فرق همم الناس للصناعات المتفاوتة ويسر كلا لما خلق له وجعل آلاتهم الفكرية والبدنية مستعدة لها ، فجعل لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوباً صافية ، وعقولاً بالمعارف لاثقة ، وأمزجة لطيفة ، وأبداناً لينة مستصلحة ، ومن قيضه لمراعاة

المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء جعل لهم قلوباً قاسية وعقولاً كتنزة وأمزجة غليظة وأبداناً خشنة ، وكما أنه محال أن يصلح السمع للرؤية والبصر للسمع ، كذلك محال أن يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة ، وقد جعل تعالى كل جنس من الفريقين نوعين : رفيعاً ووضيعاً :

فالرفيع من تحرى الحذق في صناعته وأقبل على عمله وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه ، وأدى الأمانة بقدر جهده ، ولم يشتغل عن عبادة الله تعالى كما قال تعالى : «رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تَجَرَّةً وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «ان الله يحب الصانع الحاذق ومدح الملائكة بوقوفهم حيثما ما وقفوا وبأحكامهم لما ولو افعال تعالى:» لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»^(٢).

الباب الخامس

﴿ وجوب التكسب ﴾

التكسب في الدنيا وإن كان معدوداً من المباحات ، لكنه واجب من وجه ، وذلك إذا لم يمكن الإنسان الاستقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته فإزالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه . وإذا لم يكن إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ

٢ - التحريم ٦

١ - النور ٣٧

تعب من الناس ، فلا بد إذن أن يعرضهم تعباً له وإلا كان ظالماً . فمن توسع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد أن يعمل عملاً بقدر ما يتناوله منهم، وإلا كان ظالماً لهم قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلاً يرضى بقليل عمل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من رضي من الله بقليل الرزق رضي الله منه بقليل العمل) ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعاً فإنه لم يأتهم بالله في قوله: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ» ^(١) ولم يدخل في عموم قوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ^(٢) ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يقتدي به ، بل يجعل له همة عارية بطنه وفرجه ، فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ولا يرد إليهم نفعاً ، فلا طائل في مثلهم إلا أن يكدروا الماء ويغفلوا الأسعار ، ولهذا الشأن كان عمر رضي الله تعالى عنه إذا نظر الى ذي سياء سأل أله حرفة ، فاذا قيل لا سقط من عينه ، واستحسن النبي صلى الله عليه وسلم من وفد عبد قيس لما سألهم ما المروءة ؟ فقالوا: العفة والحرفة ، ومن الدلالة على قبح فعل من هذا صنيعه أن الله تعالى ذم من يأكل مال نفسه أسرافاً وبداراً ، فما حال من أكل مال غيره على ذلك ، ثم لا ينيلهم عوضاً ولا يرد إليهم بدلاً ، فحق كل مضطر الى كسب أن يقتصر على ما يسد فقر وقته ، ولا يحمل هم غده على يومه قال الشاعر :

١ - المائدة ٢

٢ - التوبة ٧١

فمن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر
ومن اقتصر على ذلك فقد صار من المتوكلين الذين عناهم النبي
صلى الله عليه وسلم بقوله : (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما
يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) .

الباب السادس

﴿ مدح السعي وذم الكسل ﴾

من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية وصار
من جنس الموتى . وذلك أنه خص الإنسان بالقوى الثلاث ليسعى في
فضيلتها ،

فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميها ، وفضيلة
القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التي تحميها ،

وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلم الذي يهديه ، فحقه أن
يتأمل قوته ويسبر قدر ما يطيقه ، فيسعى بحسبه لما يفيد السعادة ،
ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز ، ومن الفقر إلى
الغنى ، ومن الضعة إلى الرفعة ، ومن الخمول إلى النباهة ، وإن من
تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة . فحب الهوينا يكسب
التعب ، وقيل : إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب ، وقيل إياك
والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر
على حق ، كما قال الشاعر :

فان التواني أنكح العجز بنته * وساق إليها حين أنكحها مهراً
فرشاً وطيشاً ثم قال لها اتكي * فقصر كما لا شك أن تلدا فقرا

وقال يزيد بن المهلب: ما يسرني إني كفيت أمر الدنيا كله لثلا
أتعود العجز . وإن الفزع يبطل الهيئة الانسانية ، فكل هيئة بل كل
عضو ترك استعماله يبطل . كالعين إذا غمضت ، واليد إذا عطلت ،
ولذلك وضعت الرياضات في كل شيء ، ولما جعل الله تعالى للحيوان
قوة التحرك لم يجعل له رزقاً إلا بسعي ما منه . ولثلا تتعطل فائدة ما
جعل بقوة التحرك ، ولما جعل للانسان الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها
تعالى عليه جانباً يحصل بفكرته ، لثلا تبطل فائدة الفكرة فيكون
وجودها عبثاً ، وتأمل حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب
الجني ما كفاها مؤنة الطلب ، وفيه أعظم معجزة فإنه لم يخلها من أن
أمرها بهزها فقال تعالى: (وَهَزَّيْ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ)^(١) وكما ان
البدن يتعود الرفاهية بالكسل ، كذلك النفس بترك التفكير والنظر
فتتبدل وتبطل وترجع الى رتبة البهائم . فحق الإنسان أن لا يذهب عامة
أوقاته إلا في إصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته الى آخرته ، مراعيها لها .
قال الحجاج إن امرؤ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه
ويستغفر من ذنبه أو يتفكر في أمر معاده لجدير أن تطول حسرته يوم
القيامة . وإذا تأملت قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سافروا
تغنموا) ونظرت اليه نظراً عالياً علمت أنه حثك على التحريك الذي
يشمر لك جنة المأوى ، ومصاحبة الملائكة الأعلى ، بل مجاورة الله تعالى ،
وذلك يحتاج إلى خمسة أشياء :

معرفة المعبود المشار اليه بقوله: « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ »^(١)
ومعرفة الطريق المشار اليه بقوله: « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ »^(٢)
وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله: « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَىٰ »^(٣)

والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى: « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ »^(٤). فبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في
قوله: « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ »^(٥) وهذه من المعالي التي دونها هول
العوالي ولا ضير لمن رامها ان يتدرع الصبر فقد أصاب من قال:
فقل لمرجى معالي الأمور * بغير اجتهد رجوت المحالا

الباب السابع

﴿ تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض ﴾

الصناعات ثلاثة أضرب: إما أصول لا قوام للعالم بدونها .
وهي أربعة أشياء : الحياكة والزراعة والبناية والسياسة ،

٤ - الحج ٧٨
٥ - لقمان ٣٣ ، فاطر ٥

١ - الذاريات ٥٠
٢ - يوسف ١٠٨
٣ - البقرة ١٩٧

وإما مرشحة لكل واحد من ذلك وخادمة ، كالحداثة للزراعة ،
والحلاجة والغزالة للحياكة ،

وأما ثمرة لكل واحد من ذلك ومرتبة له ، كالطحانة والخبازة
للزراعة ، والقصارة للحياكة ، ومثل ذلك بالاضافة الى العالم مثل
أجزاء الشخص الى الشخص سواء بسواء فإنه على ثلاثة أضرب :

إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ،

وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة كالمعدة والعروق
والشرايين ،

وأما مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب . وأشرف أصول
الصناعات السياسية وهي أربعة أضرب :

الأول سياسة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحكمهم على
الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم .

والثاني الولاية وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون
باطنهم .

والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص .

والرابع الوعظة والفقهاء وحكمهم على باطن العامة ، وأشرف
هذه السياسات الأربع بعد النبوة ، إفادة العلم وتهذيب الناس به وبيان
ذلك .

أن أشرف الصناعة يتبين من أوجه إما بحسب النسبة الى القوة

المبرزة لها كالفضل في معرفة الحكمة على معرفة اللغات ، فان الأولى متعلقة بالقوة العقلية ، وهذه متعلقة بالقوة الحسية ، والعقل أشرف من الحس .

وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصناعة ،

وإما بحسب الموضوع المعمول فيه ، كشراف الصياغة على الدباغة ، وقد علم أن الحكمة تدرك بالقوة الفكرية وهي أشرف قوة ، وانه يتوصل به الى جنة المأوى وذلك أبلغ نفع .

وموضوعه الذي تعمل فيه نفوس البشر وهو أفضل موضع يعمل فيه بل موجود في هذا العلم ، وإفادة العلم من وجه صناعة ، ومن وجه عبادة ، ومن وجه أجل خلافة الله ، فان الله مع استخلافه قد فتح على قلبه العلم الذي هو أخص صفاته تعالى ، فهو خازن لأجل خزائنه ، وقد أذن له في الانفاق على كل أحد ممن لا يفوته الانفاق عليه وكل ما كان إنفاقه أكثر على ما يجب ، وكما يجب كان جاهه عند مستخلفه أوفر . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن

﴿ في أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحي ﴾

أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة عن وحي ، وذلك أن نقص الانسان وحاجة بعضهم الى بعض ظاهر ، والناقص محتاج الى الكامل ، فلا يخلو إما أن يتصور أخذ واحد عن واحد بلا غاية وهو

محال ، وإما أن ينتهي الى واحد من البشر علمه الصناعات إما بسماع من الملائة الأعلى ، أو بإلهام ، أو منام ، وهذا هو الحد فمعلوم لذي اللب أن قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن إدراك خواصها بفهام البشر وبحريتهم ، ورؤساء كل صناعة يقرون بذلك . فأهل النجوم يقولون : مبادي النجوم من هرمس ، وهو قبل ادريس عليه السلام ، وكذلك أصحاب الطب يدعون مثل ذلك في معرفة الأدوية ، ثم اختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته أو بحساب العقل عن توهم ما هو أصلح لذلك الفعل منه يحقق انه صدر عن حكمة الهية.

الباب التاسع

﴿ في شأن الناص المتعامل به وحكمة الله تعالى فيه ﴾

اعلم أن الناص (١) أحد أسباب ما به قوام الحياة الدنيوية ، ومتى توهمنا مرتفعاً تعسر على الناس توجيه معاشهم ، وقد تقدم ان الناس يحتاج بعضهم الى بعض ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملاً يصير به معيناً للآخر مواسياً له ، ولما كان كل من واسى غيره من حقه أن يقابل بقدر مواساته ، قىض الله سبحانه لهم هذا الناص علامة منه جل ثناؤه ليدفعه الإنسان الى من يوليه نفعاً فيحمله الى من عنده مبتغاه فيأخذ منه بقدر عمله ، ثم إذا جاء ذلك الآخر بتلك العلامة أو مثلها الى الأول وطلب منه مبتغى هو عنده دفعه

١ الدراهم والدنانير بلغة اهل الحجاز. ١ هـ المختار

اليه ليتنظم أمرهم ، ولهذا قيل : الدرهم حاكم صامت ، وعدل ساكت ، وخاتم من الله نافذ ، وقيل : لهذا المعنى سمي في لغة الفرس ديناراً أي الدين أتى به ، والدين فارسية معربة . ولما كان ذلك حاكماً عظم الله تعالى وعيد من احتسبه ومنع الناس عن التعامل به فقال : «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» ^(١) الآية . وذلك انه يصير باحباسه إياهما كمن حبس حاكمين للناس بهما تتمشى أمور معاشهم ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجر جر بطنه في نار جهنم) . لأنه يؤدي الى منع الناس التصرف في معاملتهم .

الباب العاشر

﴿ في مدح المال وذمه ﴾

المال إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم ، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر ، إذ القنيات ثلاثة نفسية ، ومدنية ، وخارجة ، والخارجة أدونها ، وأدون الخارجات الناض ، لأنه خادم غير مخدوم ، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه ، لأن النفس يخدمها البدن ، والبدن يخدمه المأكل والملبس ، وهما يخدمهما المال ، فالمال من حقه أن يكون خادماً لغيره من القنيات وأن لا يكون شيء من القنيات خادماً له ، وإن كان كثير

من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدماً للمال وعبيداً . وهم الذين ذمهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (تعس عبد الدينار) ولعظم موقع المال عند من لا يتجاوز المحسوسات قال : حكاية عن بعض أنبيائه فيما خاطب به أمته : « أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً »^(١) ولعظم منافعه في الأمور الدنيوية قال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ »^(٢) ونبه على حقارة قدره بالاضافة الى أحوال الآخرة فقال : « لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ »^(٣) وخوف من أعجب باقتنائه فقال : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ »^(٤) وقال تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً »^(٥) فحق الانسان أن يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في خان سفر يصلح للانتفاع بها ما دام نازلاً في ذلك الخان ، فيتناول منها مقدار البلغة ، ويتسلى عنها عند الرحلة ، ويستهجن لنفسه أن يكذب ويغضب ويحزن ويرتكب القبائح في سببها .

واعلم أن الناص الذي هو العين والورق حجر ، جعله الله سبحانه سبباً للتعامل به كما تقدم أنفاً وخادماً كما ذكرناه ، فقيح بالحر المتوشح لنيل الفضائل والافتداء بالبارىء جل ثناؤه والوصول الى الغنى الأكبر ، أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج اليه ، ويجعل نفسه أقل رقيق له وأخسه كما قيل * فرق ذوي الأطماع رق مغلد * ويكون معكفاً منه على حجر يعبد به كما قال تعالى : « يعكفون على أصنام

٤ - المؤمنون ٥٦

٥ - المدثر ١١

١ - نوح ١٠

٢ - النساء ٥

٣ - المنافقون ٩

لهم»^(١) وأرى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأل الله تعالى فقال: «وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»^(٢) لم يرد إلا أن يحرسه وذريته عن الأعراض الدنيوية الصارفة عن الله ، فمثله عليه الصلاة والسلام وأولاده يتنزه أن يشفق من اعتقاد في حجر هو صانعه ويستحق عبادته ، وقال في موضع آخر إشارة الى ما يعم هذا المعنى وغيره : «يَنَابِتٍ لِّرَعْبُدٍ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا»^(٣) وقال بعض الحكماء: مثل الانسان وشغفه بهذه الأعراض الدنيوية كراكب في سفينة الى أفضل بلد فأنتهى الى جزيرة ذات أسود وأسود ، فأمروا بالخروج والتهيء للطهارة ، وأن يكونوا على حذر فرأوا حجراً مزبرجاً مزيناً فشغفوا به ، وتباعدوا عن المركب ونسوا مقصودهم ومركبهم ، وبقوا لاهين حتى سارت السفينة فثارت عليهم الأسود والأسود فلم يغن عنهم حجرهم ، فصاروا كما قال تعالى عمن هذه حاله: «مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ»^(٤)

الباب الحادي عشر

﴿ المال والأدب في اقتنائهم والوجوه التي منها يحصل ﴾

قد تقدم أن المال من الخيرات المتوسطة ، لأنه كما قد يكون سبباً للشريكون سبباً للخير ، لكن لما كان في أكثر الأحوال يوجب كرامة

٢ - مريم ٤٢

٣ - الحاقة ٢٨

١ - إبراهيم ٣٥

أصحابه وتعظيم أربابه حتى صدق الشاعر في قوله :

الناس أعداء لكل مدقع * صفر اليدين وأخوة للمكثر

وحتى قيل : رأيت ذا المال مهيباً . قال صلى الله عليه وسلم :

(نعم المال الصالح للرجل الصالح) واستصوب قول طلحة رضي الله

تعالى عنه في دعائه : اللهم ارزقنا مجداً ومالاً فلا يصلح المجد إلا بالمال

ولا يصلح المال إلا بمراعاة المجد . وقال بعض الحكماء : اطلبوا العلم

والمال بحق الرياسة فالناس خاص وعام ، فالخاص يفضلك بما

تحسن ، والعام بما تملك ، واكتسابه من الوجه الذي ينبغي صعب

وتغريقه سهل كما قال الشاعر * له مصعد صعب ومنحدر سهل * ومن

رام اكتسابه من وجه صعب عليه ، فالمكاسب الجليلة قليلة عند الحر

العادل ، ومن رضي بكسبه من حيث ما اتفق فقد سهل عليه ، والفاضل

ينقبض عن اقناء المال ويسترسل في إنفاقه ولا يريده لذاته بل لاكتسابه

المحمدة به ، ولا يجمع المال عنده مدخراً كما قال الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرته * لكن يمر عليها وهو منصرف

انا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا * ظلت الى طرق المعروف تنصرف

وغير الفاضل يسترسل في اقتنائه وينقبض في إنفاقه ، ويطلب

لذاته لا لادخار الفضيلة به ،

والمال يحصل من وجهين : أحدهما : بسبب منسوب الى الجد

المحض والبخت الصرف من غير اكتساب من صاحبه ، كمن ورث مالاً

أو وجد كنزاً أو قبض له من أولاد شيئاً ،

والثاني : أن يكتسب الانسان كمن يشتغل بتجارة أو صناعة

فيدخر منها مالا ، وهذا الضرب لا يستغنى فيه عن الجد ولهذا قيل :
عليّ السعي فيما فيه نفعي * وليس عليّ إدراك النجاح

فحظ الجد أكثر من حظ الكد بخلاف الأخلاق والأعمال
الأخروية التي حظ الكد فيها أكثر ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله :
« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ »^(١) الآية واشترط في العاجلة مشيئة للمعطي
وإرادته للمعطي له ، ولم يشترط السعي لها مع الايمان ، ولم يشترط
إرادته ومشيئته وان كان ذلك لا يتعدى منهما ، فحق العاقل أن يعنى بما
إذا طلبه ناله ، وإذا ناله لم يخف زواله ، ويقلل المبالاة بما إذا قدر له
أتاه طلبه أم لا . وقال بعض الحكماء : ان البخت بمنزلة امرأة صماء
عمياء ورهاء في حجرها جواهر ، وهي قاعدة على حجر مدور ،
ويتبعها ناس كثير يلتمسون ما عندها ، وهي لا تسمع قولاً ولا ترى
وجهاً ، وقد اعتزل عنها قوم قليلو العدد وقعدوا حجرة وفي كل ساعة
تولى قبضة مما في حجرها واحداً من القوم كأنها المعنية بقول الشاعر :

لا تمدحن حسنا في المجد ان مطرت * كفاه جودا ولا تدمعه إن رزما
فليس يبخل إشفاقاً على نشب * ولن يجود بفضل المال معتزماً
لكنها خطرات من وساوسه * يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرمأً
وتارة تعرج على من أعطته فتسلبه سلباً ، وتدوسه بحجرها
دوساً وأما الفضائل الأخروية فكما قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى
تعطيه كلك ، فان أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على
خطر ، وقال تعالى : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »^(٢)

١ - الاسراء ١٨

٢ - النجم ٣٩

الباب الثاني عشر

﴿ إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل ﴾

الحكمة تقتضي أن يكون العاقل الحكيم في أكثر الأحوال مقلداً ، وذلك انه لا يأخذ المال إلا كما يجب ، من الوجه الذي يجب ، في الوقت الذي يجب ، ثم إذا أخذه وتناوله ، لم يدخره عن مكreme ، والجاهل عليه الجميع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محذور وإستباحة محجور ، واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر ، ومساعدتهم على ارتكاب الشرطمعاً في نفعهم ، وكثيراً ما يرمي منهم في جملة الموصوفين، بقوله تعالى: «فِنَّ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ»^(١) شاكين بختهم فبعضهم يغضب على الفلك ، وبعضهم على القدر، وبعضهم يتجاوز الأسباب فيعتاب الله تعالى حتى قال بعضهم في ذلك شعر :

لقلوله نحن قسمنا بينهم زال المرا
ولو تولى غيره * قسمة أرزاق الورى
جرت خطوب بيننا * لكنه تحت العرا

وذلك لحرصهم على ارتكاب القبائح ، وجهلهم بما يقيض الله سبحانه وتعالى من المصالح وقول الشاعر :

هذا الذي ترك الأبواب حائرة * وصير العالم النحرير زنديقاً
فان الذي يصير بذلك زنديقاً لو يسمى بالجاهل الشرير أولى من
أن يسمى العالم النحرير ، فقد قال حكيم سواة لمن أعطى العلم
فجزع لفقد الذهب والفضة: أعطى السلامة والدعة فجزع لفقد الألم
والتعب.

الباب الثالث عشر ﴿ تحقيق كون المال في أيدي الناس ﴾

إن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بُلْغَةً ، فاعتدها الناس
عقدة ، وصير الدنيا مرتحلاً وممراً ، فصيروها موطناً ومقراً ، إلا قليلاً
أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله:
«وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»^(١) تاجروا بها ربهم كما قال تعالى :
«يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ»^(٢) الآية. وأعراض الدنيا من
وجه عارية في أيدي الناس مستردة كما قال :

وما المال والأهلون الا ودائع * ولا بد يوماً أن ترد الودائع
ومن وجه منحة منحها الانسان لينتفع مدة بدرها ، وينتفع بها
غيره ، ومن وجه ودیعة في يده ، وخص له في استعمالها والانتفاع بها بعد
أن لا يسرف فيها ، لكن الانسان بجهله ونسيانه لما عهد اليه بقوله:

١ - سبأ ١٣

٢ - الصف ١٠

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»^(١) اغتربها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة فركن إليها ولم يؤد أمانة الله تعالى ، ثم لما طولب بردها تصورت له وضجر فلم يبرح عنها إلا بنزع روحه أو كسر يده ، وبعضهم وهم الأقلون حفظوا ما عهد إليهم ، فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة فأدوا فيها الأمانة وعلموا أنها مستردة ، فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا ، وردوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها ، وقد ذكر بعض العارفين في ذلك مثلاً فقال : إنما مثل أرباب الدنيا فيما أعطوه من أعراضها كرجل دعا قوماً إلى داره وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، فكان إذا دخل أحدهم ناوله إياه لا ليتملكه بل ليشمه ويناوله لمن بعده ، فمن كان جاهلاً ظن أنه يملكه فلما استرجع منه ضجر ، ومن كان عالماً تناوله فشمه ثم أعاده بانشرح صدر.

الباب الرابع عشر

﴿ تفاوت أحوال المتناولين لأعراض الدنيا ﴾

طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب :

الأول : من يتناولها على أي وجه اتفق ، راكناً إلى المال غير متفكر في المآل ، وإياه قصد تعالى بقوله : « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ »^(٢)

١ - طه ١١٥

٢ - الحمزة ٣

الثاني: من يتناولها على وجه يجب عليه تناوله ، وذلك إذا اقتصر على ما لا يمكن التبلع بأقل منه من الوجه الذي يجب كما يجب ، ولوجوب تناول هذا القدر قليل : مباحات الصوفية فريضة ، وفريضتها مباحة ، يعني انه لا يقدم على تناول مباح حتى يضطر اليه .

وروي من طلب رزقه على ماسن فهو في جهاد ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: (إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة التي يضعها في في امرأته) ولم يعن أن كل أحد يؤجر في ذلك ، وإنما أراد تخصيص المؤمنين الذين يُراعون حكم الله عز وجل في مكاسبهم وانفاقهم ، ويتحرون به عبادة الله تعالى .

والضرب الثالث: من يتوسع في تناولها ولا يراعي فيه لكن يكون فيه وكيلاً لله فيقتصر منه لنفسه على تناول بلغته ، ويجعل الباقي مصروفاً الى ما دعى اليه فهذا أفضل ممن تقدم ذكره ، فانه يصير بذلك من خلفاء الله تعالى ، فمن تناول الدنيا على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل في قوله تعالى: «وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ»^(١) الآية وبالاعتبار بمثلهم قال تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ»^(٢) وقال: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ»^(٣) الآية . فجعلها لهم ثم قال: «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَبْدِينَ»^(٤) أي من تحرى عبادة الله تعالى في تناول الدنيا فانه يبلغ بذلك المقصود في قوله: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ»^(٥) وقال: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ

٤ - الأنبياء ١٠٦

٥ - النجم ٤٢

١ - القصص ٧٧

٢ - الاعراف ٣٢

٣ - الأنبياء ١٠٥

جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ»^(١) والفضل هو الاحسان فنبه بذلك على أن تناول المال إذا تحرى به الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل وإحسان، وقال في مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب: «رجالٌ لَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تُلْهِمُهُمْ تَجَرَّةٌ»^(٢) الآية.

الباب الخامس عشر

﴿ في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا ﴾

من تصور الوجوه الثلاثة التي تقدم ذكرها في تناول الدنيا سقطت شبهته فيما ورد من الآيات والأخبار المتفاوتة في الظاهر ، من ذم الدنيا وأعراضها تارة ، ومدحها تارة ، وذلك ان ما جاء في ذمها فاعتباراً بمن رضىها حظاً لنفسه ، وجعلها قاضية مراده ، كما قال تعالى: «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنَنُوا بِهَا»^(٣)

وما جاء في مدحها فاعتباراً بتناولها وإنفاقها على ما يحمد ، وعلى ذلك قال علي رضي الله تعالى عنه : الدنيا دار نجاة لمن نهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها ، والناس فيها رجلان بائع نفس فموبقها ومبتاع نفس فمعتقها ، وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الأرض فقال تعالى: «وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم : (من

٣ - يونس ٧

٤ - هود ٦١

١ - البقرة ١٩٨

٢ - النور ٣٧

غرس غرساً لم يأكل منه طائر ولا بهيمة إلا كان له صدقة) ، وذم مرة عمارتها فقال تعالى : « أولم يسيروا في الأرض » الى قوله : « وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : (الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها) .

الباب السادس عشر ﴿ في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ﴾

الناس في ذلك ثلاثة أصناف:

صنف منهم المنهوكون في الدنيا بلا التفات منهم الى العقبى ،
وهم المسمون عبدة الطاغوت ، وشر الدواب ونحوها من الأسماء ،
وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة ، يراعون العقبى من غير
التفات منهم إلى مصالح الدنيا ، .
وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما ، وهذا الصنف هم عند
الحكماء الأفضلون ، لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ،
ومنهم عامة الأنبياء ، لأن الله عز وجل بعثهم لإقامة مصالح
المعاد والمعاش ، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذي هو أشرف
الأحوال وأجدر أن تكون ثلاثتهم داخلين في قوله تعالى : « كُنْتُمْ
أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً »^(٢) فالمراعي للدنيا والآخرة على ما يحسن وكما يحسن من

١ - الروم ٩

٢ - الواقعة ٧

السابقين ، وجعل قوم السابقين هم النساك الذين رفضوا الدنيا محتجين فيه بقوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»^(١) وخفي على هذا الجاهل أن أعظم عبادة الله تعالى ما كان عائداً بمصالح عباده ، وروى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله). ولأنه كما يقبح أن يشتغل الانسان بأمر دنياه وبدنه فيضيع أحد جزأيه المركب عليه ، كذلك يقبح أن يضيع الجزء الآخر الذي هو بدنه ، لأنه يصير مضاد الله تعالى في أبطال ما أوجده وأتقنه .

فإن قيل فقد قال بعض الحكماء الناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه ، فذلك من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده ، فذلك من الهالكين ، ورجل مشغول بهما فذلك من المخاطرين ، قال : وقد علم أن الفائزين أحسن حالاً من المخاطرين ، قيل أن المنازل الرفيعة لا تنفك عن مخاطرة ، ولم يقصد هذا القائل بذلك إلا تفضيل الفائز ، إنما الخوف أن يترشح لخلافة الله تعالى من هو قاصر عنها ، ويقوي ذلك ما روي ان بعض أولاد الملوك ممن تقوى في العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد في الدنيا فكتب اليه بعض الملوك ، قد اعتزلت ما نحن فيه ، فان عرفت ان ما أنت فيه أفضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه ولا تحسبني أقبل منك قولاً بلا حجة ، فكتب إليه : أنا عبد لملك رحيم ، بعثنا الى حرب عدو ، وعرفنا ان المقصد بذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربوا من الزحف صاروا ثلاثة أثلاث :

متحرر: طلب السلامة فاعتزل عنه فاكسب السلامة، وإن لم يكتسب المحمدة.

ومتهوراً: قدم على غير بصيرة فجرحه العدو فهزمه، فاكسب بذلك سخط ربه .

وشجاع: قدم على بصيرة فقاتل وأبلى واجتهد، فهو الفائز التام الفوز، وأنا لما وجدتني ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين، فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن أكرمهم، والسلام على من اتبع الهدى .

الباب السابع عشر

﴿ بيان أحوال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك ﴾

الاعتبار في تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال، الزهد فيها أو الرغبة، لا تناول الكثير والقليل، بل تناولها من حيث ما يجب، ووضعها كما يجب، قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى يسمى زاهداً، ولو أنه ترك جميع ما في الأرض، ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسم زاهداً، ولا كان لله تعالى في ذلك عابداً، فليكن أخذك الذي تأخذه وتركك الذي تتركه لله عز وجل لا لغيره،

واعلم أن الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق

تناول حية قد عرف ضررها ونفعها وأمن سمها ، فيتحرى تناولها الوجه الذي ينتفع هو به ، وينفع غيره فهو مباح له تناولها ، وغير الحكيم إذا تناولها فهو كجاهل استحسن الحية واستلان مسها فظن انها مستصلحة لأن يتقلد بها فجعلها سخاباً في عنقه فلدغته وقتلته وما أحسن قول الشاعر:

هي دنيا كحية تنفث السم * وإن كانت المجسة لانت

فكما لا يجوز للجاهل برقية الحية أن يتناولها ، كذلك لا يجوز للجاهل أن يقتدي بالحكيم في تناول أعراض الدنيا ، وكما أنه محال أن يسلك الأعمى من غير قائد طريقاً وعرأ يسلكه البصير إذ هو غير آمن أن يقع في وهدة ، كذلك محال أن يسلك الجاهل مستبداً برأيه في تناول أعراض الدنيا طريقاً يسلكه الحكيم العالم ، إذ هو غير آمن أن يقع في هاوية ، وأيضاً فالدنيا غانية رعناء كما قال :

شيم الغانيات فيها فلا أد * ري أفي الغانيات تحسبي أم لا

فكما أن الغانية لا يجوز أن يدخل عليها ويخلو بها من الرجال إلا من كان محبوباً يؤمن عليها ، فكذلك الدنيا لا يجوز أن يتمكن منها إلا المقطوع عنها بالعفة والزهد لثلا تغره ، وذلك كأمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه حيث قال : يا حمراء ويا بيضاء احمرى واصفري وغري غيري هذا جنائي وجناؤه فيه إذ كل جان يده الي فيه ، ومن تصور ذلك علم أن الله تعالى قد أباح الدنيا لأوليائه علماً منه انهم لا يتناولونها إلا على ما يجب وكما يجب ، وإذا تناولوها وضعوها كما يجب حيث ما يجب ، وعلى هذا قال تعالى : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ»^(١) وقال: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»^(٢) الى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها.

الباب الثامن عشر

﴿ ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية ﴾

لله تعالى عقوبتان في معاقبة من تناول ما لا يجوز له تناوله من الدنيا، أو تناول من الوجه الذي يجوز لكنه لم يوف حقه ،

إحدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة ، وذلك كعقوبة من غصب مالا مجاهرة أو سرقة ، وكمن منع حق الله تعالى من الزكاة ، فإن عقوباتهم ظاهرة أمر السلطان باقامتها .

والثانية: عقوبة خفية عن البصر مدركة ببصائر أولي الألباب ، كعقوبة من تناول مالا من حيث لا يجوز له تناوله ، أو منعه من حيث لا يجوز منعه إلا على وجه فيه حدّ أمر السلطان باقامته . فهذا عقوبته ما روي أي امرئ سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث ، شغل لا يبلغ مداه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، وما قال عليه الصلاة والسلام: (من كانت الدنيا أكبر همه شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يبال الله به في أي واد من الدنيا هلك) وعليه: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

١ - الاعراف ١٢٨

٢ - الانبياء ١٠٥

كَفَرُونَ»^(١) وقوله تعالى: « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا »^(٢) ليس يعني قلة المعيشة ، وإنما يعني ما يقاسي من الهموم والغموم التي تكدر العيش .

الباب التاسع عشر ﴿ ذكر الإنفاق المحمود والمذموم ﴾

الانفاق ضربان محمود ومذموم:

فالمحمود منه: ما يكسب صاحبه العدالة وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله ، كالصدقة المفروضة والانفاق على العيال ،

ومنه ما يكسب صاحبه أجراً وهو الانفاق على من ألزمت الشريعة الانفاق عليه .

ومنه ما يكسب الحرية وهو بذل ما ندبت الشريعة إلى بذله فهذا يكسب من الناس شكراً ، ومن ولي النعمة أجراً .

فالمذموم ضربان: إفراط وهو التبذير والاسراف ، وتفریط وهو التقير والامساك ، وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية ، فالتبذير من جهة الكمية ، أن يعطي أكثر مما يحتمله حاله ،

ومن حيث الكيفية أن يضعه في غير موضعه والاعتبار في الكيفية

١ - التوبة ٥٥

٢ - طه ١٢٤

أكثر منه بالكمية ، فرب منفق درهماً من ألف هو في إنفاقه مسرف ، وببذله مفسد ظالم كمن أعطى فاجرة درهماً أو اشترى خمرأ ، ورب منفق ألوفاً لا يملك غيرها هو فيه مقتصد ، وبذله محمود كما روي في شأن الصديق رضي الله تعالى عنه ، وقد قيل لحكيم متى يكون بذل القليل إسرافاً والكثير اقتصاداً؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطل والكثير في حق ، والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحمله حاله .

ومن جهة الكيفية : أن يمنع من حيث ما يجب وينفق حيث لا يجب ، والتبذير عند الناس أحمد ، لأنه جود لكنه أكثر مما يجب ، والتقتير بخل والجود على كل حال أحمد من البخل ، لأن رجوع المبذر الى السخاء سهل وارتقاء البخيل اليه صعب ، ولأن المبذر قد ينفع غيره وإن أضرب نفسه ، والمقتّر لا ينفع نفسه ولا غيره وقد يقال ، إن التبذير في الحقيقة أقبح لما فيه من الإسراف ولأن بجانبه حقاً مضيعاً ، ولأنه يؤدي بصاحبه الى أن يظلم غيره ، ولهذا قيل : المبذر أغدر من الظالم ، لأنه جهل بقدر المال الذي هو سبب استبقاء الناس ، والجهل رأس كل شر ،

والمتلاف : ظالم من وجهين لأخذه من غير موضعه وصرفه كذلك ، ولكثرة مدام الإسراف ذمه الله تعالى أكثر من البخل فقال : « ولا تبذر تبذيراً » وقال عز وجل : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » (٢) الآية . أي ملوماً من جهة سائلك فلم تجد ما تعطيه ومحسوراً عن بلوغ مرادك قال المتنبي :

١ - الاسراء ٢٦

٢ - الاسراء ٢٩

فلا ينحلل في المجد مالك كله * فينحل مجد كان بالمال عقده
 فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
 وليس الاسراف متعلقاً بالمال فقط ، بل بكل شيء وضع في غير
 موضعه اللائق به . ألا ترى ان الله تعالى وصف قوم لوط بالاسراف
 لوضعهم البذر في غير المحرث فقال : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ »^(١)
 ووصف فرعون بقوله : « إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ »^(٢) وقوله : « وَإِنَّهُ
 لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ »^(٣)

الباب العشرون

﴿ حقيقة السخاء والجود والبخل ﴾

السخاء : هيئة للانسان داعية الى بذل القنيات حصل معه البذل
 أولم يحصل . ويقابله الشح .

والجود : بذل المقتنى ، ويقابله البخل ، وهذا هو الأصل وإن كان
 كل واحد منهما قد يستعمل في موضع الآخر ، ويدلك على هذا الفرق
 انهم جعلوا الفاعل من السخاء والبخل على بناء الأفعال الغريزية
 فقالوا : شحيح وسخي ، وقالوا : جواد وباخل ، وأما قولهم بخيل
 فمصرف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم ، ولكون
 السخاء غريزة لم يوصف البارئ تعالى به ، وقد عظم الله أمر الشح

٣ - يونس ٨٣

١ - الاعراف ٨١ ، ٩ ايس

٢ - الدخان ٣١

وخوف منه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (ثلاث مهلكات شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) ، فخص المطاع لينبه على أن وجود الشح في النفس ليس مما يستحق به الذم إذ هو ليس من فعله ، وإنما ذم بالانقياد له فقال : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ »^(١) وقال : « وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ »^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام : (لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد) .

الباب الحادي والعشرون

﴿ فضيلة الجود وذم البخل ﴾

الجود على السنة الورى محمود ولذلك قيل : كفى بالجود حمداً أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في حمد ، وكفى بالبخل ذماً إن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في ذم ،

وقيل لحكيم : أي فعل البشر أشبه بفعل الباري تعالى ؟ فقال :
الجود ،

وقال عليه الصلاة والسلام : (الجود شجرة من أشجار الجنة من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى الجنة ، والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى النار) ، ومن شرفه أن الله

١ - الحشر ٩ ، التغابن ١٦

٢ - النساء ١٢٨

تعالى قرن ذكره بالايان ووصف أهله بالفلاح ، والفلاح اسم جامع
 لسعادة الدارين فقال : «الذين يؤمنون بالغيب» الى قوله : «هم
 الْمُفْلِحُونَ»^(١) وحق للوجود أن يقرن بالايان فلا شيء أخص به وأشد
 مجانسة له منه فمن صفة المؤمن انشراح الصدر : «فَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ
 يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا»^(٢)
 وهما من صفات الجواد والبخيل ، لأن الجواد يوصف بسعة الصدر
 للانفاق ، والبخيل يوصف بضيق الصدر للامساك ، وقال عليه الصلاة
 والسلام : (أي داء أدوا من البخل) .

والبخل ثلاثة أضرب : بخله بماله ، وبخله بمال غيره على
 غيره ، وبخله على نفسه بمال غيره ، وهو أقبح الثلاثة ،

والباخل بما في يده باخل بمال الله على نفسه ، فقد تقدم أن المال
 عارية في يد الانسان مستردة ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من
 العذاب الأليم الدائم بمال غيره ، سيما إذا لم يخف من صاحبه تبعة ، ولا
 ملامة ، والكفاية الإلهية متكفلة بالتعويض للمنفق فقد قال عليه الصلاة
 والسلام : (اللهم اجعل لمنفق خلفاً ، ولممسك تلفاً) . وقال : (أن الله
 عز وجل ينزل المعونة بقدر المؤونة) وروي (من وسع وسع عليه) .

١ - البقرة ٣ .

٢ - الانعام ١٢٥ .

الباب الثاني والعشرون ﴿ أنواع الجود والمجود به ﴾

الجود خمسة أضرب :

جود الله تعالى : وهو البذل على كل أحد بقدر استحقاقه ،

وجود الملوك : وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم ،

وجود السوق : وهم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال ،

وجود الصعاليك : وهو البذل للندامى والشرب ، وجود عوام

الناس وهو الاحسان الى الأقارب ، والمحمود من ذلك كله الجود

الإلهي وهو الجود على كل بقدر استحقاقه ، فالمعطي ما يحتاج اليه لمن لا

يحتاج اليه مسرف مضيع ، والمعطي لغيره شيئاً للرغبة واق نفسه ، والمعطي

لرغبة له لمثوبة ، أو لمحمدة دنيوية تاجر ، وأما قول بشار :

فتى يشتري حسن الثناء بماله * ويعلم أن الدائرات تدور

فليس بغاية في الوصف بالجود التام لمن وصف بتجارة محمودة

وأحسن منه قول ابن الرومي :

وتاجر البر لا يزال له * ربحان في كل متجر تجره

أجر وحمد وإنما طلب الا جر ولكن كلاهما اعتوره

وقد أجاد بشار بقوله

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يلذ طعم العطاء

الفصل السابع

﴿ في ذكر الأفعال ﴾

الباب الأول

﴿ في أنواع الأفعال ﴾

الأفعال ضربان : إلهي وإنساني .

فالإلهي أربعة أضرب : إبداع ، وتكوين ، وتربية وإحالة ،
وجميع ذلك يسمى خلقاً من حيث كان وجود كل واحد بمقدار .

والخلق : في الأصل التقدير المستقيم .

فالأول : الإبداع وهو إيجاد الشيء دفعة لا عن موجود ولا
ترتيب ولا عن نقص إلى كمال ، وليس ذلك إلا للباري تعالى ، وإن
كانت العرب تستعمل الإبداع فيمن يحفر بئراً في مكان لم يحفر فيه
قبل ،

والثاني : التكوين وهو إيجاد الشيء عن عدم بترتيب ومن نقص
إلى كمال ، والمتكلمون قد يستعملون التكوين موضع الإبداع ولما هفوا
عن حقيقة التكوين استشنعوا قول من قال : السماء ليست بمكونة
وقدروا أنه يقول : ليست بمبدعة ولا مخلوقة ، وإنما أراد هذا القائل فيما

ذكره أصحابه ودل عليه كلامه ان الله تعالى أبدعها إبداعاً كما قال الله تعالى: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١) ولم يخلقها خلقة ناقصة في ابتداء نشأتها، ثمكملها شيئاً فشيئاً كالحيوان والانسان والنبات.

والثالث: تربية الشيء وهي تغذيته، وذلك استخلاف ما تحلل من أبدان ما وجد من كون ليبقى المدة المضروبة له وبه، وقيل له تعالى رب العالمين.

والرابع: إحالة الشيء وهي التغيرات اللاحقة للكائنات في كيفياتها من لون وطعم ورائحة.

والفعل الانساني ثلاثة أضرب: نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب الى أفعال القلوب،

وبدني: وهو الحركات التي يفعلها الانسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود، وصناعي: وهو ما يفعله الانسان بمشاركة البدن والنفس كالخرف والصناعات.

الباب الثاني

﴿ الفرق بين الفعل والعمل والصنع ﴾

الفعل: لفظ عام يقال لما كان باجادة، أو غيرها بعلم أو غيره بقصد أو غيره، ولما كان من الانسان والحيوان والجمادات.

١ - البقرة ١١٧.

وأما العمل : فيقال لما كان من الحيوان دون ما كان من الجمادات
وبقصد وعلم دون غيره وقال بعض الأدباء: العمل مقلوب عن العلم ،
وان العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة ، وهو يبرز عن فعل
القلب الذي هو العلم وينقلب عنه .

وأما الصنع : فانه يكون من الانسان دون سائر الحيوان ، ولا
يقال إلا لما كان بإجادة ولهذا يقال للحاذق المجيد والحاذقة المجيدة صنيع
وصناع ، والصنع قد يكون بغير فكر لشرف فاعله . والفعل قد يكون
بلا فكر لنقص فاعله . والصنع أخص المعاني الثلاثة ، والفعل
أعمها ، والعمل أوسطها ، فكل صنع عمل وليس كل عمل صنعاً ،
وكل عمل فعل وليس كل فعل عملاً . وفارسية هذه الألفاظ تنبي عن
الفرق بينها فانه قيل للفعل : كار وللعمل كردار وللصنع كنش .

الباب الثالث

﴿ أنواع الصناعات ﴾

هي ضربان : علمي وعملي ، فالعلمي ما يستغنى فيه عن
الاستعانة بالجوارح من اليد أو الرجل كالمعارف الالهية والحساب ،
والعلمي ما يستعان فيه بالجوارح وهو ضربان : الأول ينقضي بانقضاء
حركة الصانع كالرقص ، والثاني : شيء يبقى له أثر معقول لا
محسوس كالطب وضرب محسوس كالكتابة .

الباب الرابع

﴿ الأفعال الارادية وغير الارادية ﴾

الفعل الذي يظهر من غير الله تعالى إما تسخييري وإما غير تسخييري ، فالتسخييري يظهر لا بقصد ممن يظهر منه ، وقد يكون ذلك من الجهاد والحيوان ، وهو نوعان :

نوع بتسخير الله تعالى ، كاحراق النار وتبريد الثلج .

وضرب بتسخير البشر كطحن الرحى . وأما غير التسخييري ففرضان : ضرب يكون من فاعله مبدأ الارادة وهو ثلاثة :

الأول : بحسب التميز كمن تناول الخير دون الشر مؤثراً له .

والثاني : بحسب الغضب كمن يبطش بمن يقدر عليه .

والثالث : بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه ، والذي لا يكون منه مبدأ الارادة ولا متهاها ، كمن رمى غرضاً فأصاب رجلاً .

وضرب يكون منه مبدأ الارادة لا متهاها ، كمن حصل في سفينة فخاف الغرق فكلف أن يلقي متاعه في الماء ليتخلص ، والأفعال من الجمادات تقع بالتسخير فقط ، ومن الحيوانات تقع بالتسخير وبالنزاع الذي تقضيه القوة الشهوية ومن بعض الحيوانات تقع بهما وبالغلبة التي تقضيها القوة الغضبية ، ومن الانسان تكون بكل ذلك وبالفكرة التي تقضيها القوة العاقلة .

الباب الخامس

﴿ ما يستحق به اللوم وما لا يستحق ﴾

الأفعال ضربان: ضرب إرادي وغير إرادي ، والارادي ضربان : ضرب عن روية . وضرب لا عن روية ، والذي عن روية ضربان ، أحدهما الذي عن روية تظن في غاية الشرف ، وهو ما يكون بحسب النفس الناطقة ، ويسمى الاختيار وهو طلب ما هو خير له ، ويستحق أبدأ به الحمد إذا كان على الحقيقة اختياراً .

والثاني : عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف ، وذلك إما بحسب القوة الغضبية ، وهو دفع ما يضره . وإما بحسب القوة الشهوية وكل واحد منهما إذا كان بقدر ما يوجب العقل يستحق به الحمد ، وإذا كان زائداً أو ناقصاً يستحق الذم .

والإرادي الذي عن غير روية واختيار ضربان :

أحدهما : ما يفعله في نفسه .

والثاني : بغيره، وكل ضربان . نفع وضرر، فما قصد به نفع نفسه ، فقد يستحق به الحمد والشكر معاً .

وما قصد به ضرر نفسه ، فقد يستحق به الذم والعتب عليه ، وغير الإرادي ثلاثة أضرب :

الأول : يكون قسراً ومبدؤه من خارج ، ولا يكون من أربابه

معونة بوجه كمن رفعته ريح فسقط على آنية فكسرها .

والثاني: أن يكون الجائيا كمن أكرهه سلطان على فعل ما ، وهذا متى كان الملجأ اليه قبيحاً جداً ، والسبب الملجئ اليه خفيفاً يستحق مرتكبه الذم ، كمن يضرب على أن يقتل انساناً ومتى كان الملجأ اليه ليس بحميد بل قبيح وكان السبب الملجئ اليه عظيماً لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلته السيف فهدد بأن يقتل إن لم يتكلم بكلام قبيح وكلاهما يقال له : الاكراه .

والثالث : الخطأ وهو ما يكون مبلوؤه من صاحبه وذلك نوعان :

أحدهما : ما تولد عن فعل وقع منه وله أن يفعله كمن يرمي هدفاً فيصيب انساناً ، وذلك يستحق به ملامة ما لم يقع من صاحبه تقصير في الاحتراز .

والثاني : ما يتولد عن فعل ليس له أن يفعله ، كمن شرب فسكر فحمله سكره على أن كسر إناء وضرب إنساناً ، فان ذلك يستحق الملامة ، وإن لم يكسر الإناء وضرب الانسان فقد ارتكب محظوراً ، أدى به إلى وقوع ذلك منه ، فالضرب الأول يقال له : أخطأ فهو مخطيء .

والثاني : يقال له مخطيء فهو خاطيء ، ولهذا قال أهل اللغة مخطيء في العمد وأخطأ في غيره :

الباب السادس

﴿ الأسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها ﴾

أكثر الأسباب التي يحتاج الفعل اليها في وجوده عشرة أشياء :

فانه يحتاج الى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار ، والى عنصر يعمل فيه ، كالخشب ، والى عمل كالنجر .

والى زمان ومكان يعمل فيهما .

والى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت .

والى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب .

والى غرض بعيد كتحصين البيت به .

والى مثال يعمل عليه ويقتدي به .

والى مرشد يرشده ، وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال : أعطاني زيد إذا باشر الاعطاء ، وأعطاني الله لما كان هو الميسر له ، وربما جمع بين السبب البعيد والقريب فيقول : أعطاني الله وزيد قال الشاعر :

حبا بنا به جدنا والاله * وضرب لنا أجذم صارم

فنسب الى الأول وهو الله عز وجل ، والى السبب المتأخر وهو الضرب .

وإلى المتوسط وهو الجد وقال تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ

مَوْتَهَا»^(١) وقال تعالى: «قُلْ يَتَوَقَّعُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ»^(٢) فأسند الأول الى الأمر به والثاني الى المباشر له ، وقال الشاعر في صفة الدرع وألبسنيه الهالكى * وقال: كساهم مخرق فنسب الفعل الى عاملها ، وفي الثاني: الى مستعملها وقال في صفة نبال :

* نبال كستهاريشها(٢) مضرحة * فنسب كسوتها الى الطائر الذي أخذ ريشه فجعل لها ، وقيل : يداك أوكتا وفوك نفخ . فنسب الفعل الى الآلة المتصلة ، ويقال: سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة ، وقيل: ضرب فيصل وفاصل ، وطعن حائف . فنسب الى الحدث وقيل سرّكاتم ، وعيشة راضية ، فنسب الى المفعول وقال عز وجل: «حَرَمَاءٌ آمِنَاتٌ»^(٣) فنسب الى المكان وقيل : يوم صائم وليل ساهر ، قال .

* وما ليل المطي بنائم * فنسب الى الزمان ، فلما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب لأحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين وعلى ذلك قوله :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى * حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين ، ويقال: هذا الخشب قطعه أنا لا السكين ، ويقال قطعه السكين ولم أقطعه ، وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه ، فنسب الى كل ذلك وقال: وأضله الله لما كان تعالى هو السبب الأول في وجوده

وجود الآلة ، وإن لم يكن تعالى هو الداعي الى الضلال ، ويقال :
أضله الشيطان لما كان هو الداعي الى الضلال ، وأضلته نفسه لما تركت
الاحتراز ،

وهذا فصل من تأمله لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من
الألفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى ، بل ينظر في مثل هذا من المعنى الى
اللفظ .

واعلم أن من أجل هذا الذي قدمنا ، قال قوم من المحصلين لا
شيء من الأفعال فاعله واحد في الحقيقة إلا الله عز وجل ، فان فعله عز
وجل يستغني عن الزمان والمكان والمادة ، ومثال يحتذيه ومن عداه من
الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب
الابداع الى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً ويصح أن ينسب فعل الله
تعالى الى كل ما تقدم ذكره .

قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى : هذا آخر ما
قصدت تبينه من هذا المعنى وأختم القول بحمد الله والثناء عليه ،
والتضرع اليه ، في أن ينفعني واخواني فيما تحريره ، ويجعلني ممن تذكر
فذكر ، وتبصر فبصر ، واتعظ فوعظ ، وتيقظ فأيقظ ، فأعظم الهجنة أن
يأمر من لا يأتمر ، ويزجر من لا ينزجر ، وأن يدعي الحكمة من يرى
القذى في عيون إخوانه فينكرها ، ويرى الجذع المعترض في أجفانه ولا
يغيرها ، فنصح غيره وغش نفسه فهو

كمن كسى الناس من عري وعورته * للناس بادية ما أن يواربها
وكالمسن يسن الحديد ولا يقطع ، وكالصخر الصلد يمر به الماء

النافع ولا ينتفع هو به قال عليه الصلاة والسلام: (ان الله ينصر هذا الدين بقوم) لا لهم (ونرغب) اليه تعالى أن يجعلنا برحمته ممن ائتم بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (بادر خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك) ، فما أعظم في الحياة الحسرة والندامة ، إن لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل شيء فسهل المجاز ، ويسر لي بالجواز ، فقد حان حصادي ولم يصلح فسادى ، وصلّ يا ربي على خاتم النبیین ، واجعله لي من الشافعين ، آمين .

بعد حمد الله على آلائه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه
يقول مصححه الراجي عفو الباقي عبد الهادي موسى البولاقي

قد تم بعون الله طبع كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة للشيخ العلامة اللوذعي الفهامة ذي المجد والفيض الرباني أبي القاسم الراغب الأصفهاني الذي لم يسبق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، فكم أودع فيه من غرر النفائس ، وأبرز من حسان مخدرات العرائس وأورد من حكم شريفة ونكات بديعة منيفة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فكان حقيقاً بطبعه وتيسير سبيل نفعه لدى دار الكتب العلمية في بيروت ذات التحريات الفائقة الباهرة والحمد لله رب العالمين

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
في أحوال الانسان وقواه	٨
في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها	١٠
فيما يتعلق بالقوى الشهوية	١٢
فيما يتعلق بالقوى الغضبية	١٢
في العدالة والظلم والمحبة والبغض	١٣
فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والاتفاق والجود	١٤
وبالخل	
في ذكر الأفعال	١٥
مثل أهل الدنيا وما رشحوا له	١٥
ماهية الانسان وكيفية تركيبه	١٩
في تعديد قوى الانسان وصفاته	٢١
في تعاون القوى الروحانية وكيفيات إدراكها	٢٤
في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان	٢٥
في بيان ما يفضل به الإنسان	٢٧
في كون الإنسان بين البهيمة والملك	٣٠
ما لأجله أوجد الإنسان	٣١
السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى	٣٢
في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض	٣٤

كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافه	٣٦
الله تعالى وكمال عبادته	
فما يفرز اليه من طهارة النفس	٣٨
بيان ملازمة الهوى للعقل	٤٠
الفرق بين ما يسومه العقل وبين ما يسومه الهوى	٤٣
في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى	٤٦
حصول الخلق المحمود بطهارة النفس	٤٧
الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة	٤٩
إمكان تغير الخلق	٥٠
صعوبة إصلاح القوى الشهوية	٥٢
في إزدياد الإنسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما	٥٤
في الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق	٥٦
في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم	٥٧
وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة	٥٨
نعم الله الموهوبة والمكسوبة	٦٠
حاجة بعض هذه الفضائل إلى بعض	٦٥
الفضائل المطيفة بالإنسان	٦٦
الفضائل الجسمية	٦٩
ما يتولد من الفضائل النفسية	٧٢
الفضائل التوفيقية	٧٦
في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضاً	٨٠
البواغث على فعل الخير وتحري الفضائل	٨١
الموانع من تحري الفضائل	٨٢
الارتقاء في درجات الفضائل ، وانحداد عنها	٨٤
بيان عبادة الله تعالى في تهذيب الذين ترددوا في الرذائل	٨٧

الموضوع	الصفحة
أصناف الناس	٨٨
فضيلة العقل	٩٢
أنواع العقل	٩٣
المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي	٩٦
منازل العقل واختلاف اسمائها بحسبها	٩٧
جلالة العقل وشرف العلم	١٠٠
الفرق بين العلم والعقل	١٠٢
توابع العقل	١٠٥
ثمرة العقل	١١٦
وجوب بعثة الانبياء	١٢١
ما يعرف به صحة النبوة	١٢٢
كون العقل والرسول هاديين الخلق إلى الحق	١٢٤
تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب	١٢٤
الايمان والاسلام والتقى والبر	١٢٦
في الايمان	١٢٩
في أنواع الجهل	١٣١
في قول النبي الايمان بضغ وسبعون باباً	١٣٤
كون العلم مركزاً في نفوس الناس	١٣٧
حصر أنواع المعلومات	١٤٠
ما يعرف به فضيلة العلوم	١٤٢
استحسان معرفة أنواع العلوم	١٤٣
معاداة بعض الناس لبعض العلوم	١٤٤
الحث على تناول البلغة	١٤٦
أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته	١٤٨
ما يجب على المتعلم أن يتحراه	١٤٩
ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه	١٥٢

الموضوع	الصفحة
وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم	١٥٤
وجوب ضبط المتصدين للعلم وصره لإهمال ذلك	١٥٨
ذكر من يصلح لوعظ العامة	١٥٩
ذكر الحال التي يجب أن يكون من عليها الواعظ	١٦٠
صعوبة المعيار الذي يعرف به حقائق العلوم	١٦٢
كراهية الجوال للعوام وذمه	١٦٣
ما يجب أن يعامل به الجدل المباحك	١٦٥
الوجوه التي من أجلها يقع الشبه والخلاف	١٦٧
بيان اختلاف جميع الناس في الأديان والمذاهب	١٦٨
النطق والصمت	١٧٠
في الصدق ومدحه والكذب وذمه	١٧٢
ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب	١٧٤
أنواع الكذب والسبب الداعي إليه	١٧٦
الذكر الحسن من المدح والثناء	١٧٧
الشكر	١٧٩
الغيبة والنميمة	١٨٢
الكلام القبيح البذاء	١٨٣
المزاح والضحك	١٨٤
الحلف	١٨٥
الحياء	١٨٧
كبر الهمة	١٨٩
الوفاء والغدر	١٩١
المشاورة	١٩٢
النصح	١٩٣
كتمان السر	١٩٤
التواضع والكبر	١٩٦
الفخر	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
العجب	٢٠١
أنواع اللذات وتفصيلها	٢٠٣
فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه	٢٠٦
فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه	٢٠٨
العفة	٢١١
القناعة والزهد	٢١٤
الورع	٢١٦
ما يتسع من القوى الغضبية	٢١٧
أنواع الصبر ومدحه	٢١٨
الشجاعة	٢١٩
اسماء أنواع الفزع	٢٢١
مداواة الغم وإزالة الخوف	٢٢٣
أحوال الناس في محبة الموت	٢٢٧
السرور والفرح	٢٣٠
العتذر والتوبة	٢٣١
الحلم والعفو	٢٣٣
توارن الغضب وفضل كظمه	٢٣٦
الغيرة والجوار	٢٣٨
الغبطة والمنافسة والحسد	٢٣٩
ذكر العدالة وفضيلتها	٢٤١
أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه	٢٤٣
ما يحسن ترك العدالة فيه	٢٤٥
ذكر الظلم	٢٤٧
الأسباب التي يحصل منها الأضرار	٢٤٩
ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة	٢٤٩
ماهية المحبة وأنواعها	٢٥٢

الموضوع	الصفحة
فضيلة المحبة	٢٥٣
فضيلة الصداقة	٢٥٤
في ذكر المحب في الناس	٢٥٥
الحث على مصاحبة الأخيار	٢٥٥
فضيلة تفرد الانسان عن الناس ورذيلته	٢٥٧
العداوة	٢٥٩
في حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر	٢٦٢
تسخير الله تعالى هم الناس الى الصناعات المختلفة	٢٦٣
كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس	٢٦٤
مناسبة بدن الإنسان لصناعته	٢٦٥
وجوب التكسب	٢٦٦
مدح السعي وذم الكسل
تقاسيم الصناعات ومراتبها	٢٧٠
في أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحي	٢٧٢
في شأن الناضى المتعامل به	٢٧٣
في مدح المال وذمه	٢٧٤
المال والأدب في إقتنائه	٢٧٦
إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل	٢٧٩
تحقيق كون المال في أيدي الناس	٢٨٠
تفاوت أحوال المتناولين لأعراض الدنيا	٢٨١
في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة	٢٨٣
في مراعاة أمور الدنيا والآخرة	٢٨٤
من يجوز له الاستنكار من أعراض الدنيا	٢٨٦
ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية	٢٨٨
ذكر الإنفاق المحمود والمذموم	٢٨٩
حقيقة السخاء والجود والبخل	٢٩١

الموضوع	الصفحة
فضيلة الجود وذم البخل	٢٩٢
أنواع الجود والمجود به	٢٩٤
في أنواع الأفعال	٢٩٥
الفرق بين الفعل والعمل والصنع	٢٩٦
أنواع الصناعات	٢٩٧
الأفعال الإرادية وغير الإرادية	٢٩٨
ما يستحق به اللوم وما لا يستحق	٢٩٩
الأسباب التي يمكن نسبة الفصل إليها	٣٠١
خاتمة	٣٠٤